دع القلق وابدأ الحياة

تأليف

ديل كارنيجي

تعريب

عبد المنعم محمد الزيادي

مقـــدمـــة

الطبعة السادسة عشر

منذ اكثر من خمسة وعشرين عاما . اقدمت على طبع هذا الكتاب دون أن أملك من نفقات الطبع اكثر من ربع المبلغ المطلوب !! .. وسمها جراة ، أو ربما اندفاعا وتهورا .. ولكنى كنت منتشيا بسحر هذا الكتاب الذى توسمت انه يسد فى المكتبة العربية الفراغ نفسه الذى سده فى المكتبة الانجليزية .. مؤمنا بحاجة قراء العربية الى الانتفاع به ، والاهتداء بهديه .. متلهفا على أن ارى اخوة لى فى الوطن العربى يفيدون منه مثل الفائدة التى أفدت ، أو يتلمسون فيه شفاء من داء هذا العصر ، وآفة هذا الاوان : القلق .

ومن ثم لم الق بالا الى عواقب هذه الجراة .. ولو اننى فعلت لأدركنى هذا التردد ، ولكنت خليقا بأن احجم عن تنفيذ هدفى الى اجل لا يعلم الا الله مداه !

على أننى ما أسرع ما استكشفت أن جراتى لم تكن نسيج وحدها .. فقد صادفت جراة تزيد عليها اضعافا مضاعفة . ممثلة فى أخى الاستاذ المرحوم محمد نجيب الخانجى ، صاحب مكتبة الخانجى ، وناشر هذا الكتـــاب ! .

وسرنى وملأنى زهوا وفخرا انه ، بدوره ، توسم فى الكتاب ماتوسمت وآمن بجدواه كما آمنت ، واستشف من ورائه النفع والفائدة كما استشففت ... فكان أن حمل عبء نشره غير محجم ولا متردد .

كان ذلك منذ اكثر من خمس وعشرون عاما ــ حين صدرت الطبعة الاولى من هذا الكتاب .. وبعد ان نفذت تلك الطبعة فى اشـــهر معدودات ، لم يبق للتردد محل فى قلبينا : قلب اخى نجيب وقلبى .. بل حلت محل هذا التردد ، الرغبة الصادقة فى توفير الكتـــاب فى

الاسواق العربية على الدوام ، بحيث لا يفتقده أحد ، فيعز عليه .

وتمشيا مع هذه الرغبة صدرت الطبعات الثانية والثالثة والرابعة وهذه هى الطبعة السادسة عشر أزفها الى القراء ، وقلبى مفعم بالسرور ولسانى ناطق بالشكر والامتنان ، ونفسى مملوءة بالسعادة .. سعادة من وسعه أن يحقق شيئا من أجل اشاعة السعادة بين الآخرين .

على أن الفضل ينبغى ان ينسب لذويه .. وصاحب الفضل الاكبر فى هذه الطبعات المتوالية ، وهذا الثوب القشيب الذى يتحلى به الكتاب ، للناشر الجرىء الاستاذ نجيب الخانجى .

عبد المنعم الزيادى

لمحات من حياة ديل « كارنيجى »

حين بدأ « ديل كارنيجى » — مؤلف هذا الكتاب — يعى شـيئا من أمر الحياة ، ألفى نفسه يعيش فى احدى القرى المنتشرة بولاية « ميسورى » بالولايات المتحدة الامريكية .. تلك القرى التى يحيا أهلها بعيدين نوعا ما عن اسباب الحضارة والعمران ، عاكفين سحابة نهارهم فى فلاحة أراضيهم ، حتى اذا عتم المساء ، أووا الى دورهم البسيطة ، يمسحون عرقهم المتصبب ، ويريحون أجسادهم من النصب المتصـل .

والتفت الى أبيه وأمه ، فألفاهما قرويين ، ساذجين ، يخيم عليهما الجهل ، ويحيط بهما الفقر ، وقد اعتمدا فى كسب عيشهما ، وتنشئة ولدهما على التربة التى يملكانها ، ويحصران فيها آمالهما كلها .
وفى هذا المحيط صادف كارنيجى عقبته الاولى فى طريقه الى الحياة ، هى الحياء ! ولم يدر أكان حياؤه هذا انطباعا أم تطبعا ، ولكن الذى أدركه أن هذا الحياء حال دونه ودون الانطلاق على سجينته ، كما يفعل أنداده .

وازداد حياؤه وضوحا حين احتوته المدرسة أول مرة . فقد أحس غضاضة فى أن يسعى الى المدرسة كل صباح ، ويؤوب منها كل مساء ، ممتطيا ظهر دابة من دواب أبيه ، على حين كان أقرانه الذين نأت بهم الديار عن المدرسة — مثله — يقيمون فى المدرسة طوال الموسم الدراسى ، موفرين بذلك عناء الغدو والرواح ، مظهرين بذلك ، ضمنا ، اقتدار ذويهم على الانفاق عليهم عن سعة .

هنالك احس كارنيجى بالنقص ، وأحس أن اقرانه قد لمسوا فيه هذا النقص .. لمسوه فى جيئته الى المدرسة وذهابه عنها على ظهر الدابة .. ولمسوه فى ثيابه القديمة المغبرة ، ولمسوه فى هزاله ، وضموره ، وشحوب وجهه الذى ينطق ببؤسه وعوزه .

ولمـا كان الاحساس بالنقص مقترنا دائما بالرغبة الملحة فى

التفوق والظهور ، ولما كان كارنيجي يانس فى بنيته الضعف ، وفى نفسه قلة الجلد والاحتمال ، فانه لم يستطع أن يتخذ ميدان الرياضة البدنية سبيلا الى تفوقه وظهوره ، ولم يلق أمامه ، من أوجه النشاط المدرسى ، سوى « فريق المناظرة » فانضم اليه عسى أن يصبح له فى راى زملائه شأن مذكور .

وحفزته لهفته الى أن يرضى كبرياء نفسه ، على اجادة الالقاء حتى صار كارنيجى على المنبر وجال ، وشفع حصافة الفكرة بقوة الحجة ، وقرن رصانة الاسلوب بوضوح النبرة ، وجلاء الصوت، فعقدت له الغلبة ، وحاز بطولة المدرسة فى « المناظرة والخطابة العامة » .

ولشد ماكانت دهشة كارنيجى ، بعد ان حاز هذا النصر المؤزر، اذ لمس مدى التغير الذى طرأ على سلوك زملائه نحوه،ومعاملتهم له. فأصبح الذى أزور عنه انفة واستكبارا كأنه ولى حميم ، وأصبح الذى شمخ بأنفه عليه يتملقه ويتقرب اليه ، وأصبحت الفتيات اللاتى أعرضن عنه لرثاثة ثيابه وزراية هيئته ، يخطبن وده لزلاقة لسانه وقوة حجته .

ولقد شفى هذا التحول نفس كارنيجى وأبرأ بعض سقمها ، ثم لم ينس فى مراحل حياته المختلفة ، أن نهوضه على قدميه أمام حشد من الناس ، والقاء ما يجول بذهنه من خواطر وآراء ، بأسلوب واضح مبين ، هو العامل الذى أنقذه من حياته ، وعوضه عن نقصه وأحيا موات آماله .

وظل كارنيجى يتابع دراسته ، ويتقلب فى مراحلها ، حتى اذا اتم تعليمه فى « كلية وارينسبرج » كف زمنا عن متابعة التحصيل ، وراح يحاول كسب عيشه ، فارتحل الى ولاية « نبراسكا » ، واشتغل أول الامر وسيطا لاحدى مدارس المراسلات ، وبذل

مجهودا كبيرا فى اقناع عملائه بالالتحاق بهذه المدرسة ، والاشتراك فى برامجها ، ولكنه لم يصب توفيقـا يذكر ، اذ كان كل أهالى « نبراسكا » من المزارعين ، الزاهدين فى استزادة معلوماتهم عن الكيمياء ، أو الهندسة أو المحاسبة .

وفى عام ١٩٠٨ ، وكارنيجى يومئذ شاب فى العشرين من عمره، تخلى عن عمله الاول ، واشتغل ببيع اللحوم المحفوظة ، لحساب احدى شركات التعبئة . وقد نفث كارنيجى فى عمله الجديد حماسته كلها ، وحشد له جهوده ونشاطه ، فصادف نجاحا كبيراً ، مما حدا بالشركة الى تعيينه مديرا لأحد فروعها ، ولم ينقضى على التحاقه بها سوى عامين !

تلك كانت لحظة فاصلة فى حياة كارنيجى ! فقد ازدهاه هذا الظفر المبين وطغت عليه حماسة جارفة ، ودب فيه نشاط شامل ، حتى انه استقال من وظيفته ، وشد رحاله الى « نيويورك » يبغى ظفرا أكبر ، وكسبا أعظم .

ولم يفتأ كارنيجى ، على مر هذه التجارب جميعا ، يذكر نجاحه الأول فى الخطابة والمناظرة . فلما كان فى « نيويورك » التحق «بالأكاديمية الأمريكية لفنون التمثيل» مؤملا أن تزدهر فيها موهبته فى الالقاء ، والخطابة العامة .

وقد عهد اليه ، حينذاك ، فى تمثيل دور « الدكتور هاوتلى » فى مسرحية تدعى « بوللى فتاة السيرك » Polly of the Circus

وقضى كارنيجى فى « الأكاديمة » تسعة أشهر ، حاول خلالها أن

يكسب عيشه ، الى جانب متابعة الدراسة ، من بيع الحقـائب الجلدية لحساب احدى الشركات التى تنتجها ، فلما انقضت تلك الأشهر التسعة ، ترك «الأكاديمية» سأما متبرما ،وحاول أن يقنع زميلا له ، كان يشاطره الغرفة التى كان يسكنها كما يشـاركه الدراسة فى «الأكاديمية» ، بأن يترك الدراسة بدوره ، وقال له:

« لا أحسب أنك ستصبح شيئا مذكورا اذا داومت على هـذه الدراسة » . ولم يكن زميله هذا سوى « هوارد لندساى » الكاتب الروائى ، الذى أخرجت له السينما أخيرا رواية بعنوان « العيش مع أبى » Life With Father ، كما لقيت مسرحيته « العيش مع أمى » Life With Mother اعجابا باهرا حين مثلت على مسارح « برودواى » .

وما زال كارنيجى الى اليوم ، يذكر هذه العبارة التى قالها لصديقه «لندساى» باعتبارها أول محاولة من جانبه «للتأثير» فى شخص آخر .

واعقب انصراف كارنيجى عن دراسة الالقاء والتمثيل ، زمن اشتغل فيه وسيطا لبيع سيارات النقل ، ولكنه لم يوفق فى هذا العمل ، ولم يجد فيه ضالته المنشودة ، كما لم يجد فيه اتساقا مع آماله فى الحياة ، فعمد مرة أخرى الى استغلال الموهبة التى أودعتها الطبيعة فيـه ، وأعنى بها تفوقه فى الالقاء والخطابة ، فالتحق بمدارس « جمعية الشبان المسيحية بنيويورك » مدرسا لفن « الخطابة العامة » .

ولقد كان اشتغاله بتدريس هذا الفن الأثير لديه . المحبب اليه ، حجر الأساس فى تكوين شخصيته التى عرف بها منذ عام ١٩١٢ — وهو العـام الذى اشتغل فيه بتدريس الخطابة حتى اليوم — شخصيته كرجل له رسالة ، ويهدف الى غاية محدودة واضحة المعالم — فان التجارب التى مر بها منذ استهل حيـاته طالبا صـغيرا ، قد أقنعته بأن الرجل الذى يسعه أن يقف فى حشد من الناس خطيبا ، مدليا برأيه فى غير مداراة ولا مواربة ، يستطيع أن يشق طريقه فى الحياة ، وأن يحقق آماله . ويوطد دعائم سـعادته ونجاحه ، بل يسعه ، فوق هـذا ، أن يقهر الخوف . والقلق ، والحياء ، والاحساس بالنقص . وأن يصير انسانا متكامل الشخصية ، نابه الذكر .

واذ رأى كارنيجى مدى نجاح برامجه فى الخطـابة ، ومدى

تأثر طلبته بها ، بل مدى الفلاح الذى يصادفونه ، والسعادة التى يحسونها ، حينما يطبقون المبادىء التى يلقنهم اياها ، انشأ لنفسه معهدا خاصا فى مدينة «نيويورك» سماه « معهد كارنيجى للخطابة المؤثرة والعلاقات الانسانية » TheDaleCaronegie Instituetc of Effective Speaking and Human Relations.
وفتحه لكل شاب ، ورجل ، وكهل ، يبغى الاستزادة من نجاحه وسعادته عن طريق تحسين معاملته للناس ، والمقدرة على التأثير فيهم .

وقد لقيت برامج معهده — وما زالت تلقى نجاحا كبيرا ، واقبالا عظيما . بل ان المصالح الحكومية ، والشركات الكبرى ، واستديوهات هوليود ، قد اعترفت بفضل هذه البرامج ، فأصبحت توفد البعوث من موظفيها الى معهد كارنيجى ، عسى أن يتشبعوا بمبادئه ، فيزداد انتاج هذه المصالح والشركات ، وتصيب ما تصبوا اليه من نجاح .

ثم سرعان ما أصبح لمعهد « كارنيجى » فروع كثيرة أربى عددها على ثلاثمائة فرع ، فى مدن شتى بلغ تعدادها مائة وثمانى وستين مدينة فى أمريكا ، وكندا ، وجزر هاواى ، والنرويج .

ويقدر عدد الطلبة الذين يلتحقون بفصول معهد «كارنيجى» سنويا بنحو خمسة عشر الف طالب ، يتقاطرون ، لا من ولايات أمريكا فحسب ، بل من سائر انحاء العالم . وليس أدل على اصابة الهدف الذى يرمى الى « معهد كارنيجى » ، من أن ستين فى المائة من الطلبة الذين يلتحقون بفصوله كل سنة ، يزكيهم الطلبة السابقون ، ويوصون بقبولهم !

ويكاد طلبة « معهد كارنيجى » لا يطيقون فراق معهدهم ، بل ان كثيرين منهم يعاودون الالتحاق بالمعهد أو أحد فروعه بعد أمد قصير من تخرجهم فيه . ورغم أن الأساتذة الذين يعهد اليهم كارنيجى ، فى التدريس بفروع المعهد المختلفة هم غالبا أساتذة

جامعيون مشبعون بالرسالة التى يبشر بها كارنيجى ، فان كثيرين من المتخرجين فى المعهد ، يلتمسون ان يعينوا بدورهم أساتذة فى فروع المعهد ، حتى يكون لهم من تدريس البرامج التى درسوها ، تدريب متجدد على المبادىء التى تشبعت بها نفوسهم .

ومن طريف ما يذكر عن كارنيجى ، أن زوجته « دوروثى» كانت فيما سبق طالبة بفرع معهده فى مدينة « تلسا » بولاية « أوكلاهوما » ، وقد علم كارنيجى فيما بعد أن أمها كانت جارية لآل كارنيجى فى « ميسورى » قبل ان يولد هو بزمن !

ولا يفتأ كارنيجى يصرح دواما ، بأنه رغم تشبعه بالمبادىء التى ينشرها على الناس ، لايستطيع المثابرة على تطبيق جميعها . وفى هذا يقول : انه ليس بدعا فى الخلق ، وانما هو بشر لا يملك أحيانا الا أن يغضب ، او ينقم ، أو يبغض ، ثم يلتمس لنفسه عذرا ، أن نبى الصين « كونفشيوس » كان يشكو — برغم حكمته وفلسفته — من انه لا يستطيع الاستمساك دائما بالمبادىء والتعاليم التى يبشر بها .

وكثيرا ما يحلو لزوجة كارنيجى أن تداعبه ، اذا رأت منه انسياقا وراء غضبه ، أو تقاعسا عن اخذ الأمور بالحكمة والروية ، فتذكره بأنها انفقت على الدراسة فى معهده ستة وسبعين دولارا ، ثم تطالبه برد هذا المبلغ ، لأنه — وهو صاحب المبادىء والتعاليم — لا يستطيع أن يثبت جدواها !

وبرغم الشهرة الذائعة ، والثروة الطائلة اللتين يستمتع بهما كارنيجى ، فانه لا يبرح يصرح فى تواضع محب ، انه لم يأت قط بشىء جديد ، وانه لم يفعل اكثر من ان ذكر الناس بالمبادىء القديمة المعروفة التى جرت على السنة الأنبياء والحكماء . وفى هذا يقول : « مثال ذلك اننى اعلم الناس كيف يكفون عن القلق . أفتدرى ما الذى يجنب الناس القلق ؟ العمل بمقتضى مثلين

سائرين يعرفهما الناس حق المعرفة : « لا تعبر جسرا حتى تصل اليه » و « لاتبك على ما فات » ، فما هو بالله الجديد فى هذا ؟ . . »

وديل كارنيجى بعد هذا ، فى الستين من عمره ، لطيف الهيئة ، محكم الهندام ، اشهب الشعر ، خفيف الروح ، محب للدعابة ، قوام بين الطول والقصر ، والنحافة والبدانة ، جم التواضع ، ابغض الأشياء اليه أن يحاط بمظاهر الحفاوة والتكريم وهوايته المفضلة هى العزف على « الأكورديون » فى أوقات فراغه . وهو برغم ثرائه ، يعيش وزوجته فى بيت متواضع ، فى « فورست هيلز » بنيويورك .

عبد المنعم محمد الزيادى

مقـــدمة المعرب

يقول مؤلف هذا الكتاب عن نفسه انه « أشـــد المؤلفين الموجودين على قيد الحياة دهشـة وعجبا » . ولدهشته هـــذه قصة طريفة :

فحين أنشأ « ديل كارنيجى » معهـــده لتعليم البالغين ، وأفرد له برامج فى الخطابة المؤثرة ، والعـــلاقات الانسانية . تلفت حوله باحثا عن مرجع يعين طلبته على الســـير فى هـــذه الدراسة ، فأعياه البحث دون أن يجـــد بغيته ، ومن ثم عكف على وضع المرجع المطلوب بنفســـه ، وســـماه « كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر فى الناس » How To Win Friends and Influence people وقد عرض هذا الكتاب للبيع فى المكتبات مؤملا أن يباع منه — على أحسن تقدير — ثلاثون ألف نسخة ، فاذا بهذا الكتاب يعاد طبعه ســـتا وخمسين مرة فى اثنى عشر عاما ، ويزيد بهذا الكتاب ما بيع منه على ثلاثة ملايين نسخة ويصفه النقاد بأنه « أوسع الكتب الجدية انتشـارا فى التاريخ ، بعد الحديث النبوى والقرآن الكريم والانجيل » ! .

وتعدى هذا الكتاب حدود أمريكا الى أرجاء العالم قاطبة، فكان له فيها مثل حظه فى أمريكا من ذيوع وانتشـار ، اذ ترجم الى ست وخمسين لغة ، منها اللغة الافريقية ، ولغة البنجاب ، وبورما ، وقد تشرفت بتقديمه لقراء العربيـــة ، منذ نحو خمس وعشرين عاما ، فنفـــذت نســـخه فى أشـــهر قلائل ، وما زال الكثيرون يفتقدونه ، فعسى أن تتاح لى فرصـــة اعادة طبعه فى وقت قريب (١) .

---

(١) لقد بررت بهذا الوعد وأصدرت فعلا الطبعة الخامسة عشر وهذه هى السادسة عشر من الكتاب المذكور ، ونسخه متاحة اليوم لكل راغب .

ذلك هو الشق الأول من السبب الذى يعزو اليه كارنيجى دهشته . أما الشق الثانى ، فهو أنه ما برح . منذ نشر كتابه الذى سلف ذكره . يؤكد انه لم يضمن هذا الكتاب الا الحقائق ، والمبادىء القديمة المعروفة التى تداولها الأنبيـــاء ، والحكماء ، والمفكرون على مر العصور ، وكل ما صنعه بهذه الحقائق ، أنه ذكر الناس بها ، وأعاد صياغتها فى أسلوب يشـــحذ العزائم ، ويستنهض الهمم الى العمل بها ، ثم ضرب الأمثـــال بأشخاص طبقوها فأفادوا منها أكبر الفائدة .

وأفاق كارنيجى من دهشته على حقيقة واقعة جعلها محور رسالته فى الحياة ، تلك هى أن الناس اذا عمـــدوا الى تطبيق المبادىء الحكيمة المعروفة ، والأمثال السائرة القديمة التى طالما جرت على ألسنة أجدادهم وجداتهم ، وآبائهم وأمهـــاتهم ، بل ربما جرت على ألسنتهم ، هم أنفسهم ، فى صغرهم ، ثم سهوها أى تناسوها فى كبرهم ... اذا عمدوا الى تطبيق هذه المبادىء والأمثال ، استحالت حياتهم نعيما مقيما ، واستمتعوا فى حياتهم بالسعادة والفلاح .

ومنذ ذلك الحين، راح كارنيجى ينشر رسالته هذه ، ويدعو الناس عامة ، وطلبة معهده خاصة ، الى اعتناقها ، اذا شاؤا أن يعيشوا فى وئام مع أنفسهم ، ومع الناس .

ومنـــذ وقت ليس ببعيد ، أدرك كارنيجى أنه لا غناء لطلبة معهده ، بل لا غنـــاء لانسان كائنـــا من كان — اذا كان يرجو السعادة فى الحياة ، وينشـــد النجاح فيهاـــ على أن يقهر عدوا له ، يسكن نفسه فيقلل أمنها ، ويسلبها طمأنينتهـــا ، ويقوض سلامتها ، ويقف سدا منيعا دونها وأسباب السعادة والصـــحة والنجاح ... ذلك العدو اللدود هو : القلق .

وتلفت كارنيجى ، مرة أخرى ، ليبحث عن كتاب فى كيفية قهر القلق ، يصلح لأن يكون مرجعا لطلبته ، فلم يجد لبغيته أثرا

وكما نعل فى المرة الأولى ، نعل فى هذه المرة ، فاكب على وضع مرجع فى شهر القلق ، وسلخ من عمـره قرابة سبع سنوات فى البحث عما جرى على السنة الأنبياء ، والحكماء ، والعظماء . من حكم ، ومبادىء ، واقوال تصلح لأن تكون علاجا للقلق اذا هى اتخذت طابعا عمليـا ، وخرجت من نطاق الأقوال الى حيز الأفعال ، ثم عكف على صوغ هذه المبادىء فى قالب عملى ، واسـلوب حماسى يستثير العـزائم على تطبيقها ، والعمـل بمقتضاها ، مستشهدا على فائدتها وجدواها بشخصيات ، منها ما افرد له التاريخ مكانا مرموقا ، ومنها مالم يفرغ التاريخ بعد من تدوين سيرته .

وكانت ثمرة هذا العناء الطويل ، والمجهود الشاق ، هذا الكتاب الذى اقدم لك ترجمته العربيـة . وقد سـماه المؤلف « كيف تقهر الحياة وتبدأ الحياة How To Stop Worrying and Start Living. — وآثرت أن اسميه « دع القلق وابدأ الحياة » تمشيا مع خطة مؤلفه فى حث قرائه على السعى نحو الهدف المنشود، وشحذ عزائمهم للعمل بما أورده من مبادىء حصيفة ونصائح قيمة .

واسمح لى ، ايها القارىء الكريم ، فى هـذا الموضع أن أوضح ما ذهب اليه المؤلف ، من انه لم يجد كتابا واحدا يعالج موضوع القلق . فالواقع ان المؤلفات فى علم النفس ، التى تزايد عددها فى الآونة الأخيرة زيادة كبيرة ، يكاد لا يخلو مؤلف منهـا من فصل أو بضعة فصـول عن « القلق » . وقد قرأت ، بحكم شغفى بعلم النفس ، وهوايتى له، طائفة من الكتب التى اخرجت فيه ، قديمها وحديثها ، فالفيت أكثريتها تطرق موضوع «القلق» وتتناوله بالبحث . ولكنها تطرقه من الناحية التى يمقتها كارنيجى — وله العذر — واعنى بها الناحيـة النظرية « الأكاديمية » . فهذه الفصول والأبحاث ، فى الأغلب ،محاطة بهالة علمية جافة، محشوة بالاصطلاحات الفنية المعقـدة ، التى يحتـاج القارىء

لفهمها وتتبعها ، الى دراسة تمهيدية ، فى علم النفس ، لا تقل عن اربع سنوات .

واذن ، فحين يقول كارنيجى انه لم يجد كتابا واحدا يعالج موضوع القلق ، فهو يقصد انه لم يجد كتابا واحدا يشفى غليل معظم القراء الى الالمام بموضوع القلق وطرق علاجه . وانا فى هذا أؤيده ، واعضده ، واقر بأننى لم اقع قط على كتاب احاط بالقلق فى شتى صوره ومظاهره ، وعرض لعلاجه بطرق عملية ميسورة ، كهذا الكتاب الذى بين يديك .

وطالما تساءلت — قبل ان أطلع على كتاب « كيف تكسب الأصدقاء » قائلا : « متى يثوب واحد من المشتغلين بعلم النفس الى رشده . ويفطن — وهو يدرس الخوف ، أو القلق ، أو الحياء ، أو فقدان الثقة بالذات — ان مثل هذه الاحساسات ، وغيرها ، تسيطر على ملايين الناس فى هذا العالم ، فيتفضل بالنزول الى مستوى هؤلاء الملايين ، ويقدم لهم كتابا مبسطا فى هذه الاحساسات ، يتناولها فيه بالشرح المبسط ، ويصف طرق علاجها بأسلوب سهل ، ويبين سبل الخلاص منها ، بضرب الأمثال بمن سبقوا الى الخلاص ؟ ! فهو ان كان يبغى الكسب المادى ، فلاشك ان التاليف للسواد الأعظم من الناس أجدى ماديا من التأليف للخاصة ! وهو ان كان يبغى للنفع الانسانى ، فالرسول الموفد الى الملايين اسمى ، واعم نفعا من الرسول الموفد الى العشرات أو المئات ، أو حتى الآلاف ! » .

لكنى كففت عن تساؤلى حين تعرفت الى « ديل كارنيجى » من خلال كتاباته . فقد وجدت فيه ضالتى المنشودة ، وعرفت فيه كاتبا له رسالة انسانية سامية ، هى حفز الناس على الخلاص من هذه الاحساسات التى تشوب النفس ، فتقعد بها عن الاستمتاع بمباهج الحياة ، والفيته ، فضلا عن هذا ، المعيا ، حصيفا ، تخير لتخليص النفس الانسانية من شوائبها ايسر السبل ، واكثرها وضوحا ، وافضلها تمهيدا .

أما بعد ، فلعل القلق الذى يعالجه هــذا الكتاب ، أكثر الاحساسات الضارة شيوعا . فان تشعب سبل الحياة فى هذا العصر ، وتعــدد المسئوليات ، وتزايد التبعات الملقاة على عاتق الفرد منا ، لا تعفيــه من القلق ، ولا تخليــه من الكدر والهم ، وتوزع الذهن ، وبلبلة الخاطر ، والتوجس من المستقبل — وهى كلها مرادفات للقلق على اطلاقه — وقد يبدو للوهلة الأولى أن الاحساس بالقلق ، ينحصر ضرره فى انه مجرد احساس بالقلق، ولكنك سوف تجد فى هذا الكتاب كيف فى وســع القلق أن يلزم اشخاصا ، فراشهم وهم يعانون شتى صنوف الأمراض ، وكيف استطاع أن يسلب أناسا كل بهجة للحيــاة ، بل ان يقضى على أعمالهم ، وموارد أرزاقهم ، وكيف انه يجر فى أذياله ، حتما ، غيره من الاحساسات الهدامة كالخوف والبغضاء ، وفقد الثقة الذات ، وغيرها مما ينأى بالانسان عن أسباب السعادة .

فهذا الكتاب اذن ، حين يعينك على محو القلق من صحيفة نفسك ، فانما يعينك ، فى الوقت نفسه ، على اكتساب الصحة، والسعادة ، والنجاح .

المعــرب

كيف كتب هذا الكتاب — ولماذا ؟

قبل خمسة وثلاثين عاما ، كنت واحدا من أتعس الشبان فى مدينة نيويورك . كنت أشتغل وسيطا لبيع سيارات النقل ، كسبا للعيش . ولم اكن أدرى ما الذى يجر عجلات سيارة النقل ، بل لم اكن اريد ان ادرى . كنت احتقر مهنتى ، واحتقر العيش فى غرفة رخيصة الأثاث ، فى الشارع الغربى السادس والخمسين : فى غرفة ترتع فيها الصراصير وتمرح . ومازلت اذكر أنه كان لى بضـعة أربطة للعنق معلقة على مشجب ، فاذا مددت يدى فى الصباح لأتناول واحدا منها تناثرت الصراصير الى كل ناحية ، وكنت أحتقر تنـاول طعامى فى المطاعم الرخيصة القـذرة ، التى كانت بدورها مرتعا للصراصير ! .

وقد اعتدت أن أفد على غرفتى المنعزلة كل ليلة ،وأنا أعانى صداعا شـديدا ... صداعا تغـذيه الخيبة والقلق ، والمرارة والنقمة ، كنت ثائرا لأن الأحـلام التى راودتنى أيام دراستى فى الكلية قد اسـتحالت الى كابوس مزعج . أكانت تلك حيـاة ؟ أكانت تلك هى المغامرة المثيرة ، التى طالما تطلعت اليها فى لهفة وشوق ؟ أكان ذلك هو كل ما تضمره لى الحياة الى الأبد : أن أمارس عملا حقيرا ! وان أعيش مع الصراصير ! وأتناول طعاما قذرا ، بلا أمل فى المستقبل ؟ ! ... طالما تمنيت أوقات الفراغ لأقطعها بالقـراءة ، وباخراج الكتب التى حلمت باخراجها فى أيام دراستى .

ووقع فى اعتقادى أننى قد أكسب الشىء الكثير ، ولا أخسر شيئا ، ان أنا تخليت عن العمـل الذى أحتقره . فلم يكن همى أن أجمع ثروة طائلة ، بل أن أعيش عيشة حافلة .. وفى الحال ، فقد وصلت الى لحظة الفصل التى تواجه معظم الشبان حـين يبدأون الحياة . فاتخذت قرارى الحاسم .

ولقد غير هذا القرار مستقبلى كله، وجعل الأعوام الخمسة والثلاثين الماضية من حياتى ، اعوام ســعادة ورغد ، أكثر مما تصورت وقدرت .

وكان القرار الذى اتخذته هو هذا : سأتخلى عن العمل الذى احتقره، ولما كنت قد امضيت اربع سنوات فى «كلية المعلمين» « وارينسبرج » بولاية « ميســورى » ، اســتعدادا لأن أكون معلما : فسأكسب عيشى من تعليم الطلبــة البالغين فى المدارس الليلية ، وعندئذ يخلص لى النهــار لأمضيه فى مطالعة الكتب ، واعداد المحاضرات ، وكتــابة الروايات والقصص القصيرة .. فقد كنت اريد أن « أعيش لأكتب ، واكتب لأعيش » .

واية مادة ، ترى ، ينبغى أن اعلمها للبالغين فى المــدارس الليلية ؟! وتلفت الى الوراء، واخذت أوازن بين المواد التى تعلمتها فى الكليــة ، فتبينت ان البرنامج الذى درســته فى فن الخطابة العامة ، كان اجدى على فى حياتى العملية ، بل فى حياتى عموما، من كل ما درسته من البرامج . ولماذا ؟ لأنه محا ما كنت اعانيه من حياء وجبن ، وضعف ثقة بالنفس ، ووهبنى الشــجاعة ، والثقة ، والمقدرة ، على معاملة الناس ، كما انه اوضح لى أن الزعامة منجذبة ، عادة ، الى الرجل الذى يسعه أن ينهض على قدميه ، ويقول ما يجول بذهنه .

وقدمت طلبا للالتحاق بوظيفة مدرس لفن الخطابة العامة، فى برامج اضافية ليلية نظمتها كلا من جامعتى كولومبيا ونيويورك، ولكن هاتين الجامعتين اعتذرتا بأنهما تستطيعان المضى فى برامجهما بدون معونتى ! .. واحسست بالخيبة اذ ذاك .. ولكنى الآن احمد الله على انهمــا ردتانى خائبا ، فقــد التحقت بعد ذلك بالمدارس الليلية لجمعية الشبان المســيحية ، وقد التزمت بأن اظهر نتائج ملموسة بأسرع ما أستطيع . وياله من تحد واجهته! فهــؤلاء البالغون الذين يدرسون فى تلك المدارس لم يأتوا اليهــا

لأنهم طامعون فى درجات علمية ، أو مراكز اجتماعية ، وانما أتوا لسبب واحد : هو أن يحلوا مشكلاتهم .

كانوا ينشدون القدرة على الوقوف على أقدامهم ، والقاء بضع كلمات فى اجتماعات متعلقة بأعمالهم . دون أن يغمى عليهم من فرط الرهبة !

وكان المشتغلون بالبيع منهم ، يطمحون الى مواجهة عمل صعب المراس ، دون أن يذرعوا الأحياء التى يسكنونها ثلاث مرات قبل أن يستجمعوا أطراف شجاعتهم ! كانوا يطمحون الى أن ينجحوا فى أعمالهم ، وأن يحصلوا على قدر أوفر من المال تنعم به أسراتهم .

ولما كانوا يدفعون نفقات تعليمهم بالتقسيط — وفى استطاعتهم أن يكفوا عن الدفع اذا لم يحصلوا على نتيجة — ولما كنت أتقاضى نسبة من الأرباح ، لا مرتبا منتظما ، لذلك كله تحتم على أن أكون عمليا ، اذا أردت أن أعيش .

واحسست اذ ذاك انى مغبون نوعا ما ، غير اننى اعلم الآن اننى كنت احصل على مران لا يقوم بثمن .. فقد كان على أن استحث طلبتى على النجاح ، واساعدهم على حل مشكلاتهم ، واجعل كل درس من دروسى محفزا ، ملهما ، لأرغبهم فى متابعة الحضور .

كان عملا مثيرا ، وقد أحببته . ولشدة ما دهشت للسرعة التى أحرز بها هؤلاء الطلبة البالغون الثقة بأنفسهم ، أحرز معظمهم تقدما مطردا ، وزيادة فى الدخل . ونجحت الدراسة أكثر مما قدرت ، فلم تمض ثلاثة مواسم دراسية ، حتى قبلت جمعية الشبان المسيحية — التى رفضت أن تمنحنى خمسة دولارات فى الليلة بصفة مرتب منتظم — أن تعطينى ثلاثين دولارا فى الليلة على أساس النسبة المئوية . وكنت أولا ادرس فن الخطابة العامة فحسب ، ولكنى مع مر السنين ، تبينت أن هؤلاء

الطلبة البالغين فى حاجة ايضا الى كسب الأصدقاء والتأثير فى الناس . فلما لم أجد كتابا يعالج العلاقات الانسانية ، توليت أنا وضع كتاب من هذا النوع .. والفت الكتاب .

نعم! انه لم يؤلف بالمعنى المفهوم من التأليف ، بل نما وتطور مع تجارب هؤلاء الطلبة البالغين — وقد سميته « كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر فى الناس » .

ولما كنت قد وضعته ليكون مرجعا فحسب ، لطلبتى البالغين ولما كنت قد كتبت من قبله أربعة كتب لم يسمع بها أحد ، فاننى لم أحلم قط بأن سيباع منه ذلك العدد الضخم الذى بيع.. ولعلى الآن أكثر المؤلفين الموجودين على قيد الحياة دهشة وعجبا .

وبتتابع السنين على ، ادركت أن ثمة مشكلة أخرى كبرى تواجه طلبتى البالغين ، تلك هى « القلق » .. فغالبية طلبتى من المشتغلين بالبيع ، أو السكرتيريين ، أو المهندسين ، أو المحاسبين ... انهم خليط من مختلف الأعمال والمهن، ومعظمهم يواجهون مشكلات ، ويصادفون عقبات . وبين طلبتى نساء عاملات ، وزوجات ، وهؤلاء بدورهن يواجهن مشكلات . عندئذ أدركت أنى فى حاجة الى مرجع فى كيفية قهر القلق .

ومرة أخرى ، حاولت أن أعثر على مرجع فى هذا الموضوع وذهبت الى المكتبة العامة بنيويورك ، يقع أحد فروعها فى الشارع الخامس ، والفرع الثانى يقع فى الشارع الثانى والأربعين، ولشد ما كانت دهشتى حين اكتشفت أن لدى هذه المكتبة اثنين وعشرين كتابا فقط مدرجة تحت عنوان « القلق » ، ولعل من الظريف أن الاحظ أن لدى المكتبة مائة وتسعة وثمانين كتابا مدرجة تحت عنوان « الديدان » (١) ! أى أن عدد الكتب التى تعالج موضوع

---

(١) كلتا الكلمتين : القلق Worry والديدان (Worms) تبدآن بحرف (W) مما سهل على المؤلف أن يقع على هذه الملاحظة

الديدان يبلغ نحو تسعة اضعاف عـــدد تلك التى تعالج موضوع القلق ! . وليس هذا مدهشا ؟ .

ولما كان القلق من اكبر المشكلات التى تواجه الانسانية ، فانك لاشك تحسب ان كل مدرسة عليا ، او كلية فى هذه البلاد، تدرس منهاجا فى كيفية قهر القلق ، اليس كذلك ؟ ورغم ذلك ، فان كان هناك منهاج واحد فى هذا الموضوع يدرس فى اية كليـــة فى هذه البلاد ، فانى لم اسمع به مطلقا ! .

وليس عجيبا اذن أن يقول «دافيد سيبرى» فى كتابه «كيف تقلق بنجاح » (١) : « انا ننتهى الى طور النضج ، ولنا من قلة الاســـتعداد لمواجهة التجارب ، مثـــل ما للديدان من الخبرة ، برقصة الباليه !! » .

وما نتيجة ذلك ؟ النتيجة الواقعة أن ثلث عدد الأسرة فى مستشفياتنا جميعها يشغله اشخاص متاعبهم الأصلية اما عصبية او عاطفية .

ولقـــد قرات هـــذه الكتب الاثنين والعشرين ، التى تعالج موضوع القلق ، والمصفوفة على أحد ارفف المكتبة العامةبنيويورك واشتريت فضـــلا عنها كل ما استطعت العثور عليه من الكتب التى تعالج هذا الموضوع، ومع هذا كله لم اقع على كتاب واحد، يصلح لأن يكون مرجعا لطلبتى البالغين ، ومن ثم عولت على ان اضع بنفسى كتابا فى هذا الموضوع .

واخذت اهيىء نفسى لاخراج هذا الكتاب منذ سبعة اعوام مضت .. وكيف ؟ قرات ماكتبه الفلاسفة على مر العصور خاصا بالقلق . وقرات مئات التراجم ابتـــداء من « كونفشيوس » الى

Dvid S aabury. How to Worry Successfully (1)

« تشرشل » .. وذهبت لمقابلة عدد من الشخصيات البارزة فى شتى نواحى الحياة ، مثل « جاك دمبسى » ، بطل الملاكمة — والجنرال « عمــر برادلى » ، والجنرال « مارك كلارك » ، و « هنري فــورد » ، و « اليــانور روزفلت » ، و « دوروثى دبكس » .

ولكن هذا كله لم يكن الا بداية . فقد فعلت ، فضـــلا عن هذا ، شيئا أفضل بكثير من القراءة والمقابلات : اشتغلت خمس سنوات فى « معمل » لقهــر القلق ! وهــذا « المعمل » ، على ما أعتقد ، هو أول معمل ، وهو الوحيد من نوعه ، فى العــالم اجمع ، أعنى أننى أعطيت طلبتى مجموعة من القواعد فى كيفية قهر القلق ، وطلبت اليهم أن يطبقوا تلك القواعــد على حياتهم الخاصة ، ثم ســألت كلا منهم أن يشرح لزملائه فى الفصل ماذا كانت النتيجة ... وكنتيجة لهذه التجربة ، أعتقد أننى استمعت الى محاضرات فى كيفية قهر القلق . أكثر مما تدر لأى فرد عاش فى هذا العالم . هذا فضلا عن القصص الواقعية الكثيرة ، التى تدور حول هذا الموضوع ، والتى وصلتنى بالبريد .

فهذا الكتاب اذن لم ينحدر من برج عاجى ، لا ، ولا هو دراسة « أكاديمية » فى كيف « يحتمل » أن يقهر القلق . بل انه، على النقيض من ذلك .

فقد توخيت أن يكون هــذا الكتاب عمليا ، مؤيدا بالوثائق والأدلة وكيف « استطاع » الآلاف من البالغين «فعلا» أن يتغلبوا على القلق . ويسعنى أن أؤكد لك أيها القارىء ، شيئا واحدا ، هو أن هذا الكتاب ســهل الهضم ، ميسور القضم تستطيع أن تعمل فيه أسنانك ! ويسعدنى أن أقول لك انك لن تجد فى هذا الكتاب قصصا تدور حول « رجل ما » يدعى « جون » أو «سيدة ما » تدعى « مارى » . ففيما عدا حالات نادرة ، يسمى لك هذا الكتاب الأشخاص بأسمائهم ، ويذكر مواطنهم . فهو دامغ ، مؤيد بالبراهين .

لقد قال الفيلسوف الفرنسى فاليرى : « العلم طائفة من وصفات ناجحة » . وهذا القول ينطبق على هذا الكتاب ، فهو مجموعة « وصفات مجربة » لتخليص حياتنا من القلق .

ويحسن أن أخبرك انك لن تجد فى هذا الكتاب شيئا جديدا ولكنكستجد الشيء الكثير مما يتجاهله الناس . وهذا هو المهم.. فلا أنت ، ولا انا ، نحتاج الى شيء جديد يقال ... فاننا نعلم ما يكفى لأنيجعل حياتنا كاملة من جميع نواحيها . فعلتنا ليست الجهل ، وانما هى التجاهل . ومهمة هذا الكتاب هى تكرار حقائق قديمة معروفة مع تجسيمها ، وابرازها ، لتحفزك على تطبيقها .

وبعد — فانك لم تشتر هذا الكتاب لتقرأ كيف كتب ، بل انك تتطلع الى التنفيذ . وهذا حسن . فلتبدأ القراءة . وارجو أن تقرأ الصفحات الخمسين الأولى من هذا الكتاب ... فاذا لم تشعر بعدها انك احرزت قوة جديدة للقضاء على القلق ، والاستمتاع بالحياة... فطوح بهذا الكتاب فى سلة المهملات... فلا خير لك فيه ! .

ديل كارنيجى

الجزء الأول

حقائق أساسية عن القلق ينبغى أن تعرفها

الفصل الأول

عش فى حدود يومك

فى ربيع عام ١٨٧١ التقط شاب كتابا ، وقرأ فيه اثنتين وعشرين كلمة ، كان لها أبعد الأثر فى تكييف مستقبله . كان الشاب طالبا يدرس الطب فى « مستشفى مونتريال العام » — بكندا — وحين أوشك على دخول الامتحان النهائى ، ساوره القلق على مستقبله، ولم يدر ماذا يفعل ، ولا كيف يكتسب خبرة، ولا كيف يكسب رزقه فيما لو تخرج . لكنه بفضل هذه الكلمتين الاثنتين والعشرين التى قرأها ، أصبح أشهر طبيب فى جيله . فهو الذى أسس مدرسة « جونزهويكنز » للطب ، ذات الشهرة العالمية ، وتربع زمنا على كرسى الأستاذية فى الطب بجامعة أكسفورد ، وأنعم عليه ملك انجلترا بلقب « سير » . وحين توفى نشرت سيرة حياته فى مجلدين كبيرين من ١٤٦٦ صفحة ، ذلك هو « سير أوسلر » (١) .

وهذه الكلمات الاثنتان والعشرون التى قرأها فى ربيع ١٨٧١ فى كتاب للأديب الانجليزى الكبير « توماس كارليل » فأعانته على أن يبدأ حياة جديدة ناجحة لا يشوبها القلق هى « ليس علينا أن

---

(1) Sir William Osler

نتطلع الى هدف يلوح لنا باهتا على البعد ، وانما علينا أن ننجز ما بين أيدينا من عمل واضح بين » (١) .

وانقضت على تخرج طالب الطب اثنتان وأربعون سنة . وفى ذات يوم من أيام الربيع المشرقة وقف « سير وليم أوسلر » يخاطب طلبة جامعة « ييل » فقال ان رجلا مثله — احتل مقعد الأستاذية فى أربع جامعات مختلفة ، ووضـــع كتابا لقى رواجا كبيرا — خليق بأن تتوافر له قوة ذهنية فريدة فى نوعها ، ولكن الأمر على العكس . فان أخص أصدقائه يعلمون عنه ، أنه« عادى الذكاء » ، « متواضع البديهة » .

فما هو اذن سر نجاحه؟ لقد عزا ذلك الى ما سماه «الحياة فى حدود اليوم » . فماذا كان يعنى بذلك ؟ قبل أن يلقى كلمته فى طلبة « جامعة ييل » ببضعة أشهر ، عبر الأطلنطى على عابرة محيط ضخمة ، حيث شـــاهد القبطان يقف فوق برج الباخرة ، ويضغط زرا ، فتجلجل آلات السفينة ، ويحجب جانب منها خلف حاجز حديدى ، ولا يبقى منها الا ما يلزم السفينة فى يومها . وقد شرح الدكتور اوسلر ذلك لطلبة جامعـــة ييل ، ثم أردف شرحه قائلا : « وكل منكم أروع بنيانا من عابرة المحيط الضخمة ، وهو يقدم على رحلة أطول بكثير من رحلة عابرة المحيط ، فعليكم اذن أن تتعلموا السيطرة على « آلاتكم » فلا تبقوا منها الا ما يلزم لرحلة اليوم ، فذلك أدعى الى اتمام الرحلة بسلام . فليتصور كل منكم نفسه واقفا فوق البرج — كما فعل قبطان السفينة — وليتخيل انه يضغط زرا ، فيسمع صوت الأبواب الحديدية وهى تغلق على الماضى — الماضى الذى لم يعد له وجود — ثم ليضغط زرا آخر ، فتسدل ستائر حـــديدية على المســـتقبل — المستقبل

---

(1) "Our main business is not to see what lies dimly at a distance, but to do waht lies clearly at hand" ..Thomas Carlyle.

الذى لم يولد بعد — وبذلك يضمن السلامة فى يومه هذا . أغلقوا الأبواب على الماضى .. واوصـــدوها دون المستقبل ؛ وعودوا انفسكم العيش فى حدود اليوم » .

هل كان الدكتور اوسلر يعنى انه لا ينبغى لنا أن نستعد للغد او نفكر فيه ؟ كلا ! فقد مضى فى خطبته تلك فقال « ان افضل الطرق للاستعداد للغد ، هى أن نركز كل ذكائنـــا وحماســـنا فى انهاء عمل اليوم على أحسن ما يكون .. هذا هو الطريق الوحيد الذى نستعد به للغد ! .

وقد نصح الدكتور اوسلر طلبة جامعة ييل أن يبدؤا يومهم بالدعاء الذى كان يتلوه المسيح «خبزنا كفافنا أعطنا اليوم» وذكرهم أن هذا الدعاء كان من أجل خبز « اليوم » ، وحسب ! فلا هو يحتج على الخبز الردىء الذى كان بالأمس ، ولا هو يقول مثلا: « يا الهى ، لقد عم الجفاف ، ونخشى الا نحصل على خبزنا فى الخريف القـــادم » ، أو « لو اننى يا الهى ، فقدت وظيفتى ، فكيف أحصل عندئذ على الخبز » ! .

كلا ، ان بهـــذا الدعاء يطلب خبز اليوم فقط ، فخبز اليوم هو وحده الذى يمكنك أن تعيش اليوم ! .

ولقد اعترض الكثيرون على قول السيد المسيح : « .. فلا تهتموا للغد ، لأن الغد يهتم بما لنفســـه . يكفى اليوم شره » (متى ٦ : ٣٤) . وقال هؤلاء المعترضون : « كيف لا نفكر فى الغد ، ؛ بل ينبغى أن نفكر فيـــه ، وأن نتأهب له . ينبغى أن نوفر مالا لأوقات الشيخوخة ، وأن نمـــد المشروعات لمســـتقبل حياتنـــا » .

وهذا حق ! نعم يتحتم عليك أن « تفكر » فى الغد ، وتعد العدة له ، ولكن لا يجب أن « تهتم » له . والهم مرادف للقلق ! ففى خلال الحرب الماضـــية ، رسم قوادنا الخطط للمستقبل . ولكنهم لم « يهتموا للمستقبل » فقد قال « الأميرال ايرنستكنج»

قائد بحرية الولايات المتحدة : « لقد جهـزت احسن المقاتلين ، بأحدث العتاد الموجود لدينا ، ووجهتهم أحكم توجيه ، وهذا كل ما أستطيعه . فاذا غرقت سفينة ولم يسعنى أن انتشلها . واذا كان مقدرا لها أن تغرق ولم يسعنى أن امنعها . فأجدى على أن اشـغل وقتى بالتفكير فى مشكلات الغد بدلا من أن اضـيعه فى التحسر على الماضى . وفضـلا عن هذا ، فلو انى اخـذت فى التحسر على الماضى لما عمرت فى هذه الحياة طويلا » .

وانك لتجد ـــ سواء فى الحرب أو فى السلم ـــ أن الاختـلاف الرئيسى بين التفكير المتزن ، والتفكير الأحمق ، هو أن التفكير المتزن يعالج الأسـباب والنتائج ، ويفضى الى خطة منطقية انشائية ، وأما التفكير الأحمق فيفضى الى التوتر والانهيار العصبى .

حظيت اخيرا بمقابلة « آرثر هيز سلزبرجر » (Arthur Hays Sulzberger) وهو ناشر جـريدة « نيويورك تيمس » احدى كبريات الصحف فى العالم ، فقال لى : انه عندما نشبت الحرب العالمية فى أوربا ، ساوره الجزع والاشفاق من المستقبل، حتى استحال عليه أن ينام ، فكان كثيرا ما يصحو من نومه ليلا، فيتناول قلما وقرطاسا وينظر الى صورته فى المرآة ، وينقلها على القرطاس ! ولم يكن يعلم شيئا عن فن الرسم ، ولكنه كان يرسم كيفما اتفق ، لكى يبعد القلق عن ذهنه . وذكر لى مستر سلزبرجر انه لم يستطع مـع ذلك أن يطرد القلق ، وأن ينعم بالراحـة والسلام ، الا حين اتخذ له شعارا ، هو هذه الكلمات الثلاث المقتطفة من أحد التراتيل الدينية : « خطوة واحدة تكفينى » وهذا هو مطلع الترتيل :

« خذ بيدى أيها الضوء الكريم ، وثبت قدمى . . . »

« انى لا أطمع فى الأفق البعيد . . خطوة واحدة تكفينى »

وفى هذا الوقت نفسه ، كان هناك شاب ـــ فى مكان ما من

اوربا — يرتدى البزة العسكرية ، ويتلقن مثل هـذا الدرس . ذلك هو « تيد بنجرمينو » من أهالى بلتيمور بولاية ماريلاند .

وقد كتب الى « تيد بنجرمينو » يقول : « فى ابريل عام ١٩٤٥ اجتاحنى القلق حتى سبب لى داء عضالا فى « القولون » عانيت منه الألم المرير . ولو أن الحرب لم تنته يوم انتهت ، لكنت قد اصبت بانهيار تام .

فقد كنت أعمل ضابطا فى لجنة « سجلات القبور » التابعة لفرقة المشاة الرابعة والتسعين . وكانت مهمتى أن أساهم فى اعداد سجلات بأسماء الجنود والضباط القتلى والمفقودين ، والنازلين بالمستشفيات ، كما كنت أساهم فضلا عن هذا ، فى استخراج جثث القتلى من الحلفاء والأعداء على السواء ، الذين دفنوا على وجه العجلة اثناء احتدام المعركة . وكان على أيضا ، ان اجمع مخلفات هؤلاء القتلى ، لأرسلها الى آبائهم أو ذويهم المقربين الذين يحلون مثل هذه المخلفات محلا كبيرا من نفوسهم . ومن هنا اعترانى القلق ، خشية أن يوقعنى الارتباك فى خطأ جسيم . وكنت ، الى هذا ، دائم التساؤل :

« ترى ، أيمكن ان تتاح لى النجاة بعد هذا كله ؟ أيقدر لى أن احمل بين ذراعى طفلى الأوحد الذى يبلغ من العمر ستة عشر شهرا . والذى لم اكن قد رأيته بعد ؟ » كنت قلقا ، مجهدا ، حتى اننى فقدت منوزنى أربعة وثلاثين رطلا . واوشك القلق والاجهاد أن يدفعا بى الى الجنون . كنت انظر الى يدى ، فلا أرى غير عظام يكسوها الجلد ، فيستبد بى الفزع من أن أعود الى وطنى آدميا محطما ، وانفجر باكيا كالطفل .. وكنت أنفجر باكيا فى كل مرة أخلو فيها الى نفسى .. وقد حدث عقب احدى المعارك الكبرى ، أن انتابتنى نوبةطويلة منالبكاء ، كدت أفقد الأملخلالها فى أن أعود شخصا طبيعيا مرة أخرى . وانتهى بى المطاف الى مستشفى حربى . وهناك وجه الى الطبيب نصيحة غيرت مجرى حياتى تماما . فبعد أن فحصنى فحصا دقيقا ، انهى الى بأن مشكلتى

ليست جسمانية ، وانما هى عقلية .. قال : «اسمع ياتيد .. انى اريدك ان تنظر الى حياتك كأنها ساعة زجاجية كتلك التى استخدمت قديما لتحديد الوقت . انت تعلم أن هناك آلافا من حبات الرمل توضع فى نصف هذه الساعة الأعلى فتمر ببطء،وفى نظام دقيق من خلال الرقبة الضيقة الى نصفها الاسفل ، فلا انت ولا انا نستطيع أن ندفع بأكثر من حبة واحدة الى عنق الساعة دون أن نصيبها بخلل . وانت وانا والناس جميعا كهذه الساعة الزجاجية . فعندما نصحو فى الصباح نجد مئات الأعمال فى انتظارنا ، فاذا لم نصف هــذه الأعمال كلا بدوره، وعلى حدة ، فى بطء وانتظام، كما تنزلق حبات الرمل من عنق الساعة الزجاجية ، فاننا نعرض كياننا الجسمانى والعقلى لخطر التحطيم » .. وقد سرت وفقا لهذه الفلسفة منذ ذلك اليوم التاريخى . وقد انقذتنى هذه النصيحة جسمانيا وعقليا اثناء الحرب ، وساعدتنى كثيرا فى عملى بعد انهاء الحرب ، فقد واجهت من المشكلات المتعلقة بعملى ما يعد بالعشرات . وكلهــا تتطلب الانجاز فى وقت قصير محدود . وبدلا من ان اسمح لأعصابى بأن تثور ، كنت أتذكر نصيحة الطبيب ، وارددها لنفسى : « حبة واحدة من الرمل فى الوقت الواحد .. عمل واحد فى الوقت الواحد» وما زلت اكرر ذلك حتى أصبحت وفى وسعى أن انجز أعمالى بمعزل عن القلق الذى كاد يحطمنى فى ساحة المعركة » .

* * *

من الحقائق المروعة أن نصف عدد الأسرة التى فى مستشفياتنا، يشغله أناس يثقلهم الارهاق العصبى والعقلى .. أناس ناؤا بعبئهم الثقيل من المــاضى المتراكم ، والمستقبل المخيف . لقد حال فى وسع الكثيرين من هؤلاء المرضى أن يذرعوا الآن شوارع المدينة سعداء مرحين ، ناجحين فى حياتهم ، لو انهم وعوا قول السيد المسيح . « لا تهتموا للغد ! » أو لو انهم وعوا قول ســير وليم اوسلر : « عش فى حدود يومك » .

انت وانا نقف اللحظة فى ملتقى طريقين أبدين : الماضى الفسيح

الذى ولى بغير رجعة .. والمستقبل المجهول الذى يطارد الزمن، ويتربص بكل لحظة حاضرة .. ولسنا بمستطيعين العيش ولو بمقدار جزء من الثانية فى أحد هذين الطريقين الابديين .. فاذا حاولنا ذلك لم تجدينا المحاولة الا تحطيم أجسامنا وعقولنا . واذن فدعنا نرض بالعيش فى الحاضر الذى لا يمكن أن نعيش الا فيه.. دعنا نعش اليوم الى أن يحين وقت النوم . لقــد كتب الروائى الكبير «روبرت لويس ستيفنسون» يقول : «كل امرىء يستطع أن يحمل عبئه ، مهما ثقل ، الى أن يرخى الليل سدوله . وكل امرىء يستطيع أن ينجز عمل يوم واحد مهما صعب . وكل امرىء يستطيع أن يعيش قرير العين راضيا ، صبورا ، محبا ، نقيا ، الى ان تغرب الشمس . وهذا هو كل ما تبغيه منا الحياة فى الحقيقة » .

نعم ، هذا هو كل ما تتطلبه منا الحياة ، ولكن « مسز ا.ك. شيلدز » ، من اهالى ولاية متشيجان ، تملكها اليأس مرة الى حد الاشراف على الانتحار ، قبل ان تتعلم كيف تعيش الى أن يحين وقت النوم ! روت لى مسز شيلدز قصتها فقالت : « فى عام ١٩٣٧ فقدت زوجى ، فانتابنى الحزن الشديد ، فضلا عن الفقر المدقع الذى وجدت نفسى اكابده . فكتبت الى مخدومى السابق « مستر ليون روش» صاحب شركة «روش كارلر» فى مدينة كانساس اطلب عملا واستطعت ان احصل على عملى السابق ، وهو بيع الكتب الى المدارس الريفية والداخلية « بالعمولة » . وكنت قد بعت سيارتى حين انتاب المرض زوجى ، ولكنى استطعت تدبير شىء من المــال دفعته دفعة أولى فى سيارة مستعملة ، وعدت أبيع الكتب من جديد . وكنت أظن أن العودة الى العمل قد تذهب بعض حزنى، ولكن خاب فألى .

« وفى ربيع عام ١٩٣٨ ، اقتضانى العمل أن أرتحل الى بلدة « فرساى » بولاية ميسورى . وهنــاك استشعرت الوحــدة والاكتئاب ، حتى انى فكرت جديا فى الانتحار .. فقد لاح لى ان استمرار حياتى على هذا المنوال أمر مستحيل . اذ كنت اخشى أن

استيقظ كل يوم لأواجه الحياة التى أظلمت فى عينى ، وكنت دائمة القلق : أخشى الا استطيع تسديد أقساط السيارة أو دفع ايجار الغرفة . واخشى الا اجد طعاما أقتات به .. وأخشى أن تتدهور صحتى فلا اجد الطبيب . وما منعنى من الانتحار الا شيئان : تصورى مقدار حزن شقيقتى لموتى ، وعدم توافر ما يكفى من المال لجنازتى ! .

« وفى ذات يوم .. قرأت مقالا انتشلنى من هذه الوحدة ووهبنى القدرة على مواجهة الحياة . ولن أفتأ أشكر لهذه الجملة التى قرأتها فى ذلك المقال ، وهى : « ليس اليوم الجديد الا حياة جديدة لقوم يعقلون » ! .. وكتبت لفورى هذه الجملة على الآلة الكاتبة ، والصقتها على نافذة سيارتى فى مواجهة مقعد القيادة لكى أراها طوال وقت قيادتى للسيارة . لقد علمتنى هذه العبارة أن أعيش كل يوم على حدة ، وأن أنسى الأمس ، وألا أفكر فى الغد .

« وقد استطعت أن أتغلب على الخوف من المرض ، والخوف من الحاجة ، وأنا الآن سعيدة ناجحة ، وفضلا عن هذا فأنا أعلم أننى لن أرتد خائفة قلقة مرة أخرى ، مهما واجهنى من مصاعب الحياة ، كما أعلم أنه لا حاجة بى الى الخوف من المستقبل ، ما دمت أعيش كل يوم على حدة ، وما دمت أعلم أن كل يوم جديد انما هو حياة جديدة لقوم يعقلون » .

من تظنه نظم الكلمات التالية :

« ما أسعد الرجل .. ما أسعده وحده ،
« ذلك الذى يسمى اليوم يومه ،
« والذى يقول ، وقد أحس الثقة فى نفسه ،
« يا أيها الغد ، كن ما شئت .
« فقد عشت اليوم لليوم ، لا غده ولا أمسه » .. ؟

انها تبدو متمشية مع روح العصر الحديث .. أليس كذلك ؟ لكنها كتبت قبل ميلاد المسيح بثلاثين عاما .. كتبها الشاعر الرومانى « هوارس » ! .

ومن أفجع الحقائق التى أعرفها عن الطبيعة الانسانية ، اننا جميعا ميالون الى نبذ الحياة ! اننا يلذ لنا جميعا أن نحلم بروضة مزهـــرة عبر الأفق ، بدلا من أن ننعم بالأزاهير المتفتحة خارج نوافذها فى يومنا هذا ! .

فلماذا كنا من الحمق بهذه الدرجة ! .

كتب « ستيفن ليكوك » يقول : « ما أعجب الحياة ! يقـــول الطفل : عندما اشب فأصبح غلاما .. ويقول الغلام ، عنـــدما أترعرع فأصبح شابا .. ويقول الشاب : عندما أتزوج .. فاذا تزوج قال : عندما أصبح شيخا متفرغا .. فاذا وافته الشيخوخة، تطلع الى المرحلة التى قطعها من عمره ، فاذا هى تلوح كأن ريحا اكتسحتها اكتساحا . اننا لانتعلم ، الا بعد فوات الأوان، أن قيمة الحياة فى أن نحياها ، فى أن نحيا كل يوم منها وكل ساعة » .

لقد أوشك «أدوارد ايفانز» من أهالى ديترويت ، أن يقتل نفسه قلقا واكتئابا ، قبل أن يتعلم أن قيمة الحياة فى أن يحياها ، فى أن يحيا كل يوم منها وكل ساعة » .. نشأ « ايفانز » فقيرا ، معدما، يكتسب رزقه من بيع الجرائد ، فقد اشتغل كاتبا فى محل بقالة ، ثم التحق بوظيفة مساعد لمدير مكتبة ، كل ذلك وهو يعول سبعة أشخاص، ويكد ليوفر لهم القوت. ورغم أن أجره عن عمله الأخير كان ضئيلا ، فانه كان يخشى الاستقالة منه ، مخافة أن يتضور هو وعائلته جوعا . وانقضت ثمانية أعوام قبل أن يستجمع «ايفانز» أطراف شجاعته ، ليبدأ عملا مستقلا . وقد بدأ عمله المستقل برأس مال مقترض قدره خمسة وخمسون دولارا . لكنه أصبح يربح عشرين الف دولار فى العام ! ثم حلت به نكبة . فقد أمد صديقا له بمبلغ كبير من المـــال فما لبث الصديق أن أفلس ! .. وفى أعقاب هذه الكارثة حلت كارثة أخرى . فقد أفلس ، بدوره ، المصرف الذى يودع فيه « إيفانز » أمواله جميعا . وأصبح ايفانز فاذا هو مفلس لا يملك مليما واحدا ، بل أصبح مدينا أيضا بمبلغ ستة عشر الف

ريال . ولم تتحمل أعصابه ذلك كله ، قال لى : « لم استطع أن آكل او ان انام . وانتابنى المرض .. المرض الذى جره على القلق ولا شىء غير القلق ، وبينما انا اسير ذات يوم ، ادركنى الاعياء ، وتهاويت فى عرض الطريق . وحملنى الناس الى بيتى . ولم البث حتى تفجر جسمى بثورا مؤلمة ، حتى ان مجرد الرقاد فى الفراش أصبح محنة شديدة . وكان هزالى يزداد يوما عن يوم ، واخيرا انهى الى الطبيب اننى لن امكث حيا اكثر من اسبوعين ! وصدقت ذلك ، وكتبت وصيتى ، ولبثت فى الفراش أنتظر النهاية المحتومة. لم يعد يجدى اذ ذاك الخوف ولا القلق ، ومن ثم امتثلت للأقدار وأسترخيت ، ورحت فى نوم عميق . ولم يكن مجموع ما قطعته فى النوم خلال الاسابيع الماضية يزيد على ساعتين ! ولكنى وقد أوشكت مشكلتى أن تحل بالموت ، استغرقت فى النوم كالطفل ، وبدأت المتاعب التى كنت أحسها تختفى وعادت الى شهيتى ، وازداد وزنى مرة أخرى ، لفرط دهشتى ! .

ومرت أسابيع قليلة ، فاستطعت أن امشى متوكئا على عصايتين، ثم مرت ستة أسابيع فاستطعت ان اعود مرة أخرى الى العمل ! وكنت قبل مرضى أربح عشرين الف ريال فى السنة ، ولكنى اليوم قانع بعمل يدر على ثلاثين ريال فى الاسبوع . ولقد وعيت الدرس الآن . فمحوت القلق من نفسى . وركزت كل وقتى ، ونشاطى ، وحماستى فى عملى الجديد » .

وقد تقدم « ايفانز » كثيرا فى عمله المتواضع ذاك ، فلم تمض سنوات قلائل حتى اصبح مديرا للشركة التى يعمل بها .. شركة « ايفانز للانتاج » ! وعندما توفى ايفانز عام ١٩٤٥ ، كان يعد رجلا من اشد رجال الاعمال فى الولايات المتحدة نجاحا . واذا قدر لك أن تطير يوما فوق جرينلاند ، فقد تهبط فى « مطار ايفانز » المطار الذى أطلق عليه اسمه تخليدا لذكراه .

واليك مغزى هذه القصة : لم يكن ادوارد ايفانز ليحرز النجاح

الذى احرزه فى ميدان الاعمال ، وفى الحياة عموما ، لو لم يقدر له أن يعيش فى حدود يومه ، وان يمحو القلق على الماضى والمستقبل .

منذ خمسة آلاف سنة قبل الميلاد ، قال الفيلسوف الاغريقى « هرقليط » : كل شىء يتغير ، الا قانون التغير انكم لا تهبطون نهرا بعينه مرتين .. فالنهر يتغير كل ثانية ، وكذلك الرجل الذى يهبطه فالحياة فى تغير لا ينقطع ، والشىء الاكيد فى هذه الحياة هو اللحظة التى نعيش فيها ، فلماذا نشوه جمال لحظتنا هذه ويومنا هذا ، بحمل هموم المستقبل الذى يخضع لقانون التغير؟» .

وفى هذا المعنى نفسه وضع الرومان الاقدمون مثلا من كلمتين (Caros Diem) « استمتع باليوم » او « استمسك باليوم » . نعم ! استمسك باليوم ، واستخلص منه أكثر ما تستطيع .

وهذه بعينها هى فلسفة لويل توماس (Lowell Thomas) فى الحياة . وقد امضيت اخيرا عطلة نهاية الاسبوع فى مزرعته ، فلاحظت انه استخرج هذه الكلمات من « مزمور ١١٨ عدد ٢٤ » ووضعها داخل اطار علقه على جدران استوديو الاذاعة الخاص به لكى يراها فى معظم الاوقات .

« هذا هو اليوم الذى صنعه الرب » .

« نبتهج ونفرح فيه » .

وكان « جون راسكن » (John Ruskin) يضع على مكتبه قطعة من الحجر ، منقوش عليها كلمة واحدة هى : « اليوم ! » وانا لا اضع قطعة من الحجر على مكتبى ، وانما الصق على مرآتى قصاصة ورق مكتوبة عليها هذه القصيدة ، لكى اطالعها كل صباح .. قصيدة كان سير وليم اوسلر يحتفظ بها على مكتبه ، وهى من نظم الكاتب الهندى الشهير « كاليداسا » .

تحيــة الى الفجر !

انظر الى هذا اليوم !
انه الحياة . جوهر الحياة .
فى ساعاته القليلة .
تكمن حقيقة وجودك :
معجزة النمـــو .
ومجـــد العمـــل .
وروعة الانتـــاج .
فالأمس ليس الا حلمـــا .
والغد ليس الا خيالا .
أما اليوم اذا عشناه كما ينبغى ،
فانه يجعل من الامس حلما سعيدا ،
ويجعل من الغد خيالا حافلا بالامل .
هكذا يجب أن نحيى الفجر !

واذن فأول ما ينبغى أن تعرفه عن القلق هو هذا :

اذا أردت أن تطرد القلق . من حياتك ، فافعل كما فعل سير وليم اوســـلر .

١ — اغلق الابواب على المـــاضى والمستقبل وعش فى حدود يومـــك :

لماذا لا تسأل نفسك هذه الاسئلة ، وتدون اجابتك عنها هنا .

(أ) هل اميل الى نبذ الحاضر لافكر فى المستقبل ؟ اترانى أحلم بروضة سحرية مزهرة عبر الافق ، بدلا من أن انعـــم بالزهور المتفتحة من حولى ؟ .

(ب) هل أجعل حياة اليوم مريرة بتحسرى على ما حـــدث فى المـــاضى الذى ولى ولم يعد له كيان ؟ .

(جـ) هل أستيقظ كل صباح مغرما بأن « أستمســـك باليوم » لكى استخلص منه اقصى ما أستطيع ؟ .

(د) اترانى أحصل من الحياة على اكثر مما أحصل عليه الآن، لو اننى عشت فى حدود يومى » ؟ .

(هـ) متى ابدأ بتطبيق هذا المبدأ ؟ الاسبوع القادم ؟ غـــدا ؟ اليـــوم ؟ .

الفصل الثانى

وصفة سحرية لتبديد القلق

أتريد « وصفة » ناجحة ، حاسمة ، أكيدة المفعول ، لتبدد بها القلق ؟ وصفة تستطيع تطبيقها فى التو واللحظة ، قبل أن تتمادى فى قراءة هذا الكتاب ؟

اذن دعنى أحدثك عن الطريقة التى ابتكرها « ويليس كارير » المهندس النابغة ، الذى أسس صناعة آلات تكييف الهواء ، والرئيس الحالى لشركة « كارير » الشهيرة فى سيراكيوز — نيويورك . انها من أحسن الطرق التى سمعت بها لعلاج القلق ، وقد استقيتها من مستر كارير نفسه ، عندما كنا نتناول الغذاء ذات يوم معا فى نادى المهندسين بنيويورك .

قال لى مستر كارير : « عندما كنت شابا ، اشتغلت فى « شركة فورج » بمدينة « بفلو » بولاية نيويورك . وعهد الى ذات يوم ابتكار آلة لتنقية الغاز فى مصنع تابع لشركة « بتسبرج للاوانى الزجاجية » فى مدينة « كريستال » بولاية ميسورى ، وهو مصنع تكلف انشاؤه مليون ريال . وكانت طريقة تنقية الغاز حديثة العهد فى ذلك الوقت ولم تجرب من قبل الا مرة واحدة . وصادفتنى فى أثناء عملى بمدينة كريستال صعاب لم أعمل لها حسابا ، فان الطريقة التى ابتكرتها لتنقية الغاز لم تأت كما أرجو ، ولم تف بما قطعته الشركة التى أعمل بها لمصنع الأوانى من ضمان .

وذهلت للفشل الذى منيت به ، واحسست كأنما ضربنى شخص على أم رأسى ، وشعرت باضطراب فى معدتى وامعائى وانتابنى قلق حال بينى وبين النوم .

« وأخيرا هدانى تفكيرى الى أن القلق لن يجدينى شيئا ،

فاخذت افكر فى طريقة احل بها مشكلتى دون القلق ، واهتديت الى طريقة كان لها أروع النتائج ، ومازلت استخدمها منذ سبعة وثلاثين عاما ، وانها لبسيطة ميسورة ، يستطيع كل انسان استخدامها . وهى تتكون من ثلاث خطوات .

« **الخطوة الأولى** : اخذت احلل الموقف بأمانة تامة، وقدرت اسوأ ما يمكن ان يحدث ، كنتيجة لفشلى . فمن المؤكد أننى لن اسجن ولن اقتل .. ولكن هناك احتمال بأن افقد وظيفتى كما ان هناك احتمالا بأن تخسر شركتى مبلغ عشرين الف ريال انفقتها على الآلات التى عهد الى ابتكارها ، وهذا هو اسوأ الاحتمالات .

« **الخطوة الثانية** : فلما فرغت من تصور أسوأ ما عساه ان يحدث وطدت نفسى على قبوله اذا لزم الأمر ، وقلت لنفسى سيكون هذا الفشل نقطة سوداء فى سجلى ، وقد يتسبب فى أن افقد وظيفتى ، فاذا فصلت ، فانى استطيع الحصول على وظيفة اخرى .. اما رؤسائى ، فانهم يعلمون اننا نجرب ابتكارا جديدا لتنقية الغاز ، فاذا كانت التجربة قد كلفتهم عشرين الف ريال ، ففى وسعهم احتمال فقد هذا المبلغ ، وفى استطاعتهم اضافته الى الميزانية المخصصة للأبحاث .

« فلما انتهيت من تصور اسوأ ما عساه أن يحدث ، وطدت العزم على قبوله اذا لزم الأمر ، حدث شىء أدهشنى . فقد وسعنى الاسترخاء ، وشعرت بالطمأنينة ، التى افتقدتها منذ أيام ، تتسلل الى نفسى .

الخطوة الثالثة : وعقب ذلك ، كرست وقتى محاولا انقاذ ما يمكن انقاذه من هذا الفشل ، الذى أعددت نفسى لمواجهته .

« فاخذت أفكر فى الوسائل التى يمكن أن اقلل بها من الخسارة التى تقدر بعشرين الف ريال . واجريت عدة اختبارات، فتبين لى اننا اذا انفقنا خمسة آلاف ريال أخرى على استحضار

معدات اضافية ، فقد تحل المشكلة ، ولا يبوء عملنا بالفشل . وقد حدث هذا فعلا . وكسبت شركتنا خمسة عشر الف ريال بدلا من أن تخسر عشرين الفا !!

« وكان من الجائز أن لا يحدث هذا ، لو أننى استمررت فى القلق . فان من أسوا مميزات القلق ، انه يبدد القدرة على التركيز الذهنى . فنحن عندما نقلق ، تتشتت اذهاننا ، ونفقد كل قدرة على البت أو اتخاذ قرار حاسم ، لكننا عندما نعد انفسنا على مواجهة أسوأ الاحتمالات ، ونعد انفسنا ذهنيا لمواجهته ، فاننا بذلك نضع انفسنا فى موقف يسعنا فيه ان نركز اذهاننا فى صميم المشكلة .

« هذه التجربة التى ذكرتها ، حدثت منذ عدة سنوات مضت وقد أخذت فى تطبيق هذه الطريقة التى ابتدعتها لمواجهة القلق منذ ذلك الوقت ، وكنتيجة لذلك اكاد اكون قد خلصت حياتى من القلق اطلاقا » .

فلماذا كانت طريقة « ويليس كاريير » عملية شديدة النفع من الوجهة السيكولوجية ؟ لأنها تخلصنا من الغيوم الكثيفة التى نتخبط فيها اذا أعمى القلق ابصارنا ، وتثبت اقدامنا على ارض مأمونة نعرف فيها مواطىء اقدامنا، والا .. اذا لم نحس بالأرض الثابتة من تحتنا ، فكيف نأمل فى أن نفكر تفكيرا صحيحا ؟

منذ ثمانية وثلاثين عاما ، مات وليم جيمس الملقب بأبى علم النفس التطبيقى . ولو أنه كان حيا يرزق اليوم ، وسمع بهذه الطريقة التى ابتكرها « كاريير » لمواجهة اسوأ الفروض ، لأقرها من صميم فؤاده . كيف عرفت هذا ؟ لأنه قال ذات مرة : «اعدوا انفسكم لتقبل الحقيقة ، فان التسليم بما حدث هو الخطوة الأولى فى التغلب على المصاعب » . وقد عبر عن هذه الفكرة ايضا « لين يرتانج » فى كتابه الشهير « أهمية العيش » (١) .

Liu Yıtang : "The Importane of Living" (1)

قال هذا الفيلسوف الصينى : « ان طمانينة الذهن لا تأتى الا مع التسليم بأســـوأ الفروض . ومرجـــع ذلك ، من الوجهة السيكولوجية ، الى ان هذا التسليم يحرر النشاط من قيوده ».

هذا هو الواقع بالضـــبط ! فان التسليم بأســـوأ الفروض يحرر النشاط من قيوده . فمتى سلمنا بأســـوأ الفروض لم يبق لنا شىء نخسره وان بقى ما نكسبه ! .

ومع ذلك فان ملايينا من الناس قد حطموا حياتهم فى صورة غضب ، لأنهم رفضوا أن يسلموا بأسوأ الفروض . ورفضوا ان ينقذوا منه ما يمكن انقاذه ، وبدلا من ان يحاولوا بناء آمالهم من جديد ، خاضوا معركة مريرة مع « الماضى » وامتثلوا للقلق الذى لا طائل وراءه .

اتريد أن تعرف كيف استطاع شخص آخر أن يطبق طريقة « كارير » على مشكلته الخاصة ؟ هاك مثـــلا ، أحد المشتغلين بالزيت فى نيويورك ، وهو من طلبتى . واليك قصته : لقد كنت ضحية ابتزاز مالى بالتهديد ، الأمر الذى لم أكن أؤمن بحـــدوثه خارج الشاشة البيضاء ! فقد كان لشركة الزيت التى أراسها ، عدد من سيارات نقل الزيت ، وعدد من السائقين . وكانت كمية الزيت التى نسلمها لكل عميل من عملائنا محدودة معلومة . وقد علمت فيما بعد أن بعض الســـائقين لم يكونوا يســـلمون كميات الزيت بأكملها لأصحابها ، بل ينقصـــون منها كميـــات يبيعونها لحسابهم الخاص .

« وكانت المرة الأولى التى وقفت فيها على هذه المعاملة غير القانونية ، حين زارنى رجل ذات يوم ، وزعم أنه مفتش حكومى، ثم طلب منى مالا نظير سكوته ، فقد كان يحرز أدلة قاطعة على ما يفعله سائقو الشركة ، وهدد بتسليم هـــذه الأدلة الى مكتب النائب العام اذا لم امنحه ما يسكته ! .

« وكنت اعلم أنه لاحاجة بى — انا شخصيا — الى القلق — ولكنى كنت أعلم أيضا أن القانون يحمل الشركات مسئولية أعمال موظفيها ، وأكثر من هذا ، كنت أعلم أن المسألة اذا تناهت الى ساحة القضاء ، فان الدعاية التى ستثيرها الصحف ستودى بعملى ، وكنت فخورا بعملى ، فقد أسسه أبى منذ أربع وعشرين سنة .

« ومن ثم انتابنى القلق ، حتى استحلت مريضا ، لم أتناول طعاما ، ولم أذق للنوم طعما مدة ثلاثة أيام بلياليها . كنت أدور بذهنى كالمخبول فى دوائر لا منفذ لها : هل أدفع المال — خمسة آلاف ريال — ؟ أم أطرد الرجل قائلا له : ان يفعل ما يشاء ، ثم حدث ، فى مساء يوم الأحد ، أن التقطت الكتيب المعنون « كيف تقهر القلق » الذى كان يدرس لنا فى فصول كارنيجى ، واخذت أطالع فى الكتيب الى أن استوقفنى ما قاله « ويليس كاريير » : « واجه أسوأ الاحتمالات » واذ ذاك سألت نفسى : « ما هو أسوأ ما يمكن حدوثه لى اذا رفضت أن أدفع المال للرجل ، فرفع مستنداته الى النائب العام ؟ » وكان الجواب هو هذا : « خراب يمنى به عملى .. هذا هو أسوأ ما يمكن أن يحدث ، اننى لن أسجن ، أو أقتل . كل ما هنالك أن الدعاية السيئة ستودى بشركتى » .

« وعندئذ قلت لنفسى : « حسنا ، فلنفرض أن العمل انهار — وسلمت بهذا فرضا — فما الذى يحدث بعد هذا ؟ » واجبت: « قد أسعى للالتحاق بعمل . وليس هذا بعسير ، فاننى أعلم الشىء الكثير عن الزيت ، وهناك أكثر من شركة يسرها أن التحق بخدمتها » .

« واحسست بعد ذلك بشىء من الارتياح . وبدأت ثورة عواطفى تخمد ، ولفرط دهشتى استطعت أن أفكر .

« فقد أصبح ذهنى من الصفاء بحيث وسعنى او أواجه

الخطوة التالية وهى : محاولة انقاذ ما يكمن انقاذه . واذ جعلت افكر فى الحلول الممكنة ، بدت لى زاوية جديدة فى الموضوع . فلو أنى شرحت لمحامى الخاص الموقف بحذافيره ، فقد أجد لديه مخرجا .. وقد يبدو من السخف اننى لم افكر فى مثل هذا من قبل ، ولكنى لم اكن افكرمن قبل بل كنت قلقا . وعزمت على أن أتوجه الى محامى فى صباح اليوم التالى ، وذهبت الى الفراش فى تلك الليلة ، ورحت فى نوم عميق .

« فكيف انتهت المشكلة ؟ لقد نصحنى المحامى ، فى اليوم التالى ، ، بأن اقصد الى النائب العام ، وافضى اليه بالحقيقة ! ولقد فعلت هذا وهنالك تملكنى العجب ، حين سمعت النائب العام يقول : ان هذا الرجل الذى جاءنى ليبتز أموالى بالتهديد ما هو الا مدع يحتال على الناس منذ شهور . منتحلا صفة مفتش فى الحكومة ، وان البوليس يجد فى أثره ! وما كان أروع هذا القول لنفسى ، واثلجه لفؤادى ، بعد أن قضيت ثلاثة أيام بلياليها قلقا مهتما ! .

وقد علمتنى هذه الحادثة درسا لا ينسى ، فلا أكاد أواجه اليوم مشكلة تنذر بالقلق ، حتى أعالجها بما أسميه « وصفة ويليس كارير العجوز » .

* * *

فى الوقت الذى كان فيه ويليس كارير يعانى القلق من جراء آلات تنقية الغاز فى مدينة كريستال بولاية ميسورى ، كان ثمة رجل من مدينة « بركن بو » بولاية نبراسكا ، يعد وصيته ، كان هذا الرجل . ويدعى « ايرل هانى » يشكو قرحة فى «الاثنى عشر »، وقد صرح له ثلاثة أطباء بينهم اخصائى شهير فى أمراض القرحة ، انه لا يرجى له شفاء ، ونصحوه بأن يمتنع عن الطعام، وبأن لا يقلق أو ينزعج لشىء ، وأن يحيط نفسه بهدوء تام ، كما نصحوه بكتابة وصيته !

وكان من جراء هذه القرحة أن فقد « ايرل هانى » وظيفة تدر عليه ربحا كبيرا ، فلم يعد له اذ ذاك ما يفعله سوى أن يتطلع الى الموت الذى يسعى اليه بطيئا .

وفجأة اتخذ « هانى » قرارا مدهشا . قال فى نفسه : « اذا لم يبق لى فى هذه الحياة سوى امد قصير فلماذا لااستمتع بهذا الأمد على أكمل وجه ؟ لقد طالما تمنيت أن أطوف حول العالم قبل أن يدركنى الموت ، فماذا كان لى أن أنفذ هذه الامنية ، فالآن هو وقت التنفيذ » .

ومن ثم ابتاع تذكرة سفر . وقد ارتاع أطباؤه ، وقالوا له : « ينبغى لنا أن نحذرك أنك اذا اقدمت على هذه الرحلة فستدفن فى قاع البحر » ولكنه أجاب : « كلا ! لن يحدث شىء من هذا ، فقد وعدت أقاربى الا يدفن جثمانى الا فى مقابر الأسرة » . واشترى هانى تابوتا ، اصطحبه معه على الباخرة كى يدفن فيه اذا حان قضاؤه أثناء الرحلة ، ثم ركب السفينة ، وهو يتمثل بقول عمر الخيام:

« انعم أقصى النعيم بما ملكت يداك .
« قبل أن توسد اللحد ، فلا شىء هناك .
« سوى تراب من تحتك ، وتراب من أعلاك .
« فلا شراب ، ولا غناء ، ولا نهاية بعد ذاك » .

الا أن « هانى » لم يقطع الرحلة بغير شراب ، فقد أرسل الى زوجته مسز هانى خطابا يقول فيه : « لقد شربت النبيذ على السفينة، ودخنت السيجار ، واكلت كل الوان الطعام ، حتى الألوان الدسمة منها التى كانت كفيلة بالقضاء على . لقد استمتعت بهذه الفترة اكثر مما استمتعت فى ماضى حياتى جميعا . مارست صنوفا متعددة من اللهو على ظهر الباخرة ، واشتركت فى انشاد الأغانى ، واكتسبت أصدقاء جددا ، وكنت أسهر الى منتصف الليل ، وعند ما وصلت الى الصين والهند أدركت أن المتاعب والصعاب التى واجهتها فى بلادى تعد جنة الى جانب الفقر والجوع الذين يعانيهما الشرق ، وعندئذ

كففت عن هذا القلق السخيف ، واسرعت الى بيع التابوت الذى صحبته معى لاقرب حانوتى ، لم أعد الآن اشعر بالمرض قط » .

وفى الوقت الذى حدث فيه هذا ، لم يكن « ايرل هانى » قد سمع « بوصفه » كارير لعلاج القلق ، ولكنه قال لى أخيرا : « اننى ادرك الآن اننى كنت أطبق نفس المبادىء — اى مبادىء كارير — دون وعى منى ، فقد وطدت نفسى على مواجهة اسوأ الفـــروض — وهو فى حالتى انا — الموت ! ثم عملت على انقاذ ما يمكن انقاذه ، فعولت على استخلاص أكبر قدر من المتعة بما تبقى لى من عمر ، ولو اننى مضيت فى القلق ، فما من شـــك فى انى كنت سأعود على البـــاخرة داخل التابوت الذى أخذته معى . وما زال « هانى » يعيش الى اليوم فى رقم ٥٢ شارع ويدجمير — وينشستر — ماساشوستس .

وبعد ... فاذا كان ويليس كارير استطاع أن ينفـــذ عشرين الف ريال ، واستطاع رجل أعمال من نيويورك أن ينقذ نفسه من الابتزاز بالتهديد ، واستطاع « ايرل هانى » ن ينقـــذ حياته من الموت ، بواسطة هـــذه « الوصفة » الســـحرية ، فلا ترى انك تستطيع بها أن تحل بعض مشكلاتك التى كنت تظن أن لاحل لها؟

واذن فالقاعدة رقم ٢ هى :

اذا كانت لديك مشكلة تبعث على اقلق ، فطبق « وصفة » ويليس كارير السحرية متخذا هذه الخطوات الثلاث :

١ — اسأل نفسك : ماهو اسوأ ما يمكن أن يحدث لى ؟

٢ — هيىء نفسك لقبول اسوأ الاحتمالات .

٣ — ثم اشرع فى انقاذ ما يمكن انقاذه .

الفصل الثالث

ماذا يصيبك من القلق ؟

« ان رجال الاعمال الذين لا يعرفون كيف يكافحون القلق يموتون مبكرا »

(الدكتور الكسيس كاريل)

منذ وقت مضى ، طرق بابى جار لى ، وحثنى وعائلتى على أن نطعم ضد الجدرى ، ولم يكن هذا الجار سوى واحد من آلاف المتطوعين الذين راحوا يطرقون الأبواب فى طول مدينة نيويورك وعرضها ويحسون الناس على التحصن ضد الجدرى . وهرع الناس وقد أخذهم الرعب الى مراكز التطعيم التىجندت أكثر من الفى طبيب وممرضة ، وصلوا الليـــل بالنهار فى تطعيم الجموع المحتشـــدة ، وكان السبب فى ذلك كله هو القلق ! فقد حدث أن مرض ثمانية أشخاص من سكان نيويورك بالجدرى ، ومات منهم اثنان .. اثنان من مجموع سكان المدينة البالغ عددهم نحو ثمانية ملايين نفس !

ولقـــد عشت فى نيويورك أكثر من سبع وثلاثين سنة ، فلم يحدث أن طرق بابى أحـــد ليحذرنى من مرض يدعى القلق ... هذا المرض الذى سبب فى خلال الأعوام السبعة والثلاثين الماضية من الخسائر فى الأنفس اكثر مما سببه الجـــدرى بعشرة آلاف ضـــعف .

نعم ! لم يطرق احـــد بابى ليحذرنى من أن شخصا من كل عشرة أشخاص من سكان أمريكا معرض للاصابة بانهيار عصبى ، مرجعه فىمعظم الاحوال، الى القلق. ومن ثم فانى اكتبهذا الفصل لأطرق بابك ـــ أيها القارىء ـــ واحذرك !

كتب الدكتور « الكسيس كاريل » الحائز على جائزة نوبل فى الطب ، يقــول : « ان رجال الأعمــال الذين يكافحون القلق يموتون مبكرا » . ومثــل رجال الأعمــال فى ذلك الزوجات ، والأطباء والفعلة حملة قوالب الطوب .

منذ بضعة أعوام ، أمضيت اجازتى ، متجولا بسيارتى فى تكساس ، ونيومكسيكو ، مــع الدكتور جوبر ، وهو أحد اطباء شركة « سانتافى » للسكك الحديدية ، ولقبــه الكامل هو « كبير اطباء إتحاد مستشفيات جالت ، وكولورادو ، وسانتافى » ودار حديثنا حول القلق . فقال : « ان فى استطاعة سبعين فى المائة من المرضى الذين يقصدون الى الأطباء ، أن يعالجوا أنفسهم بأنفسهم، اذا هم تخلصــوا من القلق والمخاوف التى تســيطر عليهم . ولا تحسبن أننى اقصد بذلك الى ان أمراضهم وهمية، بل هى حقيقية لها ألم يعادل ألم الأسنان التالفة ، وربما كان أشــد منها بمئات الأضعاف . واذكر مثلا لهــذه الأمراض عسر الهضم العصبى ، وقرحة المعدة ، واضطرابات القلب ، والأرق والصداع ، وبعض أنواع الشلل .

« هذه الأمراض تحدث حقيقة ، وانا أعلم ما اقول ، فأنا نفسى قد شكوت قرحة المعدة مدى اثنتى عشرة سنة .

« فان الخوف يسبب القلق ، والقلق يسبب توتر الأعصاب واحتداد المزاج ، ويؤثر فى أعصاب المعــدة ، ويحيل العصارات الهاضمة الى عصــارات سامة تؤدى فى كثير من الأحيــان الى قرحة المعدة » .

ويقــول الدكتور « جوزيف ف. مونتاجى » مؤلف كتــاب « اضطرابات المعدة العصبية » (١) : « ان قرحة المعدة لا تأتى مما تأكله ، ولكنها تأتى مما « يأكلك » .. » .

Joseph F. Montagn "Nervous Stomach Troubles" (1)

ويقول الدكتور « و. س. الفاريز » الطبيب بمستشفى مايو الشهير : « كثيرا ما تنشأ قرحة المعدة نتيجة لتقلب العاطفة ، واضطرابات الاحساس» . وهو يقول هذا بعد دراسته لأكثر من ١٥٠٠٠ مريض ، عولجوا من اضطرابات المعدة فى مستشفى « مايو » وقد اتضح أن أربعة من كل خمسة مرضى ليس لمرضهم اساس عضوى على الاطلاق ، بل أساسه الخوف ، والقلق ، والبغضاء والأنانية المستحكمة، وعدم مقدرة الشخص على الملاءمة بين نفسه والحياة .

القى الدكتور « هارولدس . هايين » الطبيب بمستشفى « مايو » رسالة فى اجتماع « الجمعية الأمريكية للأطباء والجراحين العاملين فى المؤسسات الصناعية » قال فيها : انه درس حالة ١٧٦ رجلا من رجال الأعمال ، من أعمار متجانسة معدلها ٤٤ سنة . فاتضح له ان « أكثر من ثلث هؤلاء يعانون واحدا من ثلاثة أمراض تنشأ كلها عن توتر الأعصاب ، وهى : «اضطرابات القلب ، وقرحة المعدة ، وضغط الدم » أفليس محزنا أن تتحطم حياة رجال الأعمال بسبب اضطرابات القلب ، وقرحة المعدة ، وضغط الدم، ولما يبلغ احدهم بعد الخامسة والأربعين ؟ أهذا هو ثمن النجاح ؟ وهل يعد ناجحا ذلك الذى يشترى نجاحه بقرحة المعدة ، واضطرابات القلب ؟ وما الذى يفيده المرء اذا كسب العالم بأجمعه وخسر صحته ؟ فلو أن أحدا ملك العالم لما استطاع الا ان ينام فى مخدع واحد ، فى وقت واحد ، ولما وسعه الا أن يأكل ثلاث وجبات فى اليوم ، فما الفرق بينه ، فى هذا . وبين « الفاعل » الذى يحفر الأرض بمعوله ؟ بل لعل « الفاعل »أكثر استغراقا فى النوم ، وأكثر استمتاعا بطعامه من رجل الأعمال ذى الجاه والسطوة . واننى صراحة ، أفضل أن أكون مزارعا بسيطا فى « الاباما » أعزف على قيثارتى اذا ما خلوت من العمل، على ان أحطم صحتى فى سن الخامسة والأربعين لكى أؤسس شركة للسكك الحديدية أو السجاير .

وعلى ذكر السجاير — فان أشهر منتج للسجاير فى العالم كله ، سقط أخيرا ميتا بالسكتة القلبية ، وهو يحاول أن يلتمس الراحة فى غابات كندا ! .

لقد جمع الملايين ، ثم سقط ميتا فى سن الواحدة والستين من عمره ، ولعله قضى الشطر الأكبر من هذا العمر فى اجتلاب ما يسمى « النجاح » أو « المجد » .

وفى اعتقادى ، أن هذا المالى الكبير ، برغم كل ماجمع من ملايين ، لم ينل من النجاح مثلما نال أبى — وقد كان مزارعا بسيطا فى ميسورى — الذى مات فى سن التاسعة والثمانين ، ولم يخلف دولارا واحدا .

لقد صرح « اخوان مايو » أصحاب المستشفى المعروف باسمهم — بأن أكثر من نصف عدد المخادع فى مستشفيات أمريكا يشغلها أشخاص يشكون من اضطرابات عصبية لا جسمانية .

ولو أنك درست أعصاب هؤلاء الناس ، تحت مجهر قوى فى معمل حديث ، لبدت صحيحة سليمة كأعصاب جاك دمبسى — بطل الملاكمة المعروف — فهذه الاضطرابات العصبية ، ليس منشؤها انحطاط الأعصاب ، وانما توتر العواطف ، والقلق ، والخوف ، والهزيمة ، واليأس .

لقد قال أفلاطون : « ان أكبر أخطاء الأطباء أنهم يحاولون علاج الجسد دون العقل ، فى حين أن العقل والجسد وجهان لشىء واحد ، فلا ينبغى أن يعالج أحد الوجهين على حدة » .

وقد استغرق علم الطب ألفين وثلاثمائة عام ليتحقق من صدق هذا القول ! فالآن فقط ، بدأنا ننشىء نوعا من الطب يسمى « الطب النفسى الجسمانى » (Paycho Somatic Medecine) وهو نوع من الطب يعالج الجسم والنفس فى آن معا .

نعم . لقد هزم الطب ، أو كاد ، الأمراض التى تسببها

الجراثيم ، كالجدرى ، والكوليرا ، والحمى الصفراء ، وغيرها ، ولكنـــه — اى الطب — وقف عاجـــزا امام القلق ، والخوف ، والكراهية ، واليأس ، فى حين ان ضحايا هذه الأمراض العاطفية يتزايد عددهم بشكل مروع .

ويقرر الاطباء أن واحدا من كل عشرين امريكيا ، سوف يقضى جانبا من حياته فى مصح للأمراض العقلية . ومن الحقائق المريرة ان واحدا من كل ستة شبان ، تقدموا للالتحاق فى الخدمة العسكرية فى خلال الحرب العالمية الأخـــيرة ، رد على اعقابه لأنه مريض أو ناقص عقليـــا .

هل تعرف ما الذى يسبب الجنون ؟ لا احد يعـــرف على وجه التحديد . ولكن من المحتمل ، ان يكون الخوف أو القلق من العوامل المؤدية الى الجنون . فالشخص القلق ، العاجز عن مواجهة الحياة وحقائقها ، يفصم علاقاته ببيئته ، ويتراجع الى حلم من نسج خياله، وبذلك يذلل مشكلاته ، ولا يبقى ما يدعوه الى القلق .. وهذا هو الجنـــون .

فوق مكتبى ، وانا أكتب هـــذا ، كتـــاب للدكتـــور « ادوارد بودولسكى » . عنوانه « دع القلق وانعم بالشفاء » (١) ، وهـــذه عناوين بعض فصول الكتاب :

ماذا يفعل القلق بالقلب — ضغط الدم الذى يغذيه القلق — الروماتيزم قد يسببه القلق — قلل من القلق من اجل معدتك — كيف يسبب القلق البرد — القلق والغدة الدرقية — القلق ومرض البول الســـكرى » ! .

ومن الكتب القيمة الأخرى فى موضوع القلق ، كتاب « الانسان

(1) Dr. Edward Podolsky ' "Stop worrying and Get Well"

عدو نفسه » للدكتور كارل مننجر (١) ، الطبيب فى عيادة مايو للطب النفسى . والدكتور مننجر فى كتابه هذا يحدثك بما يدهشك ، عن مدى الضرر الذى تلحقه بنفسك اذا سمحت للعواطف الهدامة بأن تسيطر على حياتك ، فاذا أردت أن تكف عن الكفاح ضد نفسك ، فاقرأ هذا الكتاب (أى كتاب الدكتور مننجر) . اقرأه ، ثم اعطه لأصدقائك ليقراوه . ان ثمنه اربعة دولارات — وهو مبلغ ليس اصلح من استغلاله فى هذا الكتاب ، لما يعود عليك منه من أطيب الثمرات .

ان القلق يجعل من اصلب الرجال عودا ، مريضا واهنا ، وقد اكتشف « الجنرال جرانت » هذه الحقيقة قبيل نهاية الحرب الإهلية الأمريكية . وهذا هو تفصيل القصة .

لقد حاصر الجنرال جرانت مدينة « رتشموند » مدى تسعة شهور ، انهارت خلالها جيوش « الجنرال لى » ، وتحطمت قوتها المعنوية ، واضناها الجوع ، ومر عليها وقت كادت فيه فرق بأكملها تهجر الجيش ، وكانت ثمة فرق أخرى تقيم الصلوات فى خيامها وهى تصرخ ، وتبكى ، وتتراءى لها الرؤى المزعجة ، لقد دنت الخاتمة ، وأحرق جنود « الجنرال لى » مخازن القطن والطباق بمدينة « رتشموند » ، كما أحرقوا البناء ، وفروا من المدينة تحت جنح الظلام ، بينما اللهيب المندلع يشق أستار الظلام .. وجد « جرانت » فى تعقبهم ، والاطباق عليهم من الجانبين ، بينما كان الفرسان تحت قيادة « شريدان » يطاردونهم من الأمام . وهم يخربون السكك الحديدية ، ويستولون على قطارات المؤن . وتخلف « جرانت » وراء جيوشه ، وهو يعانى صداعا شديدا ، واعتكف فى بيت ريفى خلف الخطوط ، وقد جاء فى مذكراته عن تلك الفترة قوله : لقد قضيت الليل فى معالجة قدمى بحمامات الماء الساخن ، ومفاصلى ورقبتى بالعقاقير الحارة ، مؤملا أن اشفى فى الصباح»! وقد شفى فى الصباح التالى ، شفى بأسرع مما كان يتصور ، ولكن

Dr. Karl Menienger : "Man against Himself" (1)

السبب فى شفائه لم يكن البخار ولا العقار ، انما ضابط من ضباط الخيالة جاءه يسعى على ظهر جواده ، حاملا اليه خطابا من « الجنرال لى » يبدى فيه رغبته فى التسليم !

ويقول جرانت فى مذكراته : « عندما جاءنى الضابط ، كنت ما أزال أعانى الصداع ، وفى اللحظة التى اطلعت فيها على محتويات الرسالة ، شفيت تماما » !.

ان مرض الجنرال جرانت كان يرجع اذن الى القلق ، والتوتر واهتياج العواطف . وقد شفى بمجرد أن هدأت عواطفه ، وتجددت فى نفسه الثقة ، ونشوة الظفر .

وبعد ذلك بنحو سبعين عاما ، اكتشف « هنرى مورجنتاو » وزير المالية فى عهد الرئيس « فرانكلين روزفلت » أن القلق قد سبب له مرضا مصحوبا بالدوار ، وقد جاء فى مذكراته أن استشعر القلق عندما اشترى الرئيس ٤٫٤٠٠٫٠٠٠ (بوشل) من القمح . عسى أن يرتفع سعره . فقد كتب فى مذكراته يقول : « لقد أحسست فعلا بالدوار ، بينما كانت الصفقة تتم ، فذهبت الى بيتى ولزمت فراشى مدى ساعتين بعد الغذاء » .

ولو أننى أردت أن أرى ما يفعله القلق بالناس . فليس على أن أذهب الى مكتبة أو الى طبيب ، بل ما على الا أن أطل من نافذة بيتى . حيث أكتب هذا الكتاب ، فأرى فى حى واحد ، بيتا سبب فيه القلق حالة انهيار عصبى ، وبيتا آخر سبب فيه القلق مرض البول السكرى .

ومن الحقائق المعروفة : أنه عند ما تهبط قيمة الأسهم فى البورصة ، ترتفع قيمة السكر فى البول والدم بين المضاربين ! .

عندما انتخب الفيلسوف الفرنسى « مونتانى » Montaigne عمدة ، فى مسقط رأسه — بوردو — قال لمواطنيه : « اننى على استعداد لأن أهيمن على شئونكم بيدى ، لا بكبدى ورئتى » .

اما جارى الذى سبب له القلق مرض البول السكرى . فقد هيمن على عمله فى البورصة بدمه واعصابه ، لا بيديه . فاوشك ان يقتــل نفســـه .

ان القلق يسعه ان يضجعك فى مقعد ذى عجلات من وطاة الروماتيزم او التهاب المفاصل ، وقد وضع الدكتور « رســـل لى . سيسل » المدرس فى كلية الطب بجامعة كورنال ، والاخصــائى العالمى فى داء التهاب المفاصل قائمة ضمنها اربعة عوامل ينشأ عنها التهاب المفاصــــل وهى :

١ ـــ فشل يصيب الانسان فى الزواج .

٢ ـــ كارثة مالية ، أو حزن عميق .

٣ ـــ الوحشة والقلق .

٤ ـــ الانفعالات المستمرة .

وطبيعى ان هذه العوامل الأربعة : تتفرغ عنها عوامل اخـــرى كثيرة ، ولكن هذه العوامل الأربعة هى الأصل .

مثال ذلك ان صديقا لى اصابته صدمة عاطفية عندما افلست شركة الغاز التى كان يعمـــل بها ، فمرضت زوجته بداء التهـــاب المفاصل ، ولم ينفع فى علاجها الأدوية والعقاقير . فلما التحق زوجها بعمل آخر ، وتحسنت احواله المالية ، شفيت زوجته فى الحال ، فقد كان القلق على مستقبل زوجها هو منشأ مرضها .

بل ان القلق قد يسبب الم الأسنان . قال الدكتور « وليم ماك كونيل » فى خطاب القاه أمام « الجمعية الأمريكية لطب الأسنان »: « ان الانفعالات التى يسببها القلق ، والخوف ، والنزاع الدائم » قد تصيب ميزان الكلسيوم فى الجسم باختلال ينشأ عنه الم الأســـنان وتلفها ، وتحدث الدكتور « ماك كونيل » عن رجل كانت اســـنانه سليمة معافاة ، الى ان ساوره القلق على زوجته التى اصابها مرض فجائى . فقد اضطر الرجل فى خلال الأسابيع الثلاثة التى قضتها زوجته فى المستشفى : الى اقتلاع سبع اسنان .

هل سبق لك ان شاهدت شخصا مصابا بنشاط زائد فى الغــدة الدرقية ! لقد شاهدت انا بعض المصابين بهذا الداء . فوجدتهم يرتعدون ويهتزون ، ويلوح عليهم ، كأنما يوشك الخوف أن يقتلهم، ذلك لأن ازدياد افراز الغدة زاد من ضربات القلب ، فأخذت أعضاء الجسم تعمل بأقصى شدتها ، كأنما هى أتون اشتدت وقدة النار فيه، فاذا لم تهدأ هذه الوقدة ، بواسطة عملية جراحية ، أو علاج سريع، فقد يموت المريض ، أو بمعنى آخر ، يحترق على لظى هذه الجذوة المشـــتعلة .

منذ وقت قصير ، ذهبت الى فيلادلفيا بصحبة صديق لى يعانى تضخما فى الغدة الدرقية ، ليزور اخصائيا شهيرا فى هذا المرض ، فماذا تظنها النصيحة التى علقها هذا الطبيب داخل اطار فى غرفة الانتظار بعيادته ؟ ها هى ذى ، فقد دونتها اذ ذاك على ظهــر مظــروف .

الاسترخاء والترفيه

« ان الترفيه يؤدى الى الاسترخاء ، ولكى ترفه عن نفسك اتبع ما يأتى : ثق بالله واعتمد عليه . اعط بدنك قسطه من النوم . استمتع بالموسيقى . انظر الى الجانب البهيج للحياة . وثق بعد هذا أن الصحة والسعادة من نصيبك » .

وكان اول سؤال وجهه الطبيب إلى صديقى هو : « أى انفعال عنيف سبب لك هــذا ؟ » ثم انه أنذر صـــديقى أن يكف عن القلق والا اصيب بمضاعفات أخرى ، كاضطرابات القلب ، وقرحة المعدة، والبول السكرى . ثم أردف الطبيب الشهير يقول : « وهذه الأمراض كلها بنات عمومة وخؤولة » ، وهو على حق ، فانها كلها تتفرع عن القلق .

ذهبت ذات مرة لمقابلة كوكب السينما اللامعة « ميرل أوبيرون »، فصرحت لى بأنها طالمـــا رفضت الاذعان للقلق ، فهى تعلم انه جدير بتحطيم أهم ميزة يتطلبها الظهور على الشاشة البيضاء . وهى

جمال المنظر . ثم قالت : « عندما حاولت ، للمرة الأولى ، ان اظهر على الشاشة البيضاء ، استولى على الخوف والقلق ، فقد كنت قادمة لتوى من الهند ، ولم اكن اعرف احدا فى لندن ، حين كنت ابحث عن عمل ، وقد قابلت بعض المخرجين ، ولكن احدا منهم لم يقبل أن يستخدمنى . ولم أكن فى تلك الأثناء ، قلقة وحسب بل كنت جوعى ايضا . فقد عشت اسبوعين على الخبز والماء ولا شيء غيرهما . ولكنى قلت لنفسى : يا لى من حمقاء ! كيف يتاح لى الظهور على الشاشة ، وانا بعد لا عهد لى بالتمثيل ولا خبرة . ما لم أكن جميلة فاتنـــة ! .

« وقصدت الى المرآة . وحين تطلعت اليها هالنى ما ناله القلق من جمالى ! رايت التجاعيد قد بدت على وجهى ، ولمحت معالم القلق مرتسمة عليه ، وهناك قلت لنفسى : ان لم أكف عن القلق فى التو واللحظة ، فان جمالى — وهو الشيء الوحيد الذى يؤهلنى للظهور على الشاشة — خليق بأن يتقوض ويتشوه . وقد كففت عن القلق ، وكان جمالى هو السبب الأول فى اشتغالى بالتمثيل » .

والحق انه ليس هناك ما يصيب جمال المرأة بالبوار السريع مثل القلق ، انه يمسح الوجه ، ويصيبه بالتجاعيد ، ويحدث فيه تجاويف وتعاريج قبيحة منفرة ، بل انه يصيب شعر الراس بالشيب المبكر ، وقد ينتزعه من منبته . وهو الى ذلك يغضن البشرة ، ويتسبب فى كثير من امراض الجلد .

* * *

لقد اثبتت الاحصاءات أن القلق هو القاتل رقم (١) فى امريكا . ففى خلال سنى الحرب العالمية الأخير ، قتل من ابنائنا نحو ثلث مليون مقاتل ، وفى خلال هذه الفترة نفسها قضى داء القلب على مليونى نسمة . ومن هؤلاء الأخيرين مليون نسمة كان مرضهم ناشئا عن القلق ، وتوتر الأعصاب .

نعم ! ان مرض القلب من الأسباب الرئيسية التى حدت بالدكتور « الكسيس كاريل » الى أن يقول : « ان رجال الأعمـــال الذين

لا يعرفون كيف يكافحون القلق يموتون موتا مبكرا » .

وقلما يمرض الزنوج فى جنوب أمريكا ، والصينيون مثلا ، بأمراض القلب ، فهؤلاء أقوام يأخذون الحياة مأخذا سهلا لينا .

وانك لترى أن عدد الأطباء الذين يموتون بالسكتة القلبية يزيد عشرين ضعفا على عدد المزارعين الذين يموتون بالسكتة للسبب نفسه ! فان الأطباء يحيون حياة متوترة عنيفة ، ويدفعون الثمن ! وفى هذا يقول العالم النفسانى وليم جيمس : « ان الله يغفر لنا أخطائنا ، ولكن الجهاز العصبى لا يغفرها قط ! » .

واليك حقيقة مدهشة قد يصعب عليك تصديقها : ان عدد الامريكيين الذين ينتحرون ، يفوق عدد الذين يموتون بالأمراض على اختلافها ! فلماذا ؟ .

الجواب : فى معظم الأحوال هو : القلق .

عندما كان القادة الصينيون القساة فى الأزمان الغابرة ، يريدون تعذيب أسراهم ، كانوا يشدون وثاقهم ، ثم يضعونهم تحت صنبور يقطر منه الماء قطرة قطرة ، فاذا هذه القطرات المتساقطة على رءوس الأسرى على مرور الوقت ، تصبح كأنها دقات المعاول ، وتدفع بهؤلاء المساكين دفعا الى الجنون ، وهذه الطريقة نفسها فى التعذيب كان يستخدمها الأسبانيون فى عهد محاكم التفتيش ، والألمانيون فى معسكرات الاعتقال ، فى عهد هتلر .

والقلق اشبه بالماء المتساقط قطرة قطرة ، ومن ثم فهو يدفع بالناس الى الجنون والانتحار .

* * *

عندما كنت فتى ريفيا فى « ميسورى » ، كان يغشانى خوف قاتل وانا أستمع الى الواعظ « نيللى سنداى » وهو يصف نار الجحيم فى الحياة الأخرى . ولكنه لم يحدث قط أن ذكر الجحيم الذى يسببه القلق فى الدنيا ، وهو لعمرى أشد منه قساوة !

اتحب هذه الحياة ؟ أتريد أن تعيش طويلا وتستمتع بالصحة الطيبة ؟ اقرأ اذن ما كتبه الدكتور الكسيس كاريل « ان الذين يسعهم الاحتفاظ بالسلام والطمأنينة النفسية وسط ضجيج مدينة عصرية ، معصومون — ولا ريب من الأمراض العصبية » فهل يسعك أن تحتفظ بالسلام الداخلى ، وسط ضجيج مدينة عصرية ؟ اذا كنت انسانا طبيعيا : فسيكون جوابك : « نعم » ، فان للكثيرين منا من القوة أكثر مما يدركون ، وفى داخل أنفسهم قوى من المحتمل أنهم لم يستخدموها اطلاقا . كما قال « ثورو » فى كتابه الخالد«والدن»(١): « لست أعرف حقيقة أكثر تشجيعا من أن للانسان مقدرة فائقة على اعلاء شأنه عن طريق بذل الجهود — فلو أن انسان سعى الى أن يحيا الحياة التى يتصورها فى خياله . فسوف يصادف من النجاح ما لا يخطر له ببال » .

ومن المؤكد أن كثيرين من قراء هذا الكتاب لهم من قوة الارادة والقوى النفسية الكامنة مثلما للسيدة « أولجاجارفى » التى عرفتها فى بلدة « كورداليه » بولاية ايداهو .. فقد اكتشفت هذه السيدة أنفى استطاعتها ، برغم كل الظروف المؤلمة التى أحاطت بها أن تطرد القلق .

وهاهى قصة السيدة اولجا كما روتها لى : « منذ أكثر من ثمانية أعوام ، كان محكوما على بالموت البطىء ، الشديد الألم ، بسبب مرض السرطان ؟ وقد أيد هذا « الحكم » اشهر الأطباء فى هذه البلدة ، وكنت شابة . ولم أكن لأرغب أن أموت . وفى خضم يأسى المروع ، اتصلت بطبيبى تليفونيا فى « كيلوج » وصرخت فيه باليأس الذى يغمر قلبى . فقال لى . وهو ضيق الصدر نوعا : ماذا دهاك؟ أليست لك مقدرة على الكفاح ؟ انك ستموتين ! لو ظللت تصرخين هكذا ، نعم ان حالتك سيئة ، حسن . اقبلى هذه الحقيقة ، وواجهى الحقائق وكفى عن القلق ، ثم افعلى شيئا » ، وعندئذ أخذت على

(١) Thoreau "Walden"

نفسى عهــدا صــارما الا استسلم للقلق ، والا اصرخ . فاذا كان للعقل تأثير لعى الجسم فانى سأنتصر ، ولسوف أنتصر ، ولسوف أعيش .

وكانت الكمية المقررة لى من أشعة « اكس » لعلاج السرطان — الذى وصل معى الى درجته الأخيرة ، ولم يعــد هناك مجــال لاستخدام الراديوم — هى عشر دقائق ونصف دقيقة يوميا لمدة ثلاثين يوما ، ولكن أطبائى عرضونى للأشعة لمدة ١٤ دقيقة ونصف دقيقة يوميا مدى ٤٩ يوما ، وبرغم أن عظامى برزت من جسدى ، وبرغم أن قدمى تصلبتا كالرصاص ، فاننى لم أصرخ قط ، بل كنت ابتسم ، أو على الأصح كنت اقسر نفسى على الابتسام .

« ولست من الحماقة بحيث أعتقد أن الابتسام وحده يشفى من السرطان ، ولكنى أعتقد أن انشراح النفس يساعد الجسم على مقاومة المرض . وعلى اية حال فقد شفيت من السرطان ، والفضل فى ذلك للكلمات المشجعة الحافزة التى قالها لى طبيبى الدكتور «هاك كافرى » : « واجهى القلق ، كفى عن القلق ، وافعلى شيئا » .

ولسوف أختتم هذا الفصل بالتمهيد الذى اخترته له ، وهو قول الدكتور كاريل .

« ان رجال الأعمال الذين لايعرفون كيف يكافحون القلق يموتون موتا مبكرا » .

أكان الدكتور كاريل يقصدك أنت بهذه العبارة ؟

الجزء الأول فى سـطور

حقائق أساسية عن القلق ينبغى أن تعرفها

القاعدة رقم ١ :

اذا أردت أن تتجنب القلق ، فافعل ما فعله سير وليم أوسلر : عش فى نطاق يومك ، ولا تقلق على المستقبل . عش اليوم حتى يحين وقت النوم .

القاعدة رقم ٢ :

عندما تأخذ المشكلات بتلابيبك — فى المرة القادمة — ولا تستطيع منها فكاكا ، جرب الطريقة السحرية التى فعلها ويليس كارير ، اسأل نفسك :

(أ) ما أسوأ الاحتمالات التى يمكن أن تحدث ؟

(ب) هيىء نفسك ذهنيا لقبول أسـوأ الاحتمالات اذا لزم الأمر .

(جـ) حاول أن تنقذ ما يمكن انقاذه من هذا الاحتمال الذى هو أسوأ الاحتمالات ، والذى اعـددت نفسك ذهنيا لقبوله .

القاعدة رقم ٣ :

ذكر نفسك دواما بالثمن الفادح الذى يتقاضاه القلق من صحتك ، واعلم أن رجال الأعمال الذين لا يعرفون كيف يكافحون القلق يموتون موتا مبكرا .

الجزء الثانى

الطرق الأساسية لتحليل القلق

الفصل الرابع

كيف تحلل أسباب القلق وتزيلها

ان لى ستة من الخدم المخلصين
عنهم تعلمت كل ما أعلم علم اليقين
سماؤهم هى: ماذا ، ولماذا ، ومتى
وكيف ، وأين ، ومن !
(رديارد كبلنج)

هل تزيل « الطريقة السحرية » التى ابتكرها كايير — والتى اتينا على شرحها فى الفصل الثانى من الجزء الأول — كل اسباب القلق ، وتحل كل مشكلاتنا ؟ كلا ! بقى أن نتعلم الخطوات الأساسية الثلاث التى يجب اتخاذها لتحليل مشكلة ما والقضاء عليها ، وهذه الخطوات هى :

١ — استخلص الحقائق .

٢ — حلل هذه الحقائق .

٣ — اتخذ قرارا حاسما ، ثم اعمل بمقتضى هذا القرار .

لقد علمنا ارسطور هذه الخطوات الثلاث ، واستخدمها بدوره ، وانت وانا لا محيص لنا من استخدامها اذا كان علينا أن

نحـــل المشكلات التى تعيينـــا ، وتحيل أيامنا ولياليناا الى جحيم لا يطاق .

ودعنا نناقش الخطوة الاولى : **استخلص الحقائق .**

لماذا يتحتم علينا أن نستخلص الحقائق ؟ لأننا مالم نحصل على الحقائق فلن يتسنى لنا ، عقلا ، أن نحل مشكلاتنا ! فبدون الحقائق لن نملك الا أن ندور حول المشكلة فى دوائر لا نهاية لها. وليست هذه فكرة ابتدعتها ، وانمــــا ابتدعها منـــذ عشرين عاما « هربرت هوكس » عميد كلية كولومبيا . فقد استطاع هـــذا الرجل أن يعين مائة ألف طالب على حل مشكلاتهم ، والتخلص من القلق . وقد قال لى مرة : « ان نصف المشكلات التى تسبب القلق ، منشؤها أن النـــاس يحاولون اتخـــاذ القرارات قبل أن تتوفر لهم المعـــلومات الكافية التى تتيح لهم اتخـــاذ قرارا ما . فمثلا . اذا كانت لدى مسألة يتحتم على أن انهيها فى الســـاعة الثالثة من يوم الثلاثاء القادم ، فاننى مبدئيا ، لا أحاول قط اتخاذ قرار بشأنها حتى يجين الثلاثاء القادم . ثم الى أن يحين الثلاثاء القادم ، أركز ذهنى فى استخلاص الحقائق المحيطة بها . ولست أقلق ، أو اضطرب ، أو أقضى الليالى مسهدا ، وانما كل ما أفعله هو أن أركز ذهنى فى استخلاص الحقائق المحيطة بالمسألة . فاذا حان يوم الثلاثاء ، كانت الحقائق جاهزة فى ذهنى ، وفى هذا أكبر العون على انهائها واتخاذ قرار حاسم فيها » .

وقد سألت العميد هوكس ، هل خلصته هذه الوسيلة من القلق كليا ، فقال : « نعم . وفى استطاعتى أن أقول مخلصا ان حياتى أصبحت خلوا من القلق على الاطلاق . وقد وجـــدت أن الانسان اذا بذل شيئا من وقته للحصول على الحقائق المجردة ، فان قلقه غالبا ما يتبخر على ضوء المعرفة التى يجنيها » .

ودعنى أكرر هذا القول : **« اذا بذل الانسان شيئا من وقته للحصول على الحقائق المجردة فان قلقه غالبا ما يتبخر على ضوء المعرفة التى يجنيها »** .

فماذا تظن أكثرنا يفعل ؟ اننا قلما نعنى بالحقائق اطلاقا . واذا حدث ان حاول أحدنا استخلاص الحقائق ، فانه يتصيد منها ما يعضد الفكرة الراسخة فى ذهنه ، ولا يعنى بما ينقضها ، أى انه يسعى الى الحقائق التى تبرر معله ، وتتفق مع أمانيه ، وتتفق مع الحلول السطحية التى يرتئيها . وفى ذلك يقول «أندريه موروا » : « كل ما يتفق مع ميولنا ورغباتنا الشخصية يبدو فى أعيننا معقولا : أما ما يناقض رغباتنا فانه يثير غضبنا » . فهل من المستغرب ، والحالة هذه ، أن يصعب علينا الوصول الى حل لمشكلتنا ؟ أولسنا نسخر من الشخص الذى يقبل على حل مسألة حسابية بسيطة مفترضا أن ٢ + ٢ = ٥ ؟ ومع ذلك فكثيرون جدا فى هذا العالم ، يحيلون حياتهم الى سعير ، باصرارهم على أن مجموع اثنين واثنين هو خمسة ، وربما خمسمائة ! فما العلاج ؟ العلاج هو أن نفصل بين عواطفنا وتفكيرنا ، وأن نفعل مثلما فعل العميد « هوكس » ، أى نستخلص الحقائق المجردة بطريقة محايدة .

وليس هذا سهلا ميسورا مع وجود القلق . فاننا حين يعترينا القلق نصبح مطية لعواطفنا ، ولكن ثمة طريقتين تساعدان على رؤية الحقائق مجردة ، وقد جربتهما بنفسى ولمست نفعهما :

١ — عندما أحاول استخلاص الحقائق أتظاهر كأنما استخلصها ، لا لنفسى وانما لشخص آخر . وهذا الاتجاه الذهنى يساعدنى على اتخاذ نظرة محايدة الى الحقائق ، مجردة من العاطفة .

٢ — فى أثناء جمع الحقائق ، أتظاهر كأنى ممثل الاتهام فى ساحة المحكمة ، أو بمعنى آخر احاول أستخلص الحقائق المضادة لمصلحتى .

ثم أدون المجموعتين من الحقائق : التى فى مصلحتى ، والتى تنافى مصلحتى ، وادرسهما جيدا ، وغالبا ما اجد الراى السديد شيئا يتوسط هذين النقيضين .

هــذه هى الفكرة التى أريد توضيحها : فلا أنت ولا أنا ، ولا العــلامة « اينشتين » ولا المحكمة العليــا للولايات المتحدة الأمريكية ، من الذكاء والألمعية ، بحيث تصل الى قرار حصيف، أو رأى سديد فى أية مشكلة ، مالم تحصــل أولا على الحقائق كافة .

اذن فالقاعدةالأولى لحل مشكلاتنا هى : **استخلص الحقائق افعل ما فعله العميد هوكس : تجنب حل مشكلاتك ما لم تحصل أولا على الحقائق بطريقة محايدة .**

على أن الحصول على الحقائق التى تغمر الدنيا بأسرها لن يجدينا شيئا حتى نحللها ونفسرها . ولقد وجدت بالتجربة أن من الأيسر تحليل الحقائق بعد تدوينها ، بل أن مجرد تدوين الحقائق التى تحيط بمشكلتنا ، هو فى حــد ذاته شــوط طويل فى طريق الوصول الى قرار معقول .. وفى ذلك يقول «تشارلس كيترنج»: « المشكلة المدونة تفاصيلها هى مشكلة نصف محلولة » .

ودعنى أبين لك كيف أمكن تطبيق ذلك كله عمليا ، ولنأخذ « جالن ليتشفيلد » مثلا . وقد عرفته منذ عدة سنوات مضت رجلا من أكثر رجال الأعمال الأمريكيين فى الشرق الأقصى نجاحا . وكان ليتشفيلد فى الصين عام ١٩٤٢ ، حين غزا اليابانيون شنغهاى ، وهذه هى قصته كما رواها لى حين استضفته فى منزلى :

« وعنــدما غزا اليابانيون هاربور » وبدأوا يتدفقون على شنغهاى ، كنت اذ ذاك مديرا « لشركة آسيا للتأمين على الحياة» فى شنغهاى ، فما لبثوا أن أرسلوا الى ضابطا برتبة أدميرال ، يطلب الى تصفية ممتلكات الشركة ، ولم يكن لى خيار فى الأمر ، فاما أن أتعاون مع الغزاة ، واما ... و « اما » الثانية هذه ، ليس لها الا معنى واحد ... الموت ! .

« وبدأت أنفــذ ما أمرت به .. وأعددت قائمــة بممتلكات الشركة سلمتها للأدميرال ، غير أنى أسقطت من هــذه القائمة

مبلغا قدره ٧٥٠،٠٠٠ دولار ، وقد أسقطت هـذا المبلغ لأنه فى الواقع ، يخص فرع الشركة المستقل فى « هونج كونج » ولكنى برغم ذلك ، ساورنى الخوف خشية أن يكون مصيرى الموت فى الماء المغلى ، اذا اكتشف اليابانيون ما فعلته . ولقـد اكتشفوه بعد ذلك بقليل ! .

« ولم أكن فى مكتبى بالشركة حين تم اكتشاف ذلك . ولكن رئيس الحسابات كان هناك ، وقد أنبأنى تليفونيا بأن الأدميرال اليابانى تميز غضبا ، ووصفنى باللص الخائن .

نعم ! لقد تحديت الجيش اليابانى ، وليس لهذا الا عقاب واحد ، هو الزج بى فى السجن الذى يسمونه « بيت الجسر ».

« بيت الجسر ؟! السجن الذى يتخـذه الجستابو اليـابانى مكانا للتعذيب ؟ .. لقد عرفت أشخاصا تخلصـوا بالانتحار من عذاب هذا السجن ، وعرفت أشخاصا آخرين لاقوا حتفهم بعد عشرة أيام من استجوابهم وتعـذيبهم فى هذا السجن ، وها هو دورى قد حل .

« أنبأنى رئيس الحسابات بهذا بعد ظهر يوم الأحد ، وكنت خليقا أن أهلك رعبا ، لو لم تكن لى طريقة خاصة أتبعها فى حل مشكلاتى ، فمنذ سنين مضت ، كنت كلما استولى على القلق ، أعمد الى الآلة الكاتبة وأدون على ورقة سؤالين . وهما :

« ١ — علام يساورنى القلق ؟

« ٢ — ما الذى يسعنى أن أفعله لأكف عن القلق ؟

« وكنت فيما مضى أجيب عن هـذين السؤالين شـفويا لا تحريريا ، ولكن وجد ان تدوين الاجابة يوضح معالم تفكيرى. ومن ثم قصدت بعد ظهر يوم الأحـد ، الذى سمعت فيه بهـذه الأنباء ، الى غرفتى فى جمعية الشـبان المسيحية بشنغهاى ، وعمدت الى الآلة الكاتبة وكتبت :

« س : لماذا يساورنى القلق ؟

« ج : لاننى اخشى ان يزج بى فى سجن « بيت الجسر » غدا صباحا .

« س : ما الذى يسعنى أن افعله لأكف عن القلق ؟

« وعندئذ انفقت ساعات طويلة فى التفكير ؟ وخلصت من التفكير الى مناهج أربعة . استطيع ان انهجها فدونتها ، ودونت معها كافة احتمالاتها :

« ج ١ — أستطيع أن أوضح الأمر للأدميرال اليابانى ، ولكنه لا يتكلم الانجليزية ، واذا حاولت أن أستعين بمترجم ، فقد أثير غضبه مرة ثانية ، وقد يعنى هذا موتا محققا لى ، فهو غليظ القلب ، ولعله يفضل أن يزج بى فى « بيت الجسر » على أن يناقشنى فى الأمر .

« ٢ — استطيع أن أحاول الهرب من المدينة ، ولكن هذا محال ! فانهم يقتفون خطواتى على الدوام ، ويتحتم على أن أسجل مواعيد دخولى وخروجى ، حيث أقيم بجمعية الشبان المسيحية ، ولو أننى حاولت الهرب ثم قبضوا على ، فانى أقتل رميا بالرصاص .

« ٣ — أستطيع أن أمكث هنا فى غرفتى ولا أذهب الى الشركة ثانية . لكننى ان فعلت هذا فسيشتبه الأدميرال اليابانى فى أمرى ، وقد يبعث بجنوده ليقبضوا على ، ويزجوا بى فى بيت الجسر ، دون أن يعطونى فرصة لأنبس بكلمة .

« ٤ — استطيع أن اذهب الى مكتبى فى الشركة صباح يوم الاثنين كعادتى ، وكأن شيئا لم يحدث، فاذا فعلت ، فمن المحتمل أن يكون الأدميرال مشغولا جدا ، فلا يذكر فعلتى ، واذا ذكرها فمن المحتمل أن تكون نار غيظه قد بردت ، فلا يناقشنى فى الأمر، وحتى اذا ناقشنى فستكون لدى فرصة لأوضح له جلية الأمر ،

واذن فذهابى الى المكتب صباح يوم الاثنين ، وكأن شيئا لم يحدث يمنحنى فرصتين للنجاة .

وبمجرد أن انتهيت من تقليب أوجــه النظر فى المسألة ، واعتزمت تنفيــذ الخطة الرابعــة ، أحسست بالراحة التامة ، وزايلنى القلق .

« وعندما دخلت مكتبى صباح يوم الاثنين ، وجدت الأدميرال جالسا والسيجارة فى فمه ، فحملق فى كمــادته ، ولم يقل شيئا حينئذ ، ولا فى الأيام التالية ! وبعد ستة أسابيع دعى الأدميرال الى طوكيو ، وبذلك اختتمت متاعبى ، وحلت مشكلتى .

« ولعلى أدين بنجاتى من موت محقق لجلستى تلك ، بعــد ظهر يوم الأحــد ، وتدوين الخطط الأربع المختلفــة التى يمكننى اتخاذها ، وعواقب كل منها ، ولو اننى لم افعل هــذا ، فربما ترددت ، واضطربت ، وأقدمت على عمل غــير مدروس توحيه الى اللحظة، ولو اننى لم أفكر فى مشكلتى ، وانته الى قرار حاسم فربما انتابنى القلق طوال ما بعد ظهر الأحد وحرمنى النوم ليلا، وربما ذهبت الى المكتب صباح الاثنين التالى ، وقد ارتسم القلق والانزعاج على وجهى ، وهــذا وحده كان كفيــلا باثارة شكوك الأدميرال اليابانى .

« ولقد اثبتت لى التجربة مرة بعد أخرى ، الفائدة العظمى، لاتخاذ قرار حاسم ، أما التخاذل عن اتخاذ قرار ، والدوران حول المشكلة بلا هــدف ، فهما اللذان يدفعــان الرجال الى الانهيار العصبى ، وقد وجدت أن مقدار خمسين فى المائة من القلقيتلاشى بمجرد أن أصل الى قرار حاسم ، واضح المعالم وان اربعين فى المائة مما تبقى من القلق ، يتلاشى عندما ابدأ بتنفيذ القرار الذى اتخذته . ومن ثم فأنا أطرد تسعين فى المائة من القلق ، باتخاذ هذه الخطوات الأربع .

« ١ — تدوين الأسباب التى أثارت قلقى بوضوح تام .

« ٢ــ تدوين الخطوات التى أستطيع اتخاذها للقضاء على القلق .

« ٣ ــ اتخاذ قرار حاسم .

« ٤ ــ البدء فى تنفيذ القرار الذى توصلت اليه » .

ومستر « جاليه ليتشفورد » هو الآن مدير فرع الشرق الأقصى لشركة « ستار ، وبارك ، وفريمان » بنيويورك ... الا ترى أن طريقته رائعة ؟ ذلك لأنها فعالة ، مجدية ، تعالج المشكلة من أساسها ، وفضلا عن هذا فانها تنتهى بالقاعدة رقم (١) التى لا غناء عنها فى مكافحة القلق وهى : **افعل شيئا للقضاء على القلق . فما لم تفعل شيئا ، فان محاولتك استخلاص الحقائق ليست الا مضيعة للوقت والجهد .**

قال وليم جيمس : « عندما تتوصل الى قرار وتأخذ فى تنفيذه ضع نصب عينيك الحصول على نتيجة ولا تهتم لغير هذا » ويقصد وليم جيمس بهذا انك متى اتخذت قرارا ، فلا تتردد ، ولا تحجم، ولا تراجع خطواتك ، ولا تخلق لنفسك الشكوك والأوهام ، ولا تنظر الى الوراء بل أقدم على تنفيذ قرارك غير هياب ولا وجل.

سألت مرة ، « وايت فيلبس » وهو أحد الرجال البارزين فى صناعة البترول فى أوكلاهوما ، كيف كان ينفذ قرارته فأجاب: لقد وجدت أن الاستمرار فى التفكير فى احدى المشكلات الى ابعد من مدى معين ، يخلق القلق ويولد الاضطراب . فانه يأتى وقت تصبح فيه المداومة على التفكير ضررا يجب اجتنابه ، فمتى اتخذت قرارا اعمد الى تنفيذه دون أن تلتفت الى الوراء » .

لماذا لا تطبق طريقة « جاليه ليتشفورد » فى التو واللحظة على احدى مشكلاتك التى تسبب لك القلق ؟

هذا السؤال رقم (١) : لماذا يساورنى القلق ؟ (ضع

جابتك هنا فى المكان المخصص للاجابة تحت كل سؤال) .

الجـــواب :

السـؤال رقم (٢) : ماذا استطيع ان افعل للقضاء على القلق؟

الجـــواب :

السؤال رقم (٣) : ما هى افضل وسيلة اتخذها للقضاء على القلق ؟

الجـــواب :

السؤال رقم (٤) : متى ابدا بتنفيذ هذه الوسيلة ؟

الجـــواب :

الفصـــل الخامِسُ

كيف تطرد خمسين فى المائة من القلق المتعلق بعملك

اذا كنت من رجال الأعمال ، فلعلك تقول لنفسك فى هـــذه اللحظة : ما اسخف عنوان هذا الفصل ! انى خبرت عملى عشرين عاما او يزيد، فلا شك اننى ادرى الناس بجواب هذا السؤال.. آن مجرد التفكير في أن شخصا غريبا عنى ، وعن عملى ، يريد أن يدلنى على كيفية طرد القلق المتعلقبعملى لهو السخف بعينه!» والحق معك . فقد كنت سوف أشعر . هذا الشعور نفسه لو اننى قرات مثل هذا العنوان منذ بضعة اعوام . فانه يزجى وعودا كبارا ، وما أرخص ازجاء الوعود .

نعم ! أنت محق فى اننى لا اســتطيع معاونتــك على طرد خمسين فى المائة من القلق المتعلق بعملك . فأنت وحــدك الذى يسعك هذا ولكن الذىابتغيه هو ان اطلعك على تجارب أشخاص مثلك ، وسعهم أن يطردوا القلق ، ثم أدع لك الباقى تتكفل به .

ولعلك تذكر اننى فى صفحة ٥٦ من هذا الكتاب ــ اقتبست قول الدكتـــور « الكسيس كاريل » : « ان رجال الأعمال الذين لا يعرفون كيف يكافحون القلق يموتون موتا مبكرا » .. فاذا كان القلق من الخطورة بهذه الدرجة ، افلا تراها صفقة رابحة لك ان انا عاونتك على طرد عشرة فى المائة فقط من القلق الذى يساورك على عملك ؟ .. ولعلك تقول : « نعم » ؟ وحســـنا ! فها انا ذا اريك كيف استطاع أحـــد رجال الأعمـــال أن يوفر على نفسه لا خمسين فى المائة من قلقه فحسب ، بل خمسة وسبعين فى المائة من وقته الثمين أيضا ، الذى كان يضيع ســـدى فى اجتماعات لاتنتهى ، يرجو من ورائها حل المشكلات المتعلقة بعمله .

عرفت هــذا الرجل فى أوهايو ، ويدعى « ليون شيمكن » وهو أحد أصــحاب دار « سيمون وسكستر » للنشر ، بميدان روكفلر رقم ٢٠ بنيويورك .

واليك تفصيل التجربة التى مر بها « ليون شيمكن » كمــا رواها هو :

« دأبت مدى خمسة عشر عاما متواصلة على عقد اجتماعات يومية مع مساعدى لدراسة المشكلات الخاصة بالعمل فاذا احتوتنا غرفة الاجتماع رحنا نتساءل : هل نفعل هذا ؟ أم ترى نفعل ذاك؟ أم يحسن الا نفعل شيئا على الاطــلاق ؟ ولا تلبث أعصابنا أن تتوتر ، ونتململ فى مقاعدنا أو نذرع أرض الغرفة جيئة وذهابا ، وقد يحتدم بيننا الجدل وندور حول الموضــوع المطروح للبحث فى دوائر مغلقة لا منفذ لها ، فاذا أقبل المساء ، وجدت نفسى منهك القوى متعبا . وقد توقعت أن تستمر الحال على هذا المنوال الى نهاية حياتى ، فقد استمرت خمسة عشر عاما ولم يخطر ببالى أن ثمة وسيلة أجدى فى بحث مسائل العمل من هذه ، ولو أن انسانا أخبرنى اذ ذاك أن فى استطاعتى توفير ثلاثة أرباع الوقت الذى أبدده هباء فى هذه الاجتماعات القلقة المتوترة ، فضلا عن ثلاثة أرباع المجهود العصبى الذى أبذله ، لحسبته من أولئــك الواهمين المتفائلين .

ثم تصادف أن عنت لى فكرة ، عمدت الى تطبيقها ، فاذا هى تعــود على بأحسن الثمرات ، فضــلا عن الراحة التى كنت انشدها وأحسبها ضربا من الخيال . ومازلت منذ ثمانية أعوام أطبق هذه الخطة التى كان لها فعل السحر فى انتاجى ، وصحتى، وســعادتى .

« أقول انها كالسحر .. وهى حقا كالسحر وبسيطة للغاية واليك تفصيلها :

« **أولا** : كففت فى التو عن نظام المناقشة الذى كنت التزمه

أثناء اجتماعى مع مساعدى ، ذلك النظام الذى كان يقضى بأن يسرد على المساعدون تفاصيل الأخطاء التى وقعت، أو المشكلات التى صادفتهم ، ثم يسائلوننى : ماذا نحن فاعلون ؟

« ثانيا : وضعت قاعدة جديدة تحتم على كل واحد من مساعدى ، يريد أن يعرض على مشكلة ما ، أن يقدم لى أولا مذكرة تشمل الاجابة عن هذه الأسئلة الأربعة :

« ١ — ما هى المشكلة ؟ (وقد تعودنا ، فيما مضى ، أن ننفق ساعة أو ساعتين فى مناقشة حامية دون أن ندرى ما هى المشكلة على وجه التحديد ! كما اعتدنا ان نحيط المشكلة باللبس والغموض ، دون أن يفكر أحدنا فى تدوين موضوع المشكلة بوضوح) .

« ٢ — ما هو منشأ المشكلة ؟ (واذا أرجع بذاكرتى الى الوراء ، يروعنى ما انفقناه من ساعات دون ان نحاول الوقوف على الأسباب التى دفعت المشكلة الى حيز الوجود) .

« ٣ — ما هى الحلول الممكنة لهذه المشكلة ؟ (وفيما مضى كان كل منا يقترح حلا فيجادله زميل له ، وكثيرا ما كانت الخواطر تهتاج فتنأى بنا عن الحل المقترح ، وفى نهاية الاجتماع لم يكن يخطر لأحد منا أن يدون الحلول التى عرضنا لها أثناء المناقشة) .

« ٤ — ما هو أفضل الحلول ؟ (وقد اعتدت من قبل ، أن أدخل قاعة الاجتماع مع مساعدى الذين أرهقهم القلق ساعات طوال ، فحدا بهم الى الدوران حول المشكلة فى حلقات مفرغة دون أن يستخلصوا حلا محددا) .

« وكان من نتيجة هذه الخطة أن قل التجاء مساعدى لعرض مشكلاتهم على . لماذا ؟ لأنهم ، لكى يجيبوا عن هذه الأسئلة الأربعة ، يجب ان يحصلوا على الحقائق المحيطة بالمشكلة كافة ، فاذا توفرت لهم الحقائق كافة ، فغالبا ما يحل ثلاثة أرباع المشكلة من تلقاء ذاته ، ولم يعد حل الباقى يحتاج الى معاونتى.

وحتى اذا أوجبت الظروف مشاورتى ، فان المناقشة لا تستغرق أكثر من ثلث الوقت الذى كانت تستغرقه فيما قبل ، لأنها — أى المناقشة — تسير فى طريق مرسوم .

« ونحن الآن ، بفضل هـذه الخطة ، نستهلك وقتا ضئيلا فى القلق ومناقشة الأخطاء ، ووقتا طويلا فى « العمل » على تلافى هذه الأخطاء » .

وحدثنى صديقى « فرانك بتجر » وهو أحد المشتغلين ببيع عقود التأمين على الحيـاة ، الناجحة فى هـذا المضمار ، بأنه استطاع ، لا أن يقلل من القلق وحسب ، بل أن يضاعف أرباحه أيضا ، بانتهاجه خطة مماثلة لتلك التى أسـلفنا ذكرها . قال لى مستر بتجر :

« عندما بدأت الاشتغال بالتأمين على الحياة ، كانت تملؤنى حماسة لا حد لها ، وشغف شديد بعملى . ثم حدث أن تجمعت فى طريقى العقبات والصعاب ، فانتابنى اليأس ، وبدأت أحتقر العمل وأفكر فى تركه . وكنت خليقا بأن اتركه فعلا لو لم يخطر لى ذات صباح ، أن أحاول الوصول الى أسـباب القلق الذى يساورنى .

« ١ — سألت نفسى : ما هى المشكلة بالضبط ؟

« واجبت عن هذا السؤال بأن ارباحى من العمل اصبحت لا توازى المجهود الذى ابذله فيه . كنت اذهب الى العميل الذى اريد التأمين على حياته ، فأبدأ الحديث معـه كأحسن ما يكون البدء ، ويسير بنا الحديث مبشرا بالخـير ، حتى اذا حان وقت عقد الصفقة قال لى العميل : « حسنا . دعنى أفكر فى الأمر .. هل لك ان تتفضل بزيارتى فى وقت آخر ؟ » هـذا المجهود الذى يضيع سدى هو منشأ مشكلتى ، وهو الذى يسبب لى اللقق .

« ٢ — وعدت أسأل نفسى : ما هى الحلول الممكنة لهذه المشكلة ؟

« ولكى أجيب عن هذا السؤال، كان لزاما على أن أدرس الحقـائق المحيطة بمشكلتى ، وعمدت الى سجل الصفقات التى اتممتها خلال الاثنى عشر شهرا الماضية ، فاستخرجتها ودرستها، واذ ذاك تكشفت لى حقيقة مدهشة ! وجدت أن ٧٠ فى المـائة من مجموع صفقاتى تمت من المقابلة الأولى ، وأن ٢٣ فى المائة من هذه الصفقات تمت من المقابلة الثانية ، وأن ٧ فى المائة فقط من الصفقات تمت من المقابلة الثالثة .

فما أكثر هذه الصفقات الأخيرة هى التى كانت تثير فى القلق والنقمة على العمل ! أى اننى ـــ بمعنى آخر ـــ سمحت للقلق واليأس ، والتوتر أن تعصف بى من أجل ٧ فى المـائة فقط من مجموع الصفقات التى أعقدها !

« ٣ ـــ ما هو افضل الحلول ؟

« واصبح الجواب عن هذا السؤال هينا : يجب أن امتنع عن الاسترسال فى صـفقة لا تتم بعد المقابلة الثانية . وقد فعلت هذا وانفقت الوقت الذى توفر لى ، كنتيجة لذلك ، فى محاولة ، عقد صفقات جـديدة ، فلم يمض وقت قصـير حتى استطعت أن أضاعف دخلى ، اذ تضاعفت صفقاتى » .

وقد أسـلفت أن مسـتر « فرانك بتجر » هو الآن أحـد الناجحين فى ميدان التأمين على الحياة ، فهو يعقد سنويا عقود تأمين قيمتها مليون دولار . وبرغم هذا ، فقد أشرف فى وقت ما على ترك هذا العمل المربح ،والتسليم بالخيبة والفشل !

وانت تستطيع ، بالاجابة عن هذه الأسئلة الأربعة السالفة الذكر ، أن تحل المشكلات الخاصة بعملك فتوفر على نفسك القلق الناجم عنها . وها انا أعيد عليك التحدى الذى بدات به هـذا الفصل . **« انك تستطيع ان تطرد خمسـين فى المائة من القلق المتعلق بعملك اذا انت اجبت عن هذه الأسئلة الأربعة ، وعملت وفقا لاجابتك »** .

الجزء الثـــانى فى ســـطور

الطرق الأساسية لتحليل القلق

القاعدة رقم (١) :

استخلص الحقائق ، واذكر قول العميد هوكس : « ان نصف القلق فى العالم منشؤه محاولة الوصول الى قرارات حاسمة قبل أن تكتمل لدينا المعلومات الكافية لاتخاذ قرار».

القاعدة رقم (٢) :

بعد أن تزن الحقائق بعناية ، اتخذ قرارا .

القاعدة رقم (٣) :

متى اتخذت قرارا حصيفا ، أقدم على تنفيذه ، ولا تتهيب العواقب .

القاعدة رقم (٤) :

عنـــدما يساورك القلق على عملك ، أجب عن هـــذه الأسئلة الأربعة ودون اباجتك :

(أ) ما هى المشكلة ؟

(ب) ما سبب المشكلة ؟

(جـ) ما هى الحلول المكنة ؟

(د) ما هو أفضل الحلول ؟

تسعة اقتراحات

للحصول على أقصى فائدة من هذا الكتاب

١ — اذا اردت ان تستفيد أقصى الفائدة من هذا الكتاب، فهناك مطلب لا غنى عنه، مطلب هو أهم من كل المبادىء والقواعد الواردة فى الكتاب ، وما لم يتوفر لك هذا المطلب ، فان ألف قاعدة وألف طريقة لن تغنيك شيئا .

فما هو هذا المطلب السحرى ؟ هو : رغبة عميقة راسخة فى الافادة من هذا الكتاب ، وتصميم قوى على قهر القلق والتغلب عليه ، وبدء حياة جديدة سعيدة .

فكيف تنمى فى نفسك هذه الرغبـــة ؟ بأن تذكر نفسك على الدوام بأهمية المبادىء التى يتضمنها هذا الكتاب . صور لنفسك أن العمل بمقتضى هذه المبادىء ســوف يعينك على أن تحيا حياة حافلة سعيدة . قل لنفسك مرارا وتكرارا « ان راحتى الذهنية، وسعادتى ، وصحتى ، وربما دخلى — بمرور الزمن — تعتمــد على تطبيق هذه الحقائق العملية والواردة فى هذا الكتاب » .

٢ — اقرأ كل فصل من هذا الكتاب قراءة اولية سريعــة لتستخلص الفكرة العامة . وقد يغريك هــذا على أن تنتقل الى الفصل الذى يليه ، ولكن لا تفعل .. اللهم الا اذا كنت تقرأ لمجرد التسلية . أما اذا كنتترغب فى أن تقهر القلق وتبدأ الحياة، فاعمد ثانية الى الفصل الذى قرأته سريعا ، وتعمق فى قراءته ، وسوف ترى ، بمرور الوقت أن هذه الطريقة أحفظ للوقت وأجدى نفعا.

٣ — توقف فى خلال قراءتك ، وفكر فيمـــا قرأت . سائل نفسك : متى وأين تطبق كل اقتراح طالعته . فمثل هذه القراءة أفضل وانفع من أن تنطلق كالسهم قارئا الفصل تلو الفصل .

٤ — اقرأ هذا الكتاب وأنت ممسك بقلم أحمر فى يدك ، حتى اذا كان اقتراحا ترى أن فى وسعك تطبيقه ضع علامة أمامه،

اما اذا كان اقتراح ذو اهميــة خاصــة لك ، فارسم تحت كل عبارة من عباراته خطا ، او ضع امامه هذه العلامة (× × ×) . فان وضع العلامات على الكتاب يجعله اكثر نفعا ، واسهل فى المراجعــة .

٥ ــ اعرف رجلا قضى خمسة عشر عاما فى منصب مدير شركة كبرى من شركات التأمين على الحياة ، وهو يقرأ مرة فى كل شهر جميع عقود التأمين التى ابرمتها شركته . لماذا ؟ لأن التجربة علمته ان هذه هى الطريقة التى يستطيع بها ان يحفظفى ذهنه البنود التى يحتويها كل عقد .

وقد انفقت انا سنتين فى تأليف كتاب فى فن الخطابة العامة، وبرغم ذلك ، ارانى مضطرا لمراجعة كتابى من حــين لآخر لكى اتذكر ما كتبته انا نفسى ، فان السرعة التى ننسى بهــا مدهشــة حقــا .

واذن ، فاذا اردت أن تحصل على فائدة حقيقية دائمة من هذا الكتاب فلا تحسب أن مطالعتك اياه مرة واحدة تكفى ، فبعد أن تقــراه بامعان ، ينبغى أن تخصص بضــع ساعات كل شهر لتراجعه مرة أخرى . احتفظ به على مكتبك ليكون فى مواجهتك كل يوم ، تصفحه بقدر ما تستطيع، وتذكر أن تطبيق هذه المبادىء لن يصبح عادة راسخة مالم تداوم على مراجعتهــا وتنفيذها يوما بعد يوم .

٦ ــ قال برناردشو مرة : « اذا علمت انسانا شيئا ، فانه لن يتعلم قط » وبرنارد شو على حق . فان « التعلم »عملية ايجابية لا سلبية ، ونحن نتعلم حــين « نعمل » . ومن ثم فاذا اردت أن تستفيد من القواعد الواردة فى هــذا الكتاب ، فجربها ، واعمل بها ، وطبقها فى كل فرصة تسنح لك ، فاذا لم تفعل هذا، فسوف تنساها سريعا ، فان المعــرفة التى « نستخدمها » هى وحدها التىتعلق بأذهاننا . وانا اعلم انك قد تجد صعوبة فى الداب على تطبيق هذه المبادىء ، أنا أعلم هذا ، لأننى كتبت هذا الكتاب

وبرغم ذلك فكثيرا ما أجد صعوبة فى تطبيق كل ما أوردته فيه ، واذكر دائما ، وأنت تقرأ هـذا الكتاب ، انك لا تجمع المعلومات وحسب ، وانما تكتسب « عادات » جديدة ، بل نمطا جديدا فى الحياة ، وهذا يتطلب وقتا ، ومثابرة . فارجع الى هذا الكتاب ما امكنك ، واعتبره مرشدا عمليا فى التغلب على القلق . وعندما تواجهك مشكلة ، لا تسمح لخواطرك بالاهتياج ، ولا تتبع الخاطر الذى توحيه اليك لحظة انفعال . فهو عادة خاطىء . وانما قلب صفحات هـذا الكتاب ، وراجـع الفقرات التى وضعت أمامها علامات بالقلم الأحمر ، ثم جرب القواعد التى تضمنتها ، وانظر أية الأعاجيب سيحققها لك تطبيق هذه القواعد .

٧ — راهن زوجتك على أن تمنحها « شلنا » فى كل مرة تضبطك فيها متلبسا بخرق أحد المبادىء الواردة فى هذا الكتاب، فان خشيتك من الافلاس سوف تحدو بك الى المحافظة على تطبيق هذه المبادىء ! .

٨ — انظر الفصـل الثانى والعشرين من هذا الكتاب ، واقرأ كيف استطاع « هـ. ب. هاول » و « بنجامين فرانكلين » أن يصححا اخطاءهما . فلماذا لا تستخدم طرق هاول وفرانكلين؟ انك لو فعلت لنميت قدرتك على قهر القلق ، وشحذت رغبتك فى بدء حياة جديدة سعيدة .

٩ — احتفظ بمذكرة تدون فيهـا انتصاراتك الناشئة عن تطبيق هذه المبادىء ، فالاحتفاظ بمثل هذه المذكرت سيحفزك على بذل مجهود أكبر . وما أروع أن تتجلى هذه الانتصارات لعينيك حين ترجع اليها فتستعيد ذكراها فى مقبل أيامك .

اجمـــــال

١ ـ اخلق فى نفســك رغبة قوية فى تطبيق المبادىء الواردة فى هذا الكتاب .

٢ ـ اقرأ كل فصل من هذا الكتاب مرتين قبـــل أن تنتقل الى الفصل الذى يليه .

٣ ـ توقف كثيرا خلال قراءتك ، وســـائل نفسك ، كيف تستطيع تطبيق كل اقتراح صادفته .

٤ ـ ضع علامات بالقلم الأحمر أمام كل فكرة هامة .

٥ ـ راجع هذا الكتاب مرة كل شهر .

٦ ـ طبق هــذه المبادىء فى كل مناسبة تسنح لك ، واعتبر هذا الكتاب مرشدا عمليا يساعدك على حلمشكلاتك اليوميـــة .

٧ ـ اتخذ من تطبيق هــذه المبادىء تسلية .. وذلك بأن تمنح زوجتك ، أو صديقك ، أو قريبك « شلنا » فى كل مرة يضبطك فيها متلبسا بخرق أحد هذه المبادىء .

٨ ـ راجع كل أسبوع مدى التقدم الذى أحرزته .

٩ ـ احتفظ بمذكرة ، تســجل فيها كيف ومتى طبقت المبادىء الواردة فى هذا الكتاب ، والنتيجة التى عادت عليك من تطبيقها .

الجزء الثالث

كيف تحطم عادة القلق قبل أن يحطمك

الفصل السادس

كيف تطرد القلق من ذهنك

لن أنسى تلك القصة التى رواها لى « ماريون دوجلاس »، وليس هذا اسمه فى الواقع ، فقد رجانى لأسباب خاصة ، الا أكشف عن شخصيته ، روى لى « ماريون » كيف طرقت الخطوب باب بيته ، لا مرة واحدة ، بل مرتين ، ففى المرة الأولى فقد ابنته البالغة من العمر خمسة أعوام ، وكان يحبها حبا جما ، فظن هو وزوجته أنهما لن يقويا على احتمال هذه الفجيعة ، ثم لم تمض عشرة أشهر ، حتى رزقا بطفلة أخرى ، ولم تلبث هذه الطفلة أياما خمسة حتى ماتت ! حدثنى هذا الرجل ، فقال : كانت هذه الفجيعة المزدوجة أكثر مما احتمل ، فقد عافت نفسى بعدها الطعام ، ولم أعد أعرف طعم النوم ، وتوترت أعصابى ، وتبددت ثقتى بنفسى ، وتولانى المرض ، وقصدت أخيرا الى الأطباء ، فوصف لى أحدهم دواء منوما ، ووصف لى آخر رحلة لتغيير الجو والمناظر وجربت كلتى الوصفتين ، ولكن بلا طائل ، كنت أحس كأن جسمى يحتويه فكا كماشة حديدية يزدادان انطباقا على مر الأيام ، ذلك هو الم الحزن ، واذا كنت قد جربت الحزن ، فلا شك أنك تعلم ما أعنى .

« ولكننى اليوم أحمد الله على أن وهبنى طفلا هو الآن فى الرابعة من عمره، وطفلى هذا هو الذى هدانى الى حل لمشكلتى، ففى ذات مساء ، كنت جالسا أستعيد أحزانى ، حين سألنى

طفلى : « بابا .. هل صنعت لى قاربا ؟ » ولم أكن فى حال تسمح لى بصنع قارب، أو صنع أى شىء آخر ، ولكن طفلى عنيد لحوح ، فلم يسعنى الا الامتثال ، وانفقت فى صنع هذه اللعبة ثلاث ساعات ، فلما انتهيت أدركت أن هذه الساعات الثلاث التى قضيتها فى صنع القارب ، وكانت الساعات الأولى التى أحسست فيها بالراحة الذهنية التى تولت عنى منذ شهور .

« وقد حفزنى هذا الادراك على أن أخرج من جمودى ، وافكر .. أفكر تفكيرا صحيحا لم أعهده منذ شهور . فقد رأيت أن القلق سرعان ما يتلاشى اذا أنا انشغلت بعمل يتطلب شيئا من الابتكار والتفكير ، وعلى هذا عولت على أن أظل مشغولا بعملى .

« ففى الليلة التالية ، رحت أنتقل فى غرف منزلى ، واضع قائمة بالأشياء التى يلزمها التصليح ، واحتوت القائمة بنودا كثيرة . حقائب ، ونوافذ ، وستائر ، وأقفالا ، وصنابير ولم يمض أسبوعان ، حتى كانت القائمة تحتوى على ٢٤٢ بندا تتطلب الاصلاح .

« وفى خلال العامين الماضيين ، أمكننى اصلاح معظم هذه الأشياء ، وانغمرت — فضلا عن هذا — فى كثير من أوجه النشاط . فأنا الآن أحضر برامج الطلبة البالغين فى نيويورك ليلتين فى الأسبوع ، وانا عضو فى كثير من الجمعيات الخيرية فى بلدتى ، ورئيس مجلس ادارة مدرسة البلدة ، كما أحضر كثيرا من المحاضرات ، واساهم فى جمع التبرعات لجمعية الصليب الأحمر وغيرها ، لقد اصبحت مشغولا لدرجة انه لم يعد لى وقت للقلق » .

« لا وقت للقلق » ! هذا بالضبط ما قاله « ونستون تشرشل » عندما كان يشتغل ثمانى عشرة ساعة فى اليوم ، حين كانت الحرب فى ذروتها ، ولما سئل هل هو قلق من جراء

المسئوليات الضخمة الملقاة على عاتقه ؟ قال : « انى مشغول جدا ، الى حد انه ليس لدى وقت للقلق » .

وكذلك كان « تشارلس كترنج » عندما بدأ يخترع محركا ذاتيا للسيارة ، كان مستر كترنج وكيلا لشركة « جنرال موتورز» مشرفا على الأبحاث التى تجريها هذه الشركة ، لكنه مر عليه وقت عرف فيه الفقر المدقع ، حتى انه أنشأ معمله فى جانب من حظيرة ، واقترض من زوجته الفين وخمسمائة دولار ، لكى يزود معمله بالعدد والآلات — وكانت زوجته قد جمعت هذا المبلغ من اعطاء دروس خصوصية فى العزف على البيانو — كما اقترض خمسمائة دولار ، على حساب « بوليصة » التأمين على حياته، وقد سألت زوجته يوما هل كانت تشعر بالقلق فى ذلك الوقت ، فأجابتنى : « نعم ، كنت قلقة ، حتى اننى لم أستطع النوم ، ولكن مستر كترنج لم يكن كذلك ، فقد كان مستغرقا فى عمله ، فلم يجد لديه وقتا يسمح له بالقلق ! » .

وقد تحدث العالم الفرنسى « باستير » عن « السلام الذى يجده المرء بين جدران المكتبات . أو المعامل » فلماذا يا ترى يجد المرء السلام هناك ؟ لأن الناس فى المكتبات أو فى المعامل مستغرقون عادة فى المطالعة أو البحث ، فلا يتوفر لديهم وقت للقلق .

ان الباحثين والعلماء ، قلما يصابون بانهيار عصبى ، فليس فى وقتهم متسع لهذا « الترف ! » .

فما هو السبب فى ان أمرا هينا كالاستغراق فى العمل يطرد القلق ؟ السبب فى ذلك هو أحد القوانين الأساسية التى اكتشفها علم النفس ، وهذا هو : « من المحال لأى ذهن بشرى ، مهما يكن خارقا ، أن ينشغل بأكثر من أمر واحد فى وقت واحد » .

الا تصدق هذا ؟ حسن ، دعنا نجرى تجربة ... اضطجع الآن فى مقعدك ، واغمض عينيك ! وحاول أن تتخيل تمثال الحرية

وان تتصور فى الوقت نفسه شيئا مما أعددته للتنفيذ غدا ... هيا ... جرب ! .

الآن عرفت ... اليس كذلك ؟ ان فى استطاعتك ان تتخيل كلا من الشيئين على حدة ، اما الاثنين ، فى وقت واحد ، فلا ! وكذلك فى الاحساسات ، فليس فى استطاعتنا أن نتحمس لعمل مثير ، ونحس بالقلق فى الوقت نفسه ، فان واحدا من هذين الاحساسين يطرد الآخر ، وهذا القانون البسيط هو الذى مكن الأطباء النفسيين الملحقين بالجيش من أن يأتونا بالعجائب خلال الحرب ، عندما كان يأتى اليهم الجنود الذين ضعضعت الحرب أعصابهم ، كانوا يقولون : « اشغلوهم بعمل ما » .

فاذا انشغل هؤلاء المصدومون بأحد أوجه النشاط ، كصيد السمك ، أو لعب الكرة ، أو التصوير ، أو رى الحدائق ، او الرقص لم يعد انشغالهم يسمح لهم بالتفكير فيما مر بهم من تجارب مروعة Cccupational herapy .

وقد أصبح اسم « العلاج الوظيفى

يطلق الآن على ذلك الفرع من الطب النفسى الذى يصف « الوظيفة » أو العمل كعلاج . وليس هذا العلاج بجديد ، فأطباء الاغريق القدماء ، كانوا ينصحون به قبل الميلاد بخمسمائة عام. وكانت جماعة « الكويكرز » تستخدمه فى « فيلادلفيا » فى عهد « بنجامين فرانكلين » . وقد ذهل أحد زائرى مصح الكويكرز فى عام ١٧٧٤ ، عندما شاهد مرضى العقول منهمكين فى غزل الكتان فقد ظن أن هؤلاء المساكين يستغلون اسوأ استغلال ، الى ان شرح له « الكويكرز » أن مرضاهم يبرأون من عللهم عندما ينهمكون فى العمل ، فهو يهدىء أعصابهم ، ويسكن خواطرهم.

ان أى طبيب نفسانى يسعه أن يؤكد لك أن الانشغال بالعمل هو أعظم مسكن للأعصاب الثائرة . وقد أدرك الشاعر « هنرى لونجفيلو » هذه الحقيقة عندما فقد زوجته الشابة ،

كانت زوجته تصهر ذات يوم ، قطعة من شمع الأختام على لهب شمعة ، فامتدت النار الى ثيابهـا ، وسمع لونجفيلو صراخها ، وحاول أن يتدارك الكارثة . ولكن زوجته ماتت متأثرة بحروقها. ولبث لونجفيلو زمنا معذبا بذكرى هذا الحادث الأليم ، حتى أوشك على الجنون ، ولكن أطفاله الثلاثة — لحسن حظه — كانوا فى حاجة الى رعايته، فاضطر ، برغم حزنه الى أن يتعهدهم بالرعاية ، وان يكون لهم أبا وأما فى آن معا .. وكان يصطحبهم الى النزهة ، ويقص عليهم الأقاصيص ويشاطرهم لعبهم ، حتى لقد خلد صحبته لهم فى قصيدة عنوانها « ساعة الأطفال » كما أنه عكف على ترجمة بعض مؤلفات الشاعر « دانتى » فاستطاعت هذه الأعمال مجتمعة ، أن تشغله عن نفسه ، وحفظت له سلامة عقله . لقد قال الشاعر « تنيسون » عندما فقد أعز صديق له « وهو آرثرهالام » « على أن أنشغل عن نفسى بالعمل ، والا هلكت أسى » .

اننا لا نحس للقلق اثرا ، عندما نعكف على أعمالنا ، ولكن ساعات الفراغ التى تعقب العمل ، هى اخطر الساعات طرا . فعندما يتاح لنا وقت الفراغ لا تلبث شياطين القلق أن تهاجمنا وهناك فقط نتساءل : الا ترانا نحصل من الحياة على ما نبتغى ؟ الا ترى ان كان « الرئيس » يعنى شيئا بملاحظته التى أبداها اليوم ؟ أترانا مرضى ؟ أترى شعرنا فى سبيله الى السقوط ؟

ان اذهاننا توشك أن تكون خاوية عندما نفرغ من أعمالنا، وكل طالب درس الطبيعة يعلم أن « الطبيعة تمقت الفراغ » ، وكتجربة على ذلك . احدث ثقبا فى مصباح كهربائى مفرغ من الهواء ، وسوف ترى أن الطبيعة عندئذ ستدفع بالهواء الى داخل المصباح ليملأ الفراغ ، كذلك تسرع الطبيعة الى ملء العقل الفارغ ، بماذا ؟ بالعواطف والاحساسات غالبا ، لماذا ؟ لأن الاحساسات مثل القلق . والخوف ، والمقت ، والغيرة والحسد مدفوعة بقوة بدائية عنيفة ، متوارثة من عهد الغابة ، وهذه

الاحساسات من القوة بحيث يسعها أن تبدد السلام من عقولنا.

وقد عبر عن هذه الظاهرة الأستاذ « جيمس مرسل »أستاذ التربية بكلية المعلمين بجامعة كولومبيا ، بقوله : « ان القلق يكون اقرب الى الاستحواذ عليك . لا فى أوقات عملك وانما فى وقت فراغك من العمل ، فالخيال اذ ذاك يجمح ما شاء له الجموح ، ويقلب كل صنوف الاحتمالات ، ويعيد ذكرى كل هفوة ارتكبتها ، فى هذا الوقت ، يكون عقلك اشبه بسيارة متدفقة فى الطريق بغير سائق وبغير ركاب ، فهى تمرق هنا وهناك كالسهم، وتهدد بالانفجار ، وتدمير نفسها فى اية لحظة وعلاج هذه الحالة سهل ميسور ، هو أن تنشغل بعمل انشائى مجد » وانت لاتحتاج لأن تكون أستاذا فى الجامعة ، لكى تدرك هذه الحقيقة ، وتعمل بمقتضاها ! .

* * *

قابلت فى خلال الحرب سيدة من اهل شيكاغو ، فروت لى كيف أدركت بنفسها هذه الحقيقة ، وكيف اهتدت الى علاج القلق بالاستغراق فى العمل . لقيت هذه السيدة وزوجها فى عربة الأكل بالقطار المسافر من نيويورك الى ميسورى . فأخبرانى أن ولدهما الوحيد التحق بالجيش فى اليوم التالى لهجوم اليابانيين على « بيرل هاربور » ، وقالت السيدة : انها أوشكت على تحطيم صحتها من جراء قلقها على ابنها الوحيد اذ لم تكن تفتأ تتساءل : أين هو ؟ أهو آمن ؟ أم هو مشترك فى المعركة ؟ أتراه يجرح ؟ أو يقتل؟ وسألتها كيف تغلبت على هذا القلق . فأجابت « انشغلت بالعمل » ، ثم استطردت فقالت انها سرحت خادمتها، وأخذت تدير بنفسها شئون البيت .. ولكن هذا لم يجدها كثيرا. قالت لى : « لقد وجدت أن تدبير شئون البيت بطريقة آلية ، لم يحل بينى وبين مواصلة التفكير والقلق ، ومن ثم ادركت اننى فى حاجة الى نوع آخر من العمل غير تسوية المخادع ، وغسل الأوانى : نوع آخر من العمل يشغل جسدى وعقلى طوال

ســاعات النهار . ولهذا اشتغلت فى أحــد المتاجر الكبيرة ، وقد وفى هذا العمل بالمطلوب ، اذ القيت نفسى وســط حلقة متصلة من النشاط : فالعملاء يتزاحمون أمامى ، سائلين عن الأثمان ، والأحجام والالوان ، فلم تتح لى ثانية واحدة افكر فيها فى شىء آخر سوى عملى . وعندما يأتى الليل ، لم اكن افكر الا فى راحة قدمى اللتين كلتا من الوقوف طوال اليوم . فما ان اتناول عشائى حتى أستغرق فى نوم عميق » .

لقد اكتشفت هذه السيدة ما كان يعنيه « جون كوبر بويز » عندما قال فى كتابه « فن نسيان الشقاء » (١) : « ان احساسا بالاطمئنان والســلام النفسى ، والاسترخاء الهنىء ، يطغى على أعصاب الانسان عندما يستغرق فى العمل » .

أفضت الى أخــيرا « أوزا جونسون » الرحالة الذائعــة الصيت ، بالطريقة التى تخلصت بها من القلق . وقد تكون قرأت قصةحياة هذه الرحالة فى كتابها « تزوجت المغــامرة » (٢) . تزوجت هذه المرأة من « مارتن جونسن » وهى فى السادســة عشرة من عمرها ، وانتقل بها زوجها فى تلك السن المبكرة ، من بلدة « كابوت » بولاية كانســاس ، الى أدغال جزيرة بورنيو ، وأمضى الزوجان فى الترحال ربع قرن من الزمان ، قدما فى خلاله للسينما صورا من الحياة البدائية ، التى توشك على الانقراض فى آسيا ، وافريقيا . وعندما عادا الى أمريكامنذ تسع سنوات ، اعتزما أن يتجولا فى أنحائها لالقاء سلسلة من المحاضرات ، ولعرض أفلامهما الشهيرة ، واستقلا الطائرة من « دنفر » متجهين الى الساحل ، فما لبثت الطائرة أن ارتطمت بقمة جبل فسقطت ، وقتل مارتن جونسون لساعته ، وقدر الأطباء أن « أوزا » لن تفــارق

Jhon Cowper Poyws ; "The Art of Forgetting (1) the Uopleasant"

Osa Johnson ; "Imarried Adventure" (2)

مخدعها بعــد ذلك اليوم ، ولكنهم لم يكونوا يعرفــون « أوزا جونسون » ! فما مضت ثلاثة اشهر ، حتى كانت أوزا تجلس فى مقعد ذى عجلات . وتلقى محاضرة فى جمع غفير من المستمعين ! بل انها القت فى ذلك الموسم أكثر من مائة محاضرة ، القتها كلهــا وهى جالسة فى مقعدها ذى العجلات . وعندما سألتها لم فعلت هــذا ؟ اجابت : « لقــد فعلته لكى لا أتيح لنفسى وقتــا للأسف او القلق » .

لقد اكتشفت « أوزا جونسون » الحقيقة التى تغنى بها الشاعر تنيسون قبل ذلك بقرن تقريبا : « علىَ أن انشغل عن نفسى بالعمل والا هلكت اسى » .

واكتشف الأميرال بيرد « هذه الحقيقة نفســها » ، عندما عاش خمسة أشهر وحيدا فى خيمة مطمورة فى ثلوج القطب الجنوبى . قضى الأميرال بيرد خمسة أشهر هناك وحيدا ، ليس معه ، ولا على بعد مائة ميل منه ، مخلوق من أى نوع كان . وكان الزمهرير من الشدة بحيث كان « بيرد » يسمع صوت أنفاسه وهى تتجمــد عندما تتخطفها الرياح الباردة ! .

وقد روى الأميرال بيرد فى كتابه « وحيد » (١) قصة هذه الشهور الخمسة التى قضــاها فى القطب الجنوبى ، حيث كانت الأيام والليالى فى الظلام ســواء .

هناك كان على « بيرد » أن يشغل نفسه بعمل ، ليحتفظ بسلامة عقله . وقد قال فى كتابه :

« فى الليل قبل أن اطفى المصباح لآوى الى فراشى ، كنت أصور لنفسى عمل الغد . كنت اقدم الغد ، فى خيالى ، الى ســاعات ، فأخصص منها — مثلا — ساعتين للعمل فى انشاء نفق ، وســاعة لازالة الثلوج المتراكمة ، وساعة لتركيب ارفف للكتب فى عــربة

(1) Adniral Byrd 'Alonc"

الطعام ، وساعتين لاصلاح « الزحافة » ، وبهذا كنت أقطع الوقت، وأحسب أنه لولا هذه الطريقة أو ما يشابهما ، لأصبحت أيامى بلا هدف ولا غاية ، ولو انها اصبحت بلا هدف ولا غاية ، لانتهت بهلاك محقق » فاذا عاودك القلق فاذكر أن فى استطاعتك استخدام « العمل » كدواء له ، وقد أكد هذه الحقيقة الدكتور « ريتشارد كابوت » أستاذ الطب بجامعة هارفارد سابقا ، فى كتابه « ما الذى يعيش به البشر » (١) اذ قال : لقد أسعدنى ، كطبيب ، أن ارى «العمل» يشفى أشخاصا كثيرين ، كانوا يعانون «الشلل الزوجى» الذى أعقبته احساسات : الشك ، والتردد ، والخوف ، المسيطرة عليهم » .

اذا لم تنشغل أنت وأنا بالعمل ، واذا جلسنا فى أماكننا واطلقنا العنان لخواطرنا ، فسوف يتبدد نشاطها هباء ، وتتوزع ارادتنا.

اعرف رجل اعمال فى نيويورك ، كافح القلق ، بأن اسلم نفسه للعمل . حتى لم تبق لديه دقيقة واحدة من الفراغ . هذا الرجل هو « ترمير لونجمان » وهو طالب فى برامجى للطلبة البالغين ، وكان حديثه الذى أدلى به أمام الفصل . عن طريقة قهر القلق ، اخاذا ، رائعا . حتى اننى دعوته للعشاء معى ، عقب انتهاء الفصل ، وجلسنا نتحدث فى مطعم ، حتى جاوزت الساعة منتصف الليل .

وهذه هى قصته التى رواها لى : « منذ ثمانية عشر عاما ، اجتاحنى قلق شديد أعقبه ارق مضن حتى خشيت ان أصاب بانهيار عصبى . ولهذا القلق سبب ، فقد كنت أشتغل أمين خزينة فى «شركة كراون» لعصير الفاكهة ، القائمة فى برودواى رقم ٤٤٨، بنيويورك . وكنا نستثمر نصف مليون دولار فى تعبئة عصير الفراولة فى صفائح سعة الواحدة منها جالون ، وانقضت عشرون سنة ونحن نبيع هذه الجالونات من عصير الفراولة للمحلات

---

(1) Dr. Richard C. Cabot; "What MenLive By"

الكبرى التى تصنع «الجيلاتى» . وفجأة ، توقفت مبيعاتنا ، لأن المحلات الكبرى اصبحت تنتج بنفسها عصير الفراولة ، فاستغنت بهذا عنا ، ووجدنا أنفسنا اذ ذاك أمام كارثة مالية محققة : فقد اقترضنا من المصارف ٣٥٠٫٠٠٠ دولار ، ولم يعد فى امكاننا تسديد القرض ، فلم يكن عجبا أن ينتابنى القلق .

« وهرعت الى بلدة « واطسونفيل » بكاليفورنيا ، حيث توجد مصانعنا ، وحاولت أن اقنع الرئيس بأن الأحوال تغيرت ، وأننا نواجه خرابا محققا ، لكنه رفض أن ينصت لى ، وصب اللوم كله على فرع الشركة فى نيويورك ، حيث اعمل ، متهما اياه بأنه يتهاون فى بذل المجهود .

« ولكنى داومت على محاولة اقناعه ، حتى اقتنع أخيرا ، ووافق على أن نعكف عن تعبئة عصير الفراولة ، وان نحاول تصريف ما لدينا من الفراولة الطازجة فى سوق سان فرانسيسكو . وبهذا اوشكت مشكلتنا أن تحل ، وكنت خليقا اذ ذاك ، أن أكف عن القلق ولكنى لم أستطع ، ان القلق عادة ، ولقد اعتدت عليه ، فما ان عدت الى نيويورك حتى بدأت اقلق على كل شىء ، على «الكريز» الذى نبتاعه من ايطاليا ، « والخوخ » الذى نستورده من هاواى ، وهكذا .. ولم اعد استطيع النوم ، وتخيلت أننى — كما أسلفت — على وشك انهيار عصبى . وفى غمرة يأسى ، اهتديت الى خطة جديدة فى الحياة ، شفتنى من الأرق ، ووضعت حدا للقلق الذى يساورنى . لقد انشغلت بمسائل تتطلب تضافر جميع حواسى ، حتى لم يعد لى وقت للقلق . كنت من قبل أشتغل سبع ساعات فى اليوم . فأصبحت اشتغل خمس عشرة ساعة أو أكثر ، صرت اذهب الى المكتب فى الثامنة صباحا ، فلا اغادره الا بعد منتصف الليل . فاذا عدت الى بيتى ، بعد منتصف الليل ، يكون التعب قد أنهكنى ، فأنطرح على الفراش ، واستغرق فى النوم لساعتى ، وواظبت على هذا البرنامج قرابة ثلاثة أشهر ، وسعنى خلالها أن أحطم عادة القلق ، فعدت الى الحياة العادية ، واصبحت اشتغل

سبع ساعات فى اليوم كما كنت افعل من قبل . حدثت هذه الواقعة منذ ثمانية عشر عاما ، ومنذ ذلك الحين لم يعاودنى الأرق قط ».

ولقد لخص جورج برناردشو هذه الحقيقة تلخيصا رائعا حين قال : « ان سر الاحساس بالتعاسة هو أن يتوفر لديك الوقت لتتساءل أسعيد انت ام لا » ؟ ومن ثم يجب الا تتوقف لتفكر أسعيد أنت أم لا ؟ . انفخ فى يديك ، واعمد الى العمل فى غير ابطاء ، هنالك سجرى الدم فى عروقك ، وسيمتلىء ذهنك بالأفكار الانشائية ، ثم ما هو الا وقت قصير ، حتى يطرد هذا الموقف الايجابى القلق من ذهنك .

« انشغل ، والبث منشغلا » هذا هو ارخص اصناف الدواء الموجودة فى العالم ، واعظمها أثرا ..

واذن فلكى تحطم عادة القلق ، اليك القاعدة رقم ١ :

استغرق فى العمل .. اذا ساورك القلق ، انشغل عنه بالعمل، والا هلكت يأسا وأسى .

الفصل السابع

لا تدع الهوام تغلبك على أمرك

هاهى ذى قصة مأساة ، اعتقد اننى لن انساها ما حييت ، وقد رواها لى بطلها « روبرت مور » من أهالى مدينة «ميلوود» بولاية « نيوجرسى » ، قال : « تلقيت أعظم درس فى حياتى على عمق ٢٧٦ قدما تحت سطح الماء ، تجاه ساحل الهند الصينية . كان ذلك عام ١٩٤٥ وأنا يومئذ واحد من ثمانية وثمانين بحارا يعملون على ظهر الغواصة « بايا » . وفى ذات يوم أنبأنا جهاز « الرادار » أن قافلة يابانية تتقدم نحونا ، فما ان اقترب مطلع الفجر ، طفت غواصتنا على السطح استعدادا للهجوم . ولاحت لنا خلال « البيريسكوب » مدمرتان يابانيتان وسفينة لبث الألغام. فأطلقنا ثلاثة «طوربيدات» على احدى المدمرتين ، ولكننا أخطأناها. وبينما نحن نتأهب لمعاودة الكرة ، اذا بالسفينة الثالثة تستدير فى مواجهتنا ، وتقترب منا سريعا — فقد استكشفت طائرة يابانية موقعنا ، وابلغته الى السفينة اليابانية باللاسلكى — فهبطنا بالغواصة على عمق ١٥٠ قدما ، واوقفنا المحركات حتى لا يسمع للغواصة صوت .

« وبعد ثلاث دقائق فتحت أبواب الجحيم ! فقد انفجرت حولنا ست من قنابل الأعماق ، دفعتنا بقوة الضغط الى عمق ٢٧٦ قدما! وتولانا الفزع . فان أشد ما تخشاه الغواصات هو أن يهاجمها العدو وهى فى عمق يقل عن الف قدم ، فما بالك وقد كنا فى عمق يزيد قليلا على ربع هذه المسافة ؟ ان هذا هو الهلاك المحقق ! ولبثت سفينة الألغام اليابانية خمس عشرة ساعة متواصلة تقذفنا بقنابل الأعماق . وكنت فى حال سيئة من الفزع حتى عز على التنفس ، وظللت أقول لنفسى : « هذا هو الموت المحقق ! هذا والله هو الموت ! » . واذ أوقفنا محركات الغواصة وعددها ، ارتفعت الحرارة بداخلها الى أكثر من مائة درجة ، وبرغم ذلك

فقد كنت أحس أننى أتجمد من فرط الخوف ، حتى اننى ارتديت فوق ثيابى الثقيلة ، معطفا من الفراء ، وبقيت بعد ذلك أرتعش من البرد ، وجعلت أسنانى تصطك ، والعرق البارد يتفصد من جسمى. وظلت غواصتنا هدفا للقنابل خمس عشرة ساعة متوالية ، ثم كف الهجوم فجأة . ويبدو أن ناثرة الألغام استنفدت ذخيرتها من قنابل الأعماق ، فمضت فى طريقها لا تلوى على شىء . ولقد خلت هذه الساعات الخمس عشرة كأنها خمسة عشر مليونا من السنين! ففى خلالها انبسطت صفحة حياتى جميعا أمام ناظرى بما حفلت به من توافه وأحداث عظام ، ساورنى القلق بسببها زمنا ! فقد كنت قبل التحاقى بالبحرية موظفا بأحد المصارف ، وكنت دائم الشكوى من ساعات العمل الطويلة ، ومن المرتب البسيط الذى أتقاضاه ، ومن أملى الضئيل فى الترقية . كما كنت دائم الحنق ، اننى لا أمتلك بيتا ولا سيارة ولا مال لى أبتاع به لزوجتى ثيابا انيقة ، وكنت دائم القلق بسبب جرح ظاهر ملحوظ فى جبينى سببه لى حادث سيارة . الا ما اضخم ما كان يلوح هذا القلق منذ سنين مضت ! وما اسخف ما بدا لى وقنابل الأعماق تتهددنى بالموت تحت لجج الماء ! لقد قطعت على نفسى عهدا فى ذلك اليوم . لئن قدر لى ان ارى الشمس مرة اخرى فلن اعود الى القلق كائنا ما كان السبب ! ولقد تعلمت من تلك المحنة — والحق اقول — اكثر مما تعلمت من الكتب طيلة السنوات الأربع ، التى قضيتها بجامعة « سيرا كيوز » .

اننا غالبا ما نواجه كوارث الحياة وأحداثها فى شجاعة نادرة وصبر جميل ، ثم ندع التوافه بعد ذلك تغلبنا على أمرنا ! ومن أمثلة ذلك ، ما قاله « صمويل بيبز » فى مذكراته عن « سير هارى فان » حين سيق لتنفيذ حكم الاعدام فيه بضرب عنقه ، فانه لم يلتمس العفو ، ولم يطلب الرحمة ، وانما التمس من الجلاد الا يضرب بسيفه موضعا فى عنقه كان يؤلمه ! .

ومن أمثلة ذلك أيضا ما قاله « الأدميرال بيرد » فى مذكراته عن

ليالى الظلام والزمهرير التى قضاها فى القطب الجنوبى ، فقد ذكر أن رجاله كانوا منشغلين بتوافه الأمور عن الكوارث المحدقة بهم، وهم يعيشون فى جو درجة حرارته ثمانون تحت الصفر ! قال بيرد: « كان رجالى يختصمون اذا اعتدى أحدهم على المساحة المخصصة لنوم زميل لهم واستقطع لنفسه منها بضع بوصات ! وثمة رجل من رجالى كانت نفسه تعاف الطعام فى مواجهة زميل له اعتاد أن يمضغ « اللقمة » ثمان وعشرين مرة قبـــل أن يزدردها ! ولكننى لا أعجب لهذا ، فأنا أعلم أن صغائر كهذه فى معسكر قطبى يسعها أن تسلب عقول أشد الناس تدربا على الطاعة والنظام » .

وكان يحق للأدميرال بيرد ، أن يضيف الى قوله ذاك ، « ان مثل هذه الصغائر ، فى الحياة الزوجية أيضا ، يسعها أن تسلب الأزواج والزوجات عقولهم ، وتسبب نصف أوجاع القلب التى يعانيها العالم » .. أو هذا على الأقل ما يقوله الخبراء ، ومنهم القاضى « جوزيف ساباث » من قضاة شيكاغو ، فقد صرح ، بعدأن فصل فى أكثر من أربعين ألف قضية طلاق بقوله : « انك لتجـــدن التوافه دائما وراء كل شقاء يصيب الأزواج ! » وقال « فرانك هوجان » ، النائب العام فى نيويورك : « ان نصف القضايا التى تعرض على محاكم الجنايات تقوم على أسباب تافهة ، كجـــدال ينشب بين أفراد عائلة ، أو اهانة عابرة ، أو كلمة جارحة ، أو اشارة نابية ، أمثال هذه الأسباب التافهة ، هى التى تؤدى الى جرائم القتل . ان الأقلين منا قساة بطبيعتهـــم ، ولكن تـــوالى الضربات الواهنة الموجهة الى ذواتنا ، وكبريائنا ، وكرامتنا ، هو الذى يسبب نصف ما يعانيه العالم من مشكلات » .

حدثتنى « اليانور روزفلت » بأنها حينما تزوجت من الرئيس الراحل ، فرانكلين روزفلت » انتابها القلق يوما . لأن طاهيتها لم تتقن طهو الطعام ، ثم استطردت مسز روزفلت تقول : « ولو أن أمرا كهذا وقع لى الآن ، لهززت كتفى استخفافا ، ونسيت الأمر تماما بعد ساعات » . هذا لعمرى هو تصرف الناضجين .

وقد حدث أن دعيت وزوجتى ، لتناول العشاء فى منزل صديق لنا بشيكاغو . وبينما المضيف يوزع علينا الطعام ارتكب خطأ هينا لم الاحظه . وما كنت لأحفل به لو انى لاحظته ، ولكن زوجته انطلقت أمامنا تعنفه ، قائلة : « انظر يا جون ماذا فعلت ! انك لا تجيد تقطيع اللحم ابدا ؟ ! » ثم التفتت الينا قائلة : « انه يخطىء دائما ، وعلتهانه لا يحاول اصلاح خطئه قط ! » وقد يكون هذا الزوج أخطأ فعلا ، ولكنى اكبرته ، لأنه استطاع أن يعايش زوجته هذه عشرين عاما ! فانى والحق يقال : أفضل ان اتناول شطيرة رخيصة فى جو يسوده الهدوء والوئام ، على أن أتعشى ببطة دسمة ، واستمع فى الوقت نفسه الى مثل هذا التعنيف .

وبعد هذا الحادث ، دعت زوجتى لفيفا من الأصدقاء للعشاء فى منزلنا ، فلما اقترب موعد وصول الضيوف ، وجدت زوجتى أن ثمة ثلاث مناشف ، لا يتفق لونها مع سائر المناشف الموضوعة على المائدة. وقدحدثتنى زوجتى بعد انفضاض الحفلة قائلة :«لقد هرعت توا الى الطاهية ، فوجدت أنها احتجزت المناشف لغسلها. وكان الضيوف قد توافدوا ، ولم يكن فى الوسع تغيير المناشف ، فأحسست كأنما أوشك أن انفجر من الغيظ . وجعلت أقول لنفسى خانقة : « لماذا تفسد على هفوة كهذه صفاء أمسية بأكملها ! » وفجأة أحسست كأن هاتفا يهتف بى : « ولماذا ادع هفوة كهذه تفسد على صفاء الأمسية ؟ » وقصدت من فورى الى المائدة ، وقد اعتزمت أن أستمتع بالأمسية ، كما اشتهى ، ولقد فضلت أن يظن بى الضيوف الاهمال والتواكل فى تدبير شئون البيت ، على أن يظنوا بى سوء الطبع ، وحدة المزاج ، وعلى أية حال . فان احدا من المدعوين لم يلحظ شذوذ المناشف الثلاث » .

هناك حكمة « قانونية » تقول : « ان القانون لا يشغل نفسه بالتوافه » وكذلك لا ينبغى لانسان أن يشغل نفسه بالتوافه ، هذا اذا أراد السلام والاطمئنان .

ان أشد ما نحتاجه للتغلب على هذه التوافه ، هو أن نحول

مجرى اهتمامنا وجهة أخرى ، وقد ضرب صديقى « هومر كروى » مؤلف كتاب « كان عليهم أن يشاهدوا باريس » (١) وكثير غيره ، مثلا رائعا فى كيفية تطبيق هذا القول .. كان ، وهو عاكف على تأليف احدى قصصه ، يضيق أشد الضيق بصوت مولد الحرارة، فى شقته بنيويورك ، فقد كان هذا المولد يئز أزيزا متصلا ، يعكر صفوه ، ويشتت أفكاره ، قال لى هومر كروى : « ثم حدث أن ذهبت مع بعض أصحابى الى معسكر خلوى ، وعندما سمعت صوت أغصان الشجر الجافة وهى تتلظى بالنار التى اشعلناها تجاه المعسكر ، الفيت شبها كبيرا بين صوتها ، وصوت مولد الحرارة فى منزلى ، غير انى أحببت صوت الأغصان وهى تحترق، ولم اتبرم به ، فما لبثت أن وجدتنى اتساءل ، لماذا أحب هذا الصوت ، واكره صوت مولد الحرارة ، مع تشابه الصوتين ؟ ومن ثم عولت على أن أروض سمعى على احتمال أزيز المولد ، ولم تمض أيام على هذا العزم ، حتى نسيت اطلاقا ، أن على قيد خطوات من مكتبى مولدا للحرارة يئز أزيزا متصلا ! » .

وهكذا الحال فى كل ما يسبب لنا القلق : اذا نحن بالغنا فى الاهتمام به على تفاهته ، انتابنا القلق من أجله ، واذا نحن لم نعره اهتماما نسيناه اطلاقا .

قال دزرائيلى مرة : « ان الحياة أقصر من أن نقصرها » ، وكتب « أندريه موروا » فى مجلة « هذا الاسبوع Thisweek » يقول : « لقد ساعدتنى هذه الكلمات (يقصد كلمات دزرائيلى) على احتمال أكثر من تجربة مريرة . فنحن غالبا ما نسمح لأنفسنا بالثورة من أجل توافه ما كان أخلقنا بتجاهلها . ها نحن ، فى هذا العالم ، لا يزيد عمر أحد منا عن بضع عشرات من السنين ، وبرغم ذلك ، فاننا ننفق ساعات العمر التى لا يمكن تعويضها فى اجترار احزان خليقة بأن يطويها النسيان . الا فلنملأ حياتنا بالنشاط

(1) Homer Groy "They Had To See Paris"

الثمر ، والأفكار المجدية ، والأعمال النافعة ، فان الحياة أقصر من أن نقصرها » .

ولقد نسي الكاتب « رديارد كبلنج » على المعيته وحصافته ، هذه الحقيقة : وهى أن الحياة أقصر من أن نقصرها ، فماذا كانت النتيجة ؟ لقد خاض مع شقيق زوجته غمار أعظم قضية عرفها تاريخ المحاكم فى « فيرمونت » ، وسجلها كبلنج فى كتابه « اقطاع فيرمونت » (١) .

وهذا هو موضوع القضية : تزوج كبلنج فتاة من « فيرمونت » تدعى « كارولين بالستر » ، وشيد فى بلدة « براتلبورو » بيتا جميلا عاش فيه هو وزوجته ، مؤملا أن يقضى بقية حياته فى دعة وهدوء. وكان « بيتى بالستر » ، شقيق زوجته صديقا مخلصا له . ثم حدث أن اشترى كبلنج أرضا من أراضى « بالستر » ، وقبل اشتراطه بأن يكون له حق حصاد البرسيم منها فى كل موسم . وفى ذات يوم اكتشف بالستر أن كبلنج اقتطع جانبا من الحقل ، وغرس فيه الزهور ، فغلى الدم فى عروقه لهذا الأمر الذى اعتبره اعتداء على حقوقه ، ووجه الى كبلنج عبارات قاسية مهينة ، فرد عليه كبلنج بمثلها . وما لبثت السحب أن تجهمت فوق سماء فيرمونت بأسرها. واعقب ذلك بأيام ، أن كان كبلنج مارا بدراجته ، فاعترضه شقيق زوجته فى عربة يجرها زوج من الخيل ، فسقط كبلنج عن دراجته! .. ولم يملك كبلنج ، حينئذ — وهو الذى كتب ذات مرة يقول : « احتفظ انت بثباتك فى الوقت الذى يفقد فيه كل من حولك ثباتهم» — لم يملك الا أن يفقد ثباته ، واقسم ليرسلن شقيق زوجته الى السجن ! وقامت بين الاثنين قضية كان لها دوى عظيم فى فيرمونت، وتقاطر الصحفيون من سائر مدن أمريكا الى هذه القرية ، وأذاعوا أنباء القضية على العالم اجمع ، واضطر كبلنج آخر الأمر الى ان

---

(1) Budyard Kipling ; "Vermont Feud"

يرحل هو وزوجته عن أمريكا وأن يغتربا بقية حياتهما : كل هـذا بسبب كومة من البرسيم ، يغلها جانب صغير من حقل حوله كبلنج الى بستان للزهور .

الا ما أشد حاجتنا الى أن نمتثل بقول الفيلسوف « بيركلير » الذى عاش قبل أربعة وعشرين قرنا : « هيا ننهض أيها الاخوان، فقد طال جلوسنا فوق التوافه ! » .

واليك قصة من أطرف القصص التى رواها الدكتور « هارى ايمرسون فوزدريك » . قصة معركة كسبتها تارة وخسرتها طورا ماردة من مردة الغابة . كتب ايمرسون يقول :

« على سفح جبل « لونجز بيك » فى « كولورادوا » ، تجثم أطلال شجرة ضخمة ، يقول رجال الطبيعة انها نبتت منذ أربعمائة عام خلت وأنها كانت شجيرة عندما وضع « خريستوفر كولمبس » قدميه ببلدة « سان سلفادور » ولقد أصيبت هذه الشجرة الماردة فى خلال حياتها الطويلة بالصواعق أربع عشرة مرة ، ومرت بها العواصف العاتية أربعمائة عام متوالية ، ولكن الشجرة الماردة صمدت فى مكانها . ثم حدث أخيرا أن زحفت جيوش الهوام والحشرات على هذه الشجرة الضخمة ، فما زالت بها ، تنخرها وتقرضها ، حتى سوتها بسطح الأرض ، وجعلتها اثرا بعد عين ! لقد امحت ماردة الغابة التى لم تؤثر فيها الصواعق ، ولم تنل منها الأنواء ، امحت من الوجود ، بفعل هوام من الضآلة بحيث يستطيع الانسان أن يسحق احداها بين سبابته وابهامه ! » .

ألا ترانا مثل هذه الشجرة ؟ أو لسنا ننجو بشتى السبل من الأعاصير ، والبروق ، والرعود التى تعترض حياتنا ، ثم نسلم بعد ذلك قلوبنا لهوام القلق تلتهمها التهاما ، تلك الهوام التى يتسنى سحق الواحدة منها بين السبابة والابهام ؟ ! .

منذ بضع سنوات خلت ، اخترقت غابة « تيتون » الجاثمة فى مقاطعة « ويومنج » مع صديقى « تشارلس سايفرد » ، المشرف

الأعلى على غابات « ويومنج » ، وبعض أصدقائه . كنا جميعا فى طريقنا الى ضيعة « جون روكفلر » القائمة وسط الغابة . وحدث أن ضلت السيارة التى استقلها ، الطريق ، ووصلت الى مدخل الضيعة بعد ساعة من وصول السيارات التى تقل بقية الأصدقاء. وكان « مستر سايفرد » يحمل مفتاح باب الضيعة ، فانتظرنى هناك أمام الباب معرضا نفسه للفح الشمس ، ولدغات البعوض المنتشر فى الغابة ، ساعة بأكملها ريثما وصلت . كان البعوض المنتشر فى تلك البقعة يكفى لأن يخرج أشد الناس صبرا عن طوره ، أو يدفعه الى الجنون . ولكنه لم يخرج « مستر سايفرد » عن طوره . فبينما كان ينتظر وصولى ، اقتطع غصنا من احدى الشجيرات ، وشذبه، وجعل منه مزمارا . وعندما وصلت .. كيف ترانى وجدته ؟ أكان يكافح البعوض فى ضجر وضيق ؟ كلا ! بل وجدته ينفخ فى المزمار الذى صنعه بنفسه ، ولقد أخذت منه هذا المزمار ، واحتفظت به تذكارا لرجل يعرف كيف يضع التوافه فى مكانها الصحيح !

واذن ، فلكى تحطم عادة القلق ، قبل ان تحطمك ، اليك القاعدة رقم ٢ .

لا تسمح لنفسك بالثورة من أجل التوافه ، وتذكر ان الحياة اقصر من أن نقصرها .

الفصل الثامن

استعن بالاحصاءات على طرد القلق

أذكر عن أيام طفولتى أننى كنت أعاون والدتى يوما فى حرث الأرض توطئة لزرعها ، وفجأة انخرطت فى البكاء . ودهشت والدتى وسألتنى : « ما الذى يبكيك يا ديل ؟ » فأجبتها وأنا أنشج: « اننى أخشى أن أدفن حيا ! » .

نعم ! لقد كانت شتى صنوف المخاوف تتملكنى فى تلك الأيام . فعندما كانت تهب العواصف ، أو ترعد السماء ، كان القلق يجتاحنى خشية أن يقتلنى البرق أو الصواعق . وعندما كانت تعترض والدى الأزمات المالية ، كنت أخشى الا يصبح لدينا مانقتات به ، وكنت أخشى أن أذهب الى الجحيم عندما أموت ، أو أن يبتر صبى كبير — كان يلعب معى — أذنى كما كان يهددنى دائما ، أو أن تضحك منى الفتيات عندما أرفع قبعتى لأحييهن ، أو الا ترضى احداهن فى المستقبل بأن تتخذنى زوجا ، كما كان القلق يساورنى خشية الا أجد ما أقوله لزوجتى بعد أن يعقد قرانى عليها مباشرة! كنت أرى بعين خيالى أن زواجى قد عقد فى كنيسة ريفية ، ثم ركبت وزوجتى عربة تزينها الزهور فى طريقنا الى مزرعة والدى فى ميسورى . وعند هذه النقطة كنت أتساءل قلقا : كيف ترى أبقى الحديث موصولا بينى وبين عروسى طوال الطريق ؟ وأذكر أننى تضيت ذات يوم ساعة بأكملها وأنا أفكر فى حل لهذه المشكلة العويصة بينما أنا أسير وراء المحراث ! .

واذ توالت الأعوام ، وجدت أن تسعا وتسعين فى المائة من المخاوف التى ساورنى القلق بشأنها لم تحدث قط . مثال ذلك أننى — كما أسلفت — كنت أرتعد خوفا من أن تقتلنى الصاعقة ، ولكنى أعلم الآن أن احتمال اصابتى بالصاعقة بعيد كل البعد ، فان واحدا

من كل ثلاثمائة وخمسين الف نسمة يصاب بالصاعقة فى كل عام كما يقول « مجلس التأمين » ! اما خوفى من أن ادفن حيا فليس بأقل سخفا ، ولا احسب أن أكثر من واحد فى كل عشرة ملايين نسمة يدفن حيا ! ومع ذلك فقد بكيت يوما خوفا من أن أدفن حيا ! والثابت أن شخصا واحدا من كل ثمانية أشخاص يموت بالسرطان، ولو اننى كنت اريد شيئا أخشاه وأقلق من أجله ، لتخيرت السرطان مثلا موضوعا للقلق ، بدلا من الصاعقة أو الدفن حيا ! .

صحيح اننى اتكلم عن مخاوف الطفولة والصبا ، ولكن كثيرا من الرجال الناضجين لا تقل مخاوفهم سخفا عن مخاوف الأطفال والصبيان . وفى استطاعتنا انت وانا أن نتخلص من تسعة أعشار مخاوفنا فى التو واللحظة ، لو أننا كففنا عن اجترار خواطرنا واستمنا بالحقائق الثابتة ، بالاحصاءات ، لنرى ان كان هناك حقا ما يبرر مخاوفنا .

ان « شركة لويدز » بلندن ، وهى اشهر شركات التأمين فى العالم ، قد ربحت ملايين الجنيهات من استغلالها ميل الانسان الى التوجس من ابعد الأمور احتمالا ! ان هذه الشركة «تراهن» الناس على أن الكوارث التى يساورهم القلق من أجلها ، ويخشون حدوثها ، لن تحدث أبدا ، وان كانت بالطبع لا تسمى هذه العملية « مراهنة » وانما تسميها « تأمينا » ! ولقد ظلت هذه الشركة تواصل عملها بنجاح مدى مائتى عام ، وما لم تتغير طباع الناس، فستواصل هذه الشركة نجاحها لمدى خمسين قرنا مقبلة ، وستظل تقبل التأمين على الأحذية ، والسفن ، وشمع الأختام ضد الكوارث، لأن هذه الكوارث التى يتوقعها الناس ، لا تحدث بالكثرة التى يتصورونها . ولو اننا رجعنا الى « قانون المعدلات » لأذهلتنا الحقيقة ، فمثلا ، لو قيل لى اننى فى خلال السنوات الخمس المقبلة، سأخوض غمار معركة طاحنة كمعركة « جتيسبرج » — فى الحرب الأهلية — لتولانى الفزع ، ولأسرعت اؤمن على حياتى ، واكتب وصيتى ، واضع امورى الدنيوية فى نصابها ، وأقول لنفسى :

« من المحتمل الا اخرج حيا من هذه المعركة ، فدعنى أفيد أقصى ما أستطيع الافادة منه فى هذه السنوات القليلة الباقية من عمرى»
ولو اننا تحرينا الحقائق لوجدنا أن الحياة العادية ــ بعيدا عن ميادين القتال فيم بين سن الخمسين والخامسة والخمسين لا تقل تعرضا لخطر الموت عن حياة أولئك الذين يخوضون معركة دموية كمعركة جتيسبرج .

والذى أعنيه هو هذا : تدل الاحصاءات الدقيقة على أن نسبة الوفيات فى الألف ، فيما بين سن الخمسين والخامسة والخمسين، تعادل نسبة القتلى فى معركة جتيسبرج البالغ عددهم ...ر١٦٣!.
ولقد كتبت عدة فصول من هــذا الكتاب فى بيت صــديقى « جيمس سمبسون » القائم على شاطىء بحيرة « بو » فى جبــال كندا ، وهناك التقيت بمستر « هربرت سالنجر » وزوجته ، وهما من أهالى سان فرانسيسكو . وقد لاح لى أن « مسز سالنجر »، لما تمتاز به من رزانة واتزان ــ لم تعهد القلق فى حياتها اطلاقا . وبينما نحن جلوس ذات أمسية أمام المدفأة التى تتأجج فيها النيران سألتها هل عانت القلق يوما ، فأجابت : « تســألنى هل عانيت القلق ؟ يالله ! لقد كاد القلق يحطم حياتى ! فقد عشت أحد عشر عاما فى جحيم صنعته لنفسى بيدى . كنت حادة الطبــع سريعة الغضب ، أعيش فى توتر متصل ، واعتدت ان أستقل «الأوتوبيس» مرة فى الأسبوع من « سانت ماتيو » حيث أقيم ، الى « ســان فرنسيسكو » لأشترى ما يلزمنى ، فلا يتركنى القلق حتى فى خلال هذه الرحلة القصيرة .

« كنت اقول لنفسى : متى غادرت البيت ، ربما نسيت التيــار الكهربائى ساريا . ربما اشتعلت النار فى المنزل . ربما هربت الخادمة وتركت اولادى وحدهم . ربما خرج الأولاد بدراجاتهم الى عرض الشارع فدهمتهم سيارة مسرعة . ويتملكنى القلق المروع ، فأتصبب عرقا ، وأسرع الى محطة « الأوتوبيس » فأستقله واقفل

راجعة الى منزلى لأسكن ثائرة النفس ، فلا عجب أن انتهى زواجى الأول الى الاخفاق .

« وزوجى الحالى محام ... وهو رجل هادىء الطبع ، قوى الأعصاب يمتاز بعقلية تحليلية لا يدركه القلق من بين يديه ولا من خلفه ، فكان اذا رآنى مهتاجة ، قلقة ، يقول لى : هدئى روعك ، ولننظر فى الأمر معا .. ما الذى يقلقك ؟ فلنرى ان كانت الحقائق الثابتة تبرر مخاوفك .

« اذكر ، مثلا ، اننا كنا نقود السيارة فى طريق لم يمهد ، من مدينة « البوكيرك » فى « نيومكسيكو » . قاصدين الى مغـاور مدينة « كارلسباد » حين دهمتنا عاصفة هوجاء ..

« وأخذت السيارة تترنح ، وتتخبط ، وافلت زمامها من أيدينا، فأيقنت ساعتئذ ان السيارة لا بد منزلقة بنا الى أحد الخنادق التى تقوم على جانبى الطريق ، ولكن زوجى جعل يكرر قوله : اننى اقود السيارة ببطء شديد ، فعلى افتراض انها زلقت بنا السيارة الى أحد الخنادق ، فلن يصيبنا مكروه يذكر ، هكذا تقول الحقائق الثابتة . فبعث هدوءه الثقة والاطمئنان فى نفسى . وكففت عن القلق .

وفى ذات صيف ، خرجنا الى رحلة خلوية فى وادى « توكرين » بجبال كندا ونصبنا خيامنا ذات مساء ، على ارتفاع سـبعة آلاف قدم فوق سطح البحر ، وفجأة دهمتنا عاصفة شديدة هددت باقتلاع خيامنا وتمزيقها شر تمزيق . وكانت الخيام مشدودة بحبال سميكة الى أوتاد خشبية ، فتوقعت بين لحظة وأخرى ان ارى الخيمة طائرة فى الهواء ، وتولانى الفزع . ولكن زوجى قال لى فى هدوء : اسمعى يا عزيزتى : ان أدلاءنا فى هذه المرحلة هم أتباع « بروستر » . وهم خبراء فى مهنتهم ، وقد ظلوا ينصبون الخيام فى هذه البقاع مدى ستين عاما . وقد نصبت خيمتنا هذه من قبل مرات فى هذه البقعة بالذات . ولم تقتلعها العاصفة مرة واحدة ، ولو قدر واقتلعتها العاصفة الآن فانه يمكننا الاحتماء بخيمة اخرى ، فهدئى من روعك

اذن ، اذ ان الحقائق الثابتة لا توجب القلق ، وقد هدأت روعى فعلا ، ونمت ليلتئذ نوما عميقا .

« ومنذ سنوات قليلة خلت ، اكتسح وباء « شلل الأطفال » البقعة التى نسكنها من كاليفورنيا . وفيما سبق ، كان مثل هذا الوباء خليقا بأن يدفعنى الى أحضان الهستيريا ، ولكن زوجى اقنعنى بأن أستمسك بالهدوء ، بعد ان اتخذنا الاحتياطات الممكنة كافة ، فأبعدنا أطفالنا عن مواطن الازدحام ، وسألنا « مجلس الصحة » عن مدى خطورة هذا الوباء ، فقال لنا ان أسوأ أوبئة شلل الأطفال التى شهدتها كاليفورنيا ، لم يصب فيه الا ١٨٣٥ طفلا ، فى ولاية كاليفورنيا جميعها ، وان معدل الاصابات فى وباء كهذا يتراوح ما بين مائتين الى ثلاثمائة طفل ، ومع ان هذه الأرقام تدعو للأسف، الا أننا احسسنا ان اطفالنا فى مأمن نسبى من الاصابة بالمرض .

« وكان زوجى لا يفتأ يقول لى كلما اعترانى القلق : هيا نختبر الحقائق الثابتة بالاحصاء » . وهذه العبارة هى التى خلصتنى من تسعة أعشار القلق الذى كنت أعانيه ، وجعلت الأعوام الاثنين والعشرين الماضية من اجمل أيام حياتى وأسعدها » .

قال الجنرال « جورج كروك » — ولعله أعظم مقاتلى الهنود فى تاريخ أمريكا كلها — قال فى تاريخه لحياته : « ان معظم القلق ، والاهتياج ، والمخاوف ، التى يعانيها الهنود ، مرجعها الى تخيلاتهم، لا الى أساس من الحقيقة » .

وروى لى « جيم جرانت » ، صاحب شركة « جيمس جرانت للتوزيع » بمدينة نيويورك — التى تصدر عصير العنب ، والبرتقال المعبأ ، الى سائر انحاء الولايات المتحدة الأمريكية عن طريق السكك الحديدية — انه اعتاد أن يعذب نفسه بمثل هذه الأفكار : «ماذا تكون الحال لو تصادم القطار الذى ينقل بضاعتى ؟ ماذا تكون الحال ، لو انهار جسر السكة الحديدية ، فى اللحظة التى يمر القطار

فيها من فوقه ؟ » . نعم ان البضاعة مؤمن عليها ، ولكنه كان يخشى ان لم تصل الفاكهة فى الوقت المحدد ، أن يقف عملاءه ، ولقد أجهد نفسه من فرط القلق ، حتى خيل اليه أنه أصيب بقرحة فى المعدة ، فذهب الى الطبيب ، فأكد له أنه سليم معافى الا من توتر أعصابه ، قال لى مستر جرانت : « لقد أحسست عندما قال لى الطبيب هذا ، كأنما أخرجت من الظلمات الى النور ، وأخذت أسائل نفسى : كم عربة من عربات البضاعة ، استخدمت فى خلال العام المنصرم ؟ وكان الجواب : نعم . هو خمس وعشرين الف عربة ، وعدت أسائل نفسى كم من هذه العربات تحطم لسبب من الأسباب ؟ وكان الجواب : خمس عربات . حينئذ : قلت لنفسى : خمس عربات من خمس وعشرين الف عربة ! أتدرى ما معنى هذا ؟ معناه أن معدل نسبة الخسارة هو عربة واحدة من كل خمس آلاف عربة ، فعلام القلق اذن ؟ » .

« ولكنى سرعان ما قلت لنفسى : قد ينقض جسر على القطار! وهنا سألت نفسى : كم من العربات خسرت لأن جسرا انقض عليها ؟ وكان الجواب : لا شيء . وهنا قلت أخاطب نفسى : ألست من الحمق بحيث أقلق من أجل جسر لم ينقض قط ! » .

واستطرد جيم جرانت يقول لى : عندما نظرت الى الأمر بهذا المنظار ، شعرت بسخف القلق الذى يساورنى .. ومنذ ذلك اليوم أبطلت القلق ، فلم أعد أشكو من معدتى قط » .

عندما كان « آل سميث » محافظا لنيويورك . سمعته يرد على هجمات خصومه السياسيين بقوله : « تعالوا نختبر الحقائق الثابتة » ثم يشفع ذلك بسرد الحقائق .

ففى المرة القادمة التى يساورك القلق فيها ، افعل ما كان يفعله « آل سميث » .. اختبر الحقائق ، وانظر ان كان هناك ما يبرر قلقك ومخاوفك ، وهذا ما فعله « فردريك ماهلستيد » . وهذه هى قصته كما رواها لأحد طلبتى :

« فى شهر يونيه عام ١٩٤٤ — أثناء الحرب الأخيرة — كنت أتخذ مكانى فى خندق ضيق . على ساحل « نورمانديا » . كنت جنديا ملحقا بالسرية رقم ٩٩٩ بسلاح الاشارة ، وكنا قد فرغنا توا من حفر خنادقنا توطئة للاحتماء بها من الاغارات الجــوية ، وما كدت أرقد فى ذلك الخندق الضيق ، وهو لا يعدو حفرة ضيقة مستطيلة تشبه القبر من عدة وجوه ، حتى قلت لنفسى : « ياالله ! ما أشبه هذا الخندق بالقبر ! » .. وعندما خيم الظلام ، ورقدت لأنام ، أحسست فعلا كأننى فى جوف قبر ، فلم أتمالك أن قلت لنفسى : « من يدرى ! لعل هذا هو قبرى فعلا ! » . ولم تلبث الطائرات الألمــانية قاذفات القنابل . أن وفدت على مواقعنا ، وكانت الساعة قد شارفت الحادية عشرة ليلا ، وبدأت قنابلها تنفجر من حولنا كالجحيم ، فتجمدت أطرافى من فرط الرعب ، ولم أستطع أن أذوق للنوم طعما فى خلال الليلتين الأوليين .. وما حلت الليلة الرابعة أو الخامسة ، حتى كنت حطاما بشريا ، وادركت اذ ذاك أننى ما لم أصنع شيئا ، فمصيرى حتما الى الجنون ، وهنــالك ذكرت نفسى بأن خمس ليال سويا قد انقضت ، وما زلت حيــا أرزق ، بل ما زال أفراد سريتنا جميعا أحياء يرزقون ، اثنــان فقط جرحى ، لا من القنابل ، بل من شظايا مدافعنا المضــادة للطــائرات . ومن ثم اعتزمت أن أتوسل الى الكف عن القلق ، بالانشغال بعمل مجد ، فأخذت أبنى سقفا خشــبيا فوق خندقى ليحمينى من شظايا القنابل والمدافع . وسرحت ببصرى فى المساحة الشاسعة التى تحتلها وحدتنا ، فاقنعت بأننى لا أقتل حتى يصاب خندقى هذا باصابة مباشرة ، واحتمال اصابته باصابة مباشرة كنسبة واحد الى عشرة آلاف . فلم تمض ليلتان منذ أخذت أفكر على هذا النحو ، حتى هدأت ثائرتى ، واستطعت أن أنام حتى فى خلال الاغارات الجوية » .

وقد توصلت البحرية الأمريكية بالاحصــاءات لتقوية الروح المعنوية بين رجالها . حدثنى بحار مسرح من الخدمة انه حين الحق

مع زملائه ، باحدى السفن ناقلات البترول ، انتابه القلق الشديد، فقد أيقن هو وزملاؤه أنه متى أصيبت ناقلة سفينتهم بتوربيد انفجرت وتمزقت أشلاء ، فلا يبقى على ظهرها أحد من الأحياء . ولكن البحرية الأمريكية كان لها رأى آخر ! فقد أصدرت قيادة الأسطول منشورا يتضمن أرقاما ثابتة ، وحقائق واقعة ، جاء فيها ان منكل مائة ناقلة بترول أصيبت ناقلة بالتوريد، وأن أربعينناقلة فقط غرقت ، ومن هذه الناقلات الأربعين ، خمس فقط غرقت فى مدة تقل عن عشر دقائق ، وهذه فسحة من الوقت كافية لمغادرة السفينة ، والاحماء بقوارب النجاة ، فهل ترى هذا الاحصاء رفع من الروح المعنوية بين بحارة ناقلات البترول ؟ نعم ! قال لى هذا البحار ، ويدعى « مينيسوتا » : « لقد استشعرنا جميعا الهدوء والاطمئنان بعد اطلاعنا على هذا المنشور . فقد أدركنا أن أمامنا فرصة للنجاة ، وأن من المحتمل جدا أن نظل احياء حتى لو أصيبت سفينتنا بالتوربيد » .

واذن فلكى تحطم عادة القلق ، قبل أن تحطمك ، **اليك القاعدة رقم ٣ :**

استعن على طرد القلق بالاحصاءات والحقائق الثابتة سائل نفسك : هل هناك ما يبرر مخاوفى ؟ وما مدى احتمال حدوث ما اخشاه ؟ .

الفصل التاسع

ارض بما ليس منه بد

كنت العب ذات يوم — وانا طفل — مع بعض رفاقى فى أعلى غرفة مقامة فوق سطح بيت ريفى ، فى بلدتى بشمال شرقى «ميسورى» . وبينما كنت أتدلى من فوق الغرفة هابطا . الى السطح ، وضعت قدمى على مصراع نافذة ، ثم قفزت هابطا . وكان فى اصبع يدى اليسرى خاتم ، تعلق بدون ان ادرى بمسمار ناتىء ، فما ان قفزت حتى اطاح المسمار باصبعى ، فصرخت وقد تملكنى الرعب ، وايقنت اننى ميت لا محالة ! فلما شفيت ذهب عنى هذا الرعب ، ولم يعاودنى قط . وقد تمر على الآن اشهر متتابعة دون ان اذكر ان لى اربع اصابع فى يدى اليسرى بدلا من خمس !.

ومنذ بضع سنوات ، التقيت برجل عهد اليه بالاشراف على مصعد لنقل البضائع ، فى مبنى احدى الشركات بنيويورك . ولاحظت ان يده اليسرى مبتورة من الرسغ ، فسألته ، هل يقلقه فقد يده ، فقال : « كلا . انى لا اعير هذا الأمر اهتماما ، ولست متزوجا ، ومن ثم فانى لا اذكر فقد يدى الا حين اضطر الى رتق ثيابى ! » .

ان السرعة التى نتقبل بها الأمر الواقع — اذا لم يكن منه بد — مدهشة حقا . فاننا لا نلبث حتى نوطد أنفسنا على الرضى بهذا الأمر الواقع . ثم ننساه اطلاقا .

وكثيرا ما تخطر بذهنى عبارة منقوشة على واجة كاتدرائية فى

امستردام بهولندا ، ترجع الى القرن الخامس عشر ، وهذه العبارة هى : « أرض بما ليس منه بد » (١) .

ولسوف تعترضنى وتعترضك ، على مر الأعوام مواقف لا تسر، ولكنها محتومة ليس منها بد . ولى ، ولك فى هذه الحالة الخيار : فاما أن نسلم بما ليس منه بد ، واما أن نحطم حياتنا بالثورة والنقمة ، وننتهى فى الأغلب الى انهيار عصبى .

واليك نصيحة حكيمة ينصح بها احد الفلاسفة الذين اعجب بهم ، وهو « وليم جيمس » : « كن مستعدا لتقبل ما ليس منه بد ، فان تقبل الأمر الواقع خطوة اولى نحو التغلب على ما يكتنف هذا الأمر الواقع من صعاب » .

وقد تكشفت جدوى هذه النصيحة الحميمة للسيدة «اليزابيث كونلى» — القاطنة فى الشارع الرابع والتسعين بمدينة «بورتلاند»، بولاية «اوريجون» ولكن بعد لأى . وهاهو ذا نص خطاب أرسلته اخيرا :

« فى اليوم الذى كانت امريكا تحتفل فيه بانتصار جيوشها فى شمال أفريقيا ، تسلمت برقية من « ادارة الحرب » تقول فيها ان ابن أختى — وكان عزيزا على ، حبيبا الى قلبى — يعد مفقودا وبعد قليل تسلمت برقية اخرى تقول انه قتل .

« وهدنى الحزن وضعضع كيانى . فقد كنت حتى ذلك الوقت اعتقد ان الأقدار تجاملنى وتترفق بى . كنت ازاول عملا احبه واركز فيه نشاطى ، وقد ساهمت فى تربية ابن اختى هذا وتنشئته، وبدا لى كأنما هذا الشاب قد جمع فى شخصه كل ما يتسم به الشباب من كريم الخلق ، وجميل الطبع ، وطيب العنصر . وقد أثمرت تربيتى له ورعايتى اياه ، كما يثمر الدقيق النقى الذى تحسن

---

(١) للصوفية تعبير أروع من هذا المعنى وهو . « اذا لم يكن ما تريد . فأرد ما يكون » وللرسول صلى الله عليه وسلم فى حديث قريب المعنى وهو « ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس » .

عجنه وطهوه « كعكة » حسنة المنظر لذيذة الطعم ، ثم تسلمت هاتين البرقيتين المشئومتين ، فانهارت سعادتى ، واحسست كأن لم يعد هنـــاك ما يســـتحق أن أعيش لأجله ، فأهملت عملى ، وأصدقائى ، ولم أعد أحس للحياة طعما غير طعم العلقم .

« ورحت أتساءل على غير هدى : لمـــاذا قدر لابن أختى الحبيب ان يموت ؟ ! لماذا قدر له أن يذوى كالوردة المتفتحة تهصرها يد غشوم ، قبل أن تنعم بالربيع ؟ ! ولم أستطع أن أجد لهذا تعليلا ، ولم أستطع أن أصبر على هذا الرزء على علاته ، وكان حزنى من الطغيان بحيث عولت على أن انقطع عن عملى ، واتفرغ لدموعى ولوعتى .

« وعكفت على جمع حاجياتى من مكتبى ، فى مقر عملى ، توطئة لاعتزال العمل . وبينما أنا افعل ذلك ، اذ عثرت على خطاب كنت قد نسيت أمره تماما .. خطاب من ابن أختى كان أرسله الى يعزينى فى موت أمى منذ بضع سنوات خلت ، وقد جاء فى هـــذا الخطاب قوله : « أعلم انك ستفتقدين أمك ، ولكنى أعلم كذلك انك ستقبلين هذا القضاء المحتوم ، وتواصلين الحياة ، أعلم هـــذا من فلسفتك فى الحياة التى لقنتنى اياها . ولست أنسى مهما نأيت عنك . انك عودتنى الابتسام فى مواجهة كل أمر جلل ، وعلمتنى الرضى بما ليس من وقوعه بد » .

« وقد قرأت هذا الخطاب مثنى وثلاث .. وفى كل مرة كان يلوح لى كأن ابن أختى يخاطبنى ، ويقرأ على ما كتبه ، ثم خيل الى كأنه يقول : « لماذا لاتعملين بما علمتنى اياه ؟ أخفى أحزانك تحت قناع من الابتسام ، وواصلى الحياة ، فلا بد مما ليس منه بد » .

« ومن ثم واصلت عملى ، وعدلت عن اعتزاله ، وكففت عن اجترار الحزن ، والمرارة ، والثورة . ورحت أردد لنفسى : «قضى الأمر وليس الى تغييره من سبيل » . والتمست السلوى فى كتابة رسائل للجنود فى الميدان اشجعهم وارفه عنهم ، والتحقت بمدرسة

ليلية انشد آفاقا جديدة ، وأصدقاء جددا . واذ أرى مدى التحول الذى طرأ على حياتى أكاد لا أصدق ! فانى لم أعد أندب الماضى ، وأتحسر على ما فات ، بل غدوت أعيش اليوم لليوم وحده ، بغض النظر عن الماضى أو المستقبل ، تماما كما أرادنى ابن أختى أن أفعل ، وما كان ليطرأ علي هذا التحول لو لم اسلم بما ليس منه بد».

لقد وعت « اليزابيث كونلى » الدرس الذى سوف يعيه كل منا، عاجلا أو آجلا ، الا وهو « الرضا بما ليس منه بد » . ولا تحسب أن هذا الدرس ميسور الاستيعاب ، فان الملوك على عروشهم لا يفتأون يراجعونه ويذاكرونه ، عسى أن يستقر فى أذهانهم . كان الملك جورج الخامس يحتفظ فى غرفة مكتبه بقصر بكنجهام بلوحة مكتوب عليها « أريد أن أتعلم كيف أكف عن البكاء من أجل الحصول على القمر ، ومن أجل ما فات ! » .

وشبيه بهذا ما كتبه الفيلسوف شوبنهور : « ان التسليم بالأمر الواقع ذخيرة لا غناء عنها فى رحلتنا عبر الحياة » .

ان الظروف ليست هى التى تمنحنا السعادة ، أو تسلبنا اياها، وانما كيفية استجابتنا لهذه الظروف هى التى تقرر مصيرنا . واذا كان السيد المسيح قال « ان ملكوت السموات فيكم » ، فان ملكوت الجحيم فى داخليتنا أيضا ! .

ان فى استطاعتنا جميعا أن نتحمل المصاعب والمآسى . بل ان نتغلب عليها . فاننا نملك من القوى الذاتية ما ينصرنا على هذه المصائب ، لو اننا أحسنا استخدام تلك القوى .

كان « بوت تاركينجتون » يقول دائما : « ان فى استطاعتى أن احتمل كل ما تبتلينى به الحياة من المصائب ، الا شيئا واحدا هو العمى » .. ثم فى ذات يوم ، وكان « تاركينجتون » قد بلغ الستين من عمره ، أطرق برأسه يتأمل السجادة المفروشة على أرض غرفته ، فشاهد ألوانها وزخارفها تختلط بعضها ببعض فلا يستبين منها شيئا .. وقصد الى أخصائى فى أمراض العيون ،

وهناك فوجىء بالحقيقة البشعة : انه على وشك أن يصاب بالعمى ، فقد فقدت احدى عينيه البصر ، والثانية بسبيل أن تتبعها ! .. اذن فقد تحقق الشيء الوحيد الذى كان يرهبه ، ويقول انه لا يقوى على احتماله ! .

فترى كيف استجاب تاركينجتون لهذه المصيبة الفادحة ، هل أحس أن نهايته قد حانت ؟ كلا ! فانه ، لفرط دهشته قد أحس بالسرور ! نعم السرور ! بل اتخذ من هذه المصيبة مسلاة ، ومادة للدعاية . فعندما كان يمر اهل بيته امامه كان يراهم كأطياف غير متميزة او كتبضات من ضباب .. فاذا مر أمام عينيه أضخم هذه الأطياف هتف متهللا : « مرحبا ! هذا ولا شك هو جدى ! اننى أعجب الى اين يقصد فى هذا الصباح الجميل ! »

فبالله كيف يقهر القدر روحا مثل هذه ؟ الجواب : ان روحا كهذه لا تقهر ! ثم عندما خيم الظلام الشامل على بصر تاركينجتون قال : « لقد وجدت أن فى وسع الانسان أن يتقبل العمى ، كما يتقبل اية مصيبة سواه ، ولو اننى فقدت حواسى الخمس جميعا، لواصلت الحياة داخل عقلى ، فنحن انما نرى بالعقل ونحيا به، سواء أدركنا هذه الحقيقة ، أم لم ندركها » .

وقد أجرى تاركينجتون اثنتى عشرة عملية جراحية فى عينيه فى خلال سنة واحدة ، على امل أن يرتد اليه بصره . وفى كل هذه العمليات الجراحية كان يخدر تخديرا «موضعيا» . فهل تراه ثار ونقم ؟ كلا ! فقد كان يعلم أن هذا شيئا لا بد منه ، وكل ما فعله ليخفف عن نفسه عناء الألم هو أن يشارك الآخرين آلامهم ومتاعبهم ، فقد رفض أن يوضع فى غرفة مستقلة بالمستشفى ، واصر على ان يرقد فى «عنبر» فسيح يحفل بالمرضى اللذين يعانون مثل آلامه ، وجعل يحاول التخفيف عنهم . وعندما كانت تجرى له احدى العمليات الجراحية ، كان يحاول أن يصور لنفسه — وهو يشعر بكل ما يجرى فى عينيه — كم هو محظوظ ! كان يقول:

« ما أعجب الطب الذى وسعه أن يعالج شيئا دقيقا حساسا كالعين الانسانية ! » .

وخليق بالانسان العادى أن تتهاوى أعصابه لو أنه امتثل لاثنتى عشرة عملية جراحية فى عينيه ، فضلا عن فقد البصر ولكن تاركينجتون كان يقول : « اننى لا استبدل بهذه التجربة التى مرت بى تجربة أسعد وأهنأ » . فقد علمته هذه التجربة أنه ليس ثمة شىء يصعب على الانسان احتماله والصبر عليه ، وعلمته — كما علمت الشاعر الانجليزى الأعمى « جون ملتون » من قبله — أنه ليس من البؤس أن تكون فاقد البصر ، ولكن من البؤس أن لا تستطيع احتمال فقد البصر .

قالت « مرجريت فوللر » ، احدى زعيمات النهضة النسائية فى « نيوانجلند » ، ذات مرة : « اننى أرضى بكل صروف الدهر ». وعندما سمع الكاتب الانجليزى «توماس كارليل» بقولها هذا ، علق عليه قائلا : « ان هذا والله هو خير ما تفعله » نعم ! ووالله ان خيرما نفعله انت وانا هو أن نمتثل لما ليس منه بد .

ومهما عارضنا واعترضنا ، وثرنا ونقمنا ، فلن يغير هذا شيئا مما ليس منه بد ، وانا اقول ذلك عن خبرة وتجربة . فقد رفضت ذات مرة أن اتقبل أمرا محتما واجهنى ، وكنت ولا محالة اذ ذاك أحمق فاعترضت ، وثرت ، وغضبت ، وحولت ليالى الى جحيم من الأرق ، وفى النهاية ، وبعد عام من التعذيب النفسى ، امتثلت لهذا الأمر المحتم الذى كنت أعلم منذ البداية انه لا سبيل الى تغييره وما كان أخلقنى أن أردد مع الشاعر « والت هويتمان » قوله :

« ما أجمل أن أواجه الظلام ، والأنواء ، والجوع .

« والمصائب ، والنوائب ، واللوم ، والتقريع .

« كما يواجهها الحيوان ، أو تواجهها من الأشجار الجذوع ».

ولقد أمضيت اثنى عشر عاما من حياتى مع الماشية ، فلم أر

بقرة تبتئس لأن المرعى يحترق ، أو لأنه جف لقلة الأمطار ، أو لأن صديقها الثور راح يغازل بقرة أخرى ! ان الحيوان يواجه الظلام ، والعواصف ، والجوع ، هادئا ساكنا ، ولهذا فهو قلما يصاب بانهيار عصبى ، أو قرحة فى المعدة ، كما لم يصب بالجنون قط .

أتراني أنصح بأن نطأطئ هاماتنا لكل ما يواجهنا من مصائب؟ كلا ! فان هذا هو الاغراق فى التشاؤم . فمتى كانت هناك فرصة سانحة لننقذ أنفسنا مما حل بها ، فلننتهزها ، ولنكافح ونجاهد. فاذا كان ما يواجهنا أمرا محتوما لا مناص منه ، وليس منه بد ، ففى هذه الحالة فاننا : باسم صحتنا ، وسلامة عقولنا ونفوسنا يجب أن نكف عن الكفاح على غير طائل يرجى .

قال لى « هوكس » عميد جامعة كولومبيا ذات مرة انه اتخذ له شعارا ، هذه الأبيات :

لكل داء فى ظل السماك ،

« هنا دواء ، أو ليس هناك .

« فاذا كان دواء فلنجده .

« واذا لم يكن .. فأنى نجده ؟ ! » .

قابلت ، فى خلال تأليف هذا الكتاب ، عددا من مشاهير رجال الأعمال فى أمريكا ، فسرنى ان اجدهم يمتثلون لما ليس منه بد ، ومن ثم يحيون حياة خالية من القلق ، ولو أنهم لم يفعلوا لانسحقوا بقوة الضغط والتوتر ، واليك أمثلة مما قالوه لى :

قال لى « ج.س.بينى » مؤسس سلسلة المخازن الشهيرة باسمه : « لن اقلق ولو خسرت كل دانق املكه ، لأننى أعلم ما الذى يعود به القلق على . اننى أؤدى عملى على أحسن وجه استطيع ان اقوم به ، واترك الباقى لله سبحانه » .

وقال لى هنرى فورد : «ل.ت. تيللر» مدير شركة « كريز لر»

كيف يأمن شر القلق ؟ أجاب : عندما يواجهنى موقف عصيب أتأمله ، فان كان هناك ما يمكن أن أفعله للتغلب عليه فعلته . واذا لم يكن هنـــاك ما أفعله ، نسيت الأمر اطلاقا . أننى لا أقلق قط للمستقبل ، لأننى أعلم أنه ليس فى وسع احد أن يستشف خبايا المستقبل ، فلماذا أقلق من أجل شىء لم يحدث ، ولا ادرى على أى وجه يحـــدث ؟ » .

وقد يشعر المستر تيللر بالحرج اذا وصفته بأنه فيلسوف . فهو رجل أعمال ناجح فى عمله ليس الا ، ولكنه ، برغم ذلك : وقف على السر الفلسفى الذى حدث به الفيلسوف «ابيكتيتوس» تلامذته فى روما منذ تسعة عشر قرنا ، فقال : « هناك طريق واحد يفضى الى السعادة ، ذلك هو الكف عن التوجس من اشياء لا سيطرة لارادتنا عليها » .

كانت « سارة برنار » أنموذجا للمراة التى عرفت كيف ترضى بما ليس منه بد . فقد لبثت ملكة متوجة على عـــرش المسرح : وظلت معشوقة الجماهير فى العالم كله مدى نصف قرن من الزمان فلما بلغت الواحدة والسبعين من عمرها ، حدث أن كانت وهى تعبر المحيط الأطلسى على ظهر باخرة ، سقطت على ارض السفينة أثناء عاصفة هوجاء ، فجرحت ســـاقها جرحا بالغا ترتب عليـــه داء « تسوس العظام » الذى عانت منه الممثلة القديرة الألـــم المبرح وآمن طبيبها « الدكتور بوتزى » بأنه لا برء لها الا ببتر ساقها ! ولكنه كان يخشى أن تثور ثائرتها ويعصف غضبها ان هو أنهى اليها هذا النبأ الأليم . بل قدر ان هذا النبأ يدفع بالممثلة القديرة بين براثن الهستيريا ، ولكنه اخطأ التقدير ! فقد تأملتـــه لحظة بعد أن أنهى اليها النبأ ، ثم قالت فى هدوء : « اذا كان لا مفر من هـــذا ، فليكن » ! وعنـــدما سيقت الممثلة على المخـــدع ذى العجلات الى غرفة العمليات كان ابنها واقفا يرقبها وهو يبكى . فرسمت له بيدها اشارة مرحة ، وقالت له : « لا تذهب فسأعود حالا » .

وفى طريقها الى غرفة العمليات ، جعلت تعيد حوار مشهد من احدى تمثيلياتها ، فسألها أحد الحاضرين هل تفعل هـذا لتبث الشجاعة فى نفسها ، فأجابت : « كلا ، بل لأبث الشجاعة فى نفوس الأطباء ، فلن أمامهم عملا شاقا ! » .

وعندما تماثلت « سارة برنار » للشفاء ، راحت تطوف حول العالم من جديد ، وتسعد بفنها الجماهير مدى سبع سنوات أخرى .

كتبت « الزى ماكورميك » ذات مرة فصلا فى مجلة «ريدرز دايجست » ، قالت فيه : « عندما نكف عن النقمة على ما ليس منه بد ، ثم يتبقى له بعد ذلك من القوة ما يمكنه من خلق حياة أفضل حافلة بالسعادة » .

ان أحدا منا ليس من القوة بحيث يسعه أن يقاوم ماليس منه بد ، ثم يتبقى له بعد ذلك من القوة ما ميكنه من خلق حياة ممتلئة سعادة . عليك أن تختار أحد الشيئين : فاما أن تنحنى حتى تمر العاصفة بسلام ، واما أن تتصدى لها معرضا بذلك نفسك للهلاك .

وقد شهدت تجربة من هذا النوع فى مزرعتى بولاية ميسورى فقد هبت ريح عاتية على المزرعة ، ولكن الأشجار لم تنحن للعاصفة ، بل تصدت لها منتصبة الأعواد ، فلم تلبث أن تكسرت، وصارت حطاما تذروه الرياح . ان أشجارى ليست لها حكمة الأشجار النامية فى غابات كندا ، فقد عهدت أشجار كندا الدائمة الخضرة أن تنحنى للعواصف لتمر فى طريقها بسلام .

يقول مدربو المصارعة اليابانية المعروفة باسم « جوجتسو » لتلاميذهم : « انحنوا دائما أمام خصومكم كغصن طرى ، ولا تنتصبوا كجذوع شجر البلوط ، فيسهل تحطيمكم » .

هل تدرى لماذا تحتمل اطارات السيارات ، وعورة الطريق ؟ لقد جربت مصانع الاطارات فى مبدأ الأمر بأن تصنع اطارات صلبة

صماء « تقاوم » عثرات الطريق ، ولكن هذه الاطارات لم تصمد لتجربة ، ثم صنعت المصانع اطارات مطاطية جوفاء « تلين » أمام الصدمات بدلا من أن تقاوم ، فصمدت هذه الاطاراتللتجربة وان فىاستطاعتك أن تعمر طويلا ، وأن تستمتع برحلة طيبة هنيئة عبر طريق الحياة ، اذا أنت صانعت الزمن ، وأبديت اللين حيال الصعاب والعثرات .

فما الذى يحدث لك ولى اذا قاومنا صدمات الحياة بدلا من أن نلين حيالها ؟ ما الذى يحدث اذا رفضنا أن ننحنى « كغصن طرى» وأصررنا على المقاومة ، كشجر البلوط ؟ الجواب سهل . سوف نقلق ، وتتوتر أعصابنا ، وتمرض نفوسنا ، فاذا وصلنا بعد هذه المقاومة ورفضنا مواجهة الحقائق فاننا بذلك نرد على أعقابنا ونلجأ الى أوهام من صنع خيالنا ، وهذا هو الجنون !

وقد تحتم على كثير من الجنود ابان الحرب الأخيرة ، اما أن يرضوا بالأمر الواقع الذى ليس منه بد ، واما أن يحطمهم التوتر والقلق . ولأضرب لك مثلا « وليم كاسيلياى » من أهالى مدينة « جلنديل » بولاية نيويورك . واليك قصته كما رواها لطلبتى .

« لم ألبث بعد أن التحقت بحرس السواحل ، أن عهد الى بمهمة من اشد المهمات خطرا ، على ساحل الأطلنطى ، فقد عينت حارسا لمخازن الذخائر والمفرقعات ، وتصوروا أننى كبائع سابق للبسكويت ، اصبح حارسا للذخيرة ! ان مجرد التفكير فى أننى واقف أمام أطنان من الديناميت ، يكفى وحده لأن يجمد الدم فى عروقى، ولم يكن قد مضى على تدربى على فن حراسة الذخائر سوى يومين ، وقد ضاعفت المعلومات والتنبيهات ، التى تلقيتها خلال هذين اليومين فى بث الرعب فى نفسى ، وفى ذات يوم كثيف الضباب ، صدر الى الأمر بنقل حمولة من الذخائر ، الى احدى السفن المقاتلة ، وقد استعنت على أداء هذه المهمة ، بخمسة من رجال البحرية الأشداء ، ذوى المناكب العريضة ، والأجسام الصلبة ، والظهور القوية ، ولكنهم لم يكونوا يعرفون شيئا عن

طبيعة المفرقعات التى يحملون صناديقها على ظهورهم ، والتى يكفى صندوق واحد منها لنسف سفينة بأكملها ، وبعثرتها أشلاء! وكانت صناديق المفرقعات تنقل الى ظهر السفينة بواسطة قضيبين من الأسلاك المتينة يصلان بين المخزن وظهـــر السفينة ، فجعلت أقول لنفسى وانا أرتجف خوفا: « ماذا لو قطع احد هذين السلكين فهوى صندوق المفرقعـــات ؟ وجف ريقى ، وارتجفت ركبتاى ، وخفق قلبى ، وفكرت فى الهـــرب ولكنى لم أستطع الهرب ، فان هذا الهرب يعد خروجا على خدمة الجيش ، جزاؤه العار الذى يلحق بى وبعـــائلتى ، وقد يكون جزاؤه القتل رميا بالرصاص ! فكان لزاما على اذن ان أبقى ، وظللت اتأمل البحارة الأشـــداء ، وهم يحملون صناديق المفرقعات فى قلة مبالاة ، برغم ان السفينة مهددة بالنسف فى اية لحظة ، وبعد نحو ساعة انقضت على هذا الرعب الجارف الذى أعانيـــه . بدأت أفكر فى شىء من التعقل ، قلت لنفسى : « هب انه حدث انفجار ومزقك اربا ، فماذا أنت فاعل ؟ انك لن يتاح لك ان ترى ماتؤول اليه حالك ، ثم ان هذه وسيلة سهلة للموت ، افضل بكثير من الموت بالسرطان مثلا ، وأنت لا تأمل فى ان تخلد فى هذه الحياة ، فكف اذن عن هذا القلق السخيف ، وأد العمل الذى عهد به اليك .

« وظللت أحدث نفسى بمثل هذا الحديث ســـاعة بأكملها ، أحسست بعدها بالراحة والهدوء ، وانجاب عنى القلق وانقشع الخوف ، فقد رضت نفسى ، خلال هذه الساعة ، على الرضـــا بما ليس منه بد .

« ولن انسى ما حييت هذا الدرس ، فى كل مرة أميل فيها . الىالقلق لأمر ما لايمكن تبديله أهز كتفى وأقول : « انسه ، فلابد مما ليس منه بد » وقد أجدت هذه الفلسفة العملية على كل الخير حتى بعد أن عدت الى بائع بسكويت كما كنت » .

ومرحى ! مرحى ! دعنا نهتف لهذا الرجل بائع البسكويت ؛

فانه يستحق منا كل تقدير .

لعل اشهر ميتة فى التاريخ ، بعد ميتة السيد المسيح مصلوبا، هى ميتة الفيلسوف سقراط ، ولن يفتأ النــاس الى أبد الآبدين يطالعون الوصف الرائع الذى وصف به أفلاطون ميتة سقراط ، لقد حســد بعض أهالى أثينا ســقراط ، وغاروا منـــه ، وهو الفيلسوف الحاذق القــدمين ، فكادوا له وحاكموه ، وقرروا أن يقتلوه بالسم ، وحين قدم الساقى كأس المنية الى ســقراط قال له : « ارض بما ليس منه بد » وقد فعل سقراط . وتجرع السم ثابت الجنان ، رابط الجأش ، فخلدت ميتته كما خلدت حياته .

« ارض بما ليس منه بد » . لقد قيلت هذه العبارة قبل ميلاد المسيح بنحو أربعة قرون، وما أحوج العالم الذى يجتاحه القلق، ويعصف به التوتر ، أن يذكرها اليوم ، وكل يوم .

لقد قرأت خلال الأعوام الثمانية الماضية ، كل كتــاب ، وكل مجلة ، وكل مقالة عالجت موضوع القلق ، فهل تريد أن تعــرف أحكم نصيحة وأجداها أفدتها من قراءتى الطويلة ؟ هاهى ذى ، وانصحك أن تدونها على ورقة تثبتها فى صــقال مرآتك ، حتى تطالعها كل يوم ... وقد كتب هذه النصيحة . بل هذا الدعاء، الدكتور « رينولد نايبر » الأستاذ بمعهد الاتحاد الدينى بنيويورك

« هبنى اللهم الصبر والقدرة » .
« لأرضى بما ليس منه بد » .
« وهبنى اللهم الشجاعة والقوة » .
« لأغير ما تقوى على تغييره يدى » .
« وهبنى اللهم للسداد والحكمة »
« لأميز بين هذا وذاك »

واذن ... فلكى تحطم عادة القلق قبل أن تحطمك ، اليــك **القاعدة رقم ٤ .**

ارض بما ليس منه بد .

الفصل العاشر

اجعل للقلق « حداً أقصى »

أتريد ان تعرف كيف تجنى ثروة طائلة من المضاربة فى سوق الأوراق المالية ؟ لا ريب أنك تريد ذلك . ولاريب ان ملايين الناس مثلك يريدون ذلك ، ولو اننى أعرف الاجابة عن هذا السؤال لعرضت هذا الكتاب للبيع بثمن خيالى ! لكنى اعرف طريقة سديدة يستخدمها بعض الماليين الناجحين، ويجنون من ورائها ربحا جزيلا فلا اقل من اسوقها اليك . حدثنى عن هذه الطريقة مستر « تشارلس روبرت » الخبير بشئون استثمار المال ، فقال : « حضرت من تكساس الى نيويورك ومعى عشرون الف دولار ، اعطاها لى بعض اصدقائى لاستثمارها فى سوق الأوراق المالية . وكنت اعتقد اننى عليم بدخائل السوق ، واقف على بواطنها ، ولكننى خسرت كل دانق من المال الذى احمله ! نعم ، لقد ربحت بعض الصفقات ، ولكن الأمر انتهى بى الى الخسارة الشاملة .

« لم اكن لأبالى بضياع اموالى الخاصة ، ولكنى استشعرت الأسف الشديد لضياع اموال اصدقائى — برغم انهم من الثراء بحيث لا تزعزعهم خسارة كهذه — وعملت الف حساب لمواجهة اصدقائى بعد أن بددت اموالهم ، ولكنهم — لفرط دهشتى — تقبلوا الأمر بروح الرياضى الذى لا تنال منه الهزيمة .

كانت مضاربتى فى السوق تسير وفق المبدأ القائل « كل شىء او لا شىء » . وكنت اعتمد فى المضاربة على الحظ ، وعلى آراء ذوى الخبرة ، لفما انتهيت الى الخسارة السالفة الذكر ، جعلت امعن الفكر فى الأخطاء التى وقعت فيها ، وعولت على تلافيها قبل ان اقفل راجعا الى السوق مرة أخرى ، وسعيت حتى تعرفت على أنجح مضارب فى البورصة عرفه العالم ، وهو « برنون

كاسلتز » . وظننت أن فى استطاعتى أخذ الخبرة منه ، فقد كان ربحه يتزايد سنة بعد أخرى ، مما يحمل على الظن بأن مثل هذا النجاح المتكرر ليس وليد الحظ وحده .

« وبعد أن سألنى برنون بضعة أسئلة عن الطريقة التى أضارب بها ، أنهى الى ما أحسبه أهم مبدأ فى المضاربة ، وفى التجارة على العموم . قال : « اننى اقرر حدا أقصى للخسارة فى كل صفقة أعقدها . فاذا اشتريت — مثلا — أسهما قيمة كل منها خمسون دولارا ، اضع فى التو حدا أقصى للخسارة مقدارها خمسة دولارات فى كل سهم ، أى أنه متى هبطت قيمة السهم بمقدار خمسة دولارات ، فاننى أبيعه فىالحال ولا أنتظر أكثر من ذلك ممنيا النفس بأن قيمة السهم قد تعود فترتفع . فاذا اتبعت هذه الطريقة وخسرت فى نصف صفقاتك ، وربحت فى نصفها الآخر فثق أنك رابح آخر الأمر ، لأنك لا تخسر الا مبلغا ضئيلا هو الذى جعلته حدا أقصى لخسارتك ، وهذه الخسارة المحدودة يمكن لأرباحك فى نصف صفقاتك أن تغطيها بسهولة » . وقد عملت بهذا المبدأ فى التو ، ومازلت أعمل به الى الآن . والحقيقة أنه وفر لى ولعملائى آلاف الدولارات .

« ثم لم ينقض وقت طويل حتى أدركت أن مبدأ وضع « حد أقصى » للخسارة لا تقتصر فائدته على أسواق التجارة والمضاربة وحسب ، بل تتعداها الى المشكلات الشخصية أيضا ... مثال ذلك أننى اعتدت انتظار صديق لى لنتغذى معا فى أحد المطاعم. ولكنه قلما كان يحضر فى موعده ، فكنت أضيع فى انتظاره نصف الوقت المخصص لغذائى ، وأخيرا قلت له : « اسمع يا صديقى. ان الحد الأقصى الذى قررته لانتظارك هو عشر دقائق بعد الموعد المحدد ، فاذا حضرت بعد هذه الدقائق العشر فلن تجدنى فى انتظارك » .

وكم وددت لو أننى أدركت هذا المبدأ منذ سنين مضت لأطبقه على ما كان يطرأ على من نفاد الصبر ، واحتداد المزاج ،

واستشعار الخوف والقلق . لم يخطر لى من قبل أن أحجم عود كل موقف يتهـدد طمأنينتى ، واقـول لنفسى : « اسمع ياديل كارنيجى ، ان هذا الموقف لا يحتاج لأكثر من « كذا » من الوقت للاهتمام به . ثم بعد ذلك تسقطه من حسابك تماما » .

على انه يحق لى أن اغبط نفسى قليلا على ما أبديته من حكمة فى معالجة موقف واحـد على الأقل . وفى الحق انه كان موقفا خطيرا ، بل أزمة تهددت حياتى جميعا . واليك تفصيل هـذه الأزمة : حين بلغت الثلاثين من عمرى ، قررت أن أنفق ما بقى من حياتى فى كتـابة القصص ، كنت أود أن أكون مثل « فرانك توريس » أو « جاك لندن » أو « توماس هاردى » وكنت متلهفا على تحقيق هذه الرغبة حتى اننى ارتحلت الى أوربا ومعى قليل من الدولارات — اثناء الأزمة الاقتصـادية التى أعقبت الحرب الأولى — وقضيت فى أوربا عامين اكتب قصتى الأولى ، واسميتها « عاصفة ثلجية » (The Blizzarb) والحقيقة أن العنـوان جاء مصداقا للسان الحال ، فقـد استقبل الناشرون قصتى تلك وهم ابرد من أعتى العواصف الثلجية ! وعندما انهى الى الناشر الذى قصدت اليه أن قصتى تافهة لا قيمة لها ، واننى محروم من الموهبة القصصية ونعمة الخيال ، كاد قلبى يتوقف عن الخفقان . وخرجت من مكتبه مشتتت الفـكر ، واحسست كأننى واقف على مفترق طرق الحياة ، وأن على أن اتخذ أخطر قرار فى حياتى : اى الطرق اسلك ؟ وماذا افعل ؟ ومرت اسابيع قبل أن أفيق من ذهولى . ولم اكن فى ذلك الوقت قد سمعت بمبدأ « الحد الأقصى للخسارة » ولكننى اذ ارجع النظر فى موقفى ذاك ، أرى اننى عملت وفقا لهذا المبـدا تماما ، فقد نظرت الى العـامين الذين قضيتهما فى كتابة قصتى الأولى كما ينبغى أن انظر اليهما : اى على انهمـا تجربة مشرفة . ومن هنا بدات السير : عـدت الى مهنتى الأولى ، اى تعليم البالغين ، وكتابة التراجم ، وتأليف الكتب كهذا الكتاب الذى بين يديك ، فى أوقات فراغى .

فهل ترانى مسرورا لاتخاذ هذا القرار ؟ بلى ! وانى ليستخفنى السرور متى عادت بى الذاكرة الى الوقت الذى اتخذت فيه هذا القرار ، حتى لأكاد أرقص طربا .. وفى وسعى أن اقول مخلصا: اننى لم أضيع لحظة واحدة فى الندم على اننى لم أصبح مثل « توماس هاردى » !

* * *

منذ قرن مضى ، والبوم تنعب فى الغابات القائمة على شاطىء « والدان بوند »، غمس « هنرى ثورو » قلمه المصنوع من ريش الأوز ، فى الحبر الذى صنعه فى منزله ، ثم كتب فى مذكراته ما يلى : « ان قيمة الشىء انما تقاس بمدى الفائدة التى تعود عليك منه ، وبمدى الخبرة التى يجديك اياها » . ومعنى هذا ، اننا حمقى ولاشك اذا دفعنا من صحتنا ، وسعادتنا ، ثمنا يزيد على قيمة الشىء كما فعل الموسيقيان « جلبرت وسوليفان » ! كانت مهمتهما تأليف الموسيقى ، والأغانى المرحة التى تدخل البهجة والسرور على النفوس ، ولكن معرفتهما بادخال السرور والبهجة على حياتهما الخاصة كانت دون القليل ! لقد اخرجا طائفة من أحب « الأوبرات » الخفيفة التى أمتعت العالم مثل « الصبر » و « بينافور » و «الميكادو » (١) ، ولكنهما لم يسعهما، مع هذا ، أن يسيطرا على مزاجهما الحاد ، بل قضيا حياتهما فى هم ونكد لقاء ثمن زهيد ... ذلك هو ثمن « سجادة » فقد أمر سوليفان بشراء سجادة للمسرح الذى اشترياه ، فلما رأى جلبرت « فاتورة الثمن » نطح الجدار برأسه كمدا ، وتخاصم الشريكان ، وتقاضيا أمام المحاكم ، وتخاصما طيلة حياتهما ! فكان سوليفان اذا كتب موسيقى احدى الأوبرات ، ارسلها بالبريد ! الى جلبرت . فاذا فرغ جلبرت من وضع الأغانى التى تتمشى مع الموسيقى اعادها مع « النوتة الموسيقية » الى

---

(1) Patience. Pinafore. The Mikado.

سويفان بالبريد وكانا قبل خصامهما يستدعيان الى خشبة المسرح لتحييهما الجماهير ، ولكنهما ، بعد خصامهما ، أصبحا يظهران على المسرح كل فى طرف منه ، وكل منهما ينحنى فى اتجاه مخالف حتى لا يقع نظره على غريمه ! .

انهما على نقيض « لنكولن » ، لم يجعلا للغضب حدا أقصى !

حدث مرة فى خلال الحرب الأهلية الأمريكية ، عندما كان بعض أصدقاء « لنكولن » يحملان حملات شعواء على أعدائهم ، أن قال لنكولن : « ان لديكم من الاحساس بالغضب والثورة اكثر مما لدى . وقد أكون خلقت هكذا ، ولكنى لا ارى أن الغضب يجدى . ان المرء لا ينبغى أن يضيع نصف حياته فى المشاحنات. ولو أن أحدا من أعدائى انقطع عن مهاجمتى ، لما فكرت لحظة واحدة فى ماضى عدائه لى » .

وكم وددت لو أن لعمتى العجوز « اديث » روح التسامح التى اتصف بها لنكولن ! لقد عاشت مع عمى « فرانك » فى مزرعة مرهقة بالديون ، محجوز عليها ، وكانت الى هذا ، رديئة التربة، حافلة بالأخاديد ، حتى انهما ذاقا الأمرين فى استصلاح هذه الأرض ، واعتصار كل دانق يمكن استخلاصه منها . ثم حدث أن رغبت عمتى فى شراء بعض الستائر لتزين بها بيتها الريفى البسيط العاطل من أسباب الزينة ، فابتاعت هذا « الترف » على حساب بنك التسليف الزراعى الذى يملكه « دان ايفرسول » بمدينة « ماريفيل » بولاية ميسورى ولما كان عمى فرانك يرزح تحت أعباء الديون الطائلة ، فقد أوعز الى « دان ايفرسول »من طرف خفى أن يكف عن اقراض زوجته . ووقفت عمتى يوما على هذا السر ، فنطحت الجدار براسها ، وظلت تنطح الجدار كلما تذكرته ، حتى بعد خمسين عاما ! وقد روت لى عمتى هذه القصة مرات عدة ، وفى المرة الأخيرة التى زرتها فيها ، وكانت فى السبعين من عمرها ، قلت لها : « صحيح يا عمتى « اديث » ان عمى « فرانك » قد أساء اليك ، ولكن الا تشعرين مخلصة

أن شكواك من اساءته مدى خمسين عاما أمر أكثر من الاساءة نفسها ؟ » ولكننى كنت كمن يخاطب القمر ، وينتظر الجواب !.

ولقد دفعت عمتى « اديث » ثمنا فادحا لحقدها ومقتها ، دفعت الثمن من صحتها ، وسعادتها .

* * *

عندما كان « بنجامين فرانكلين » فى السابعة من عمره،ارتكب غلطة ظل يذكرها حتى بلغ السبعين من عمره ! فقد وقع فى تلك السن فى غرام « مزمار » ! واستولت عليه فكرة الحصول على هذا « المزمار » ، فذهب الى محل اللعب ، ووضع أمام البائع كل ما يملك من النقود فى مقابل هذا « المزمار » دون أن يعنى حتى بالسؤال عن ثمنه ! وقد كتب « بنجامين » الى صديق له ، عن هذا الحادثة ، بعد أن مضت عليها سبعون سنة ، يقول : « لقد عدت الى البيت بعد أن ابتعت ذلك المزمار ، والدنيا لاتسعنى من فرط السرور ، فلما علم اخوتى الكبار بالثمن الذى دفعته فى هذا المزمار ضحكوا منى ساخرين ، فلم يسعنى الا أن أبكى حنقا » . ومضت الأعوام ، واصبح « فرانكلين » شخصية بارزة ، وسفيرا لأمريكا فى فرنسا ، ولكنه لم ينس أنه دفع ثمنا باهظا فى مزمار زهيد القيمة . على أن الدرس الذى وعاه « فرانكلين » من هذه التجربة لم يكن ليقوم بمال . فقد أثر عنه قوله : « كلما كبرت، واوغلت فى خضم الحياة ، وتأملت تصرفات الرجال ، رأيت كثيرين جداً يدفعون ثمنا باهظا فى مزمار زهيد ، وانى لأرى أن جانبا كبيرا من شقاء بنى الانسان مرجعه الى سوء تقديرهم لقيم الأشياء » .

حقا لقد دفع « جلبرت وسليفان » ثمنا باهظا فى سجاد تافه. وكذلك فعلت عمتى « اديث » وكذلك فعلت أنا فى كثير من المناسبات . وكذلك أيضا فعل الفيلسوف الخالد « ليو تولستوى» مؤلف أروع روايتين فى الأدب العالمى وهما : « الحرب والسلام» و « أنا كارنينا » تقول دائرة المعارف البريطانية عن تولستوى :

انه خلال العشرين عاما الأخيرة من حياته كان أخلق الرجال فى العالم بالتقدير والاحترام . فقبــل وفاته بعشرين عاما — من عام ١٨٩٠ الى عام ١٩١٠ — كان المعجبون به يحجون الى بيته، فى سيل لا ينتهى ، ليتملوا من طلعته ، ويشنفوا اسماعهم بصوته بل ليمتعوا أصابعهم بلمس مسوحة . كانت كل كلمة تخرج من فمه تدون فى مذكرة كما لو كانت نبوءة رسول ! هــكذا كان شــأن تولستوى بصفته العامة ، أما فى حيــاته الخاصــة ، فقد كانت تصرفاته وهو فى سن السبعين أكثر حمقا من تصرفات « بنجامين فرانكلين » وهو فى السابعة ! تزوج تولستوى من فتاة أحبهــا حبا عنيفا ، وســعدا فى زواجهما ، حتى لقد كانا يســجدان لله ضارعين اليه أن يديم عليهما هــذه الســعادة . ولكن زوجــة تولستوى كانت غيورا بطبيعتها ، حتى انها اعتادت ارتداء زى الفلاحات ، والتجسس على حركات زوجها وسكناته ، وتفاقمت غيرتها على مر الأيام ، حتى أصبحت تغار على زوجها من أبنائها أنفسهم ! وقد أمسكت مرة ببندقية وكسرت بها صورة ابنتها بدافع الغيرة ! وفى مرة أخرى راحت تلوى على الأرض وزجاجة السم فى يدها مهددة بالانتحار ، بينما انزوى أبناؤها فى ركن من الغرفة وقد عقد الرعب ألسنتهم .

فما الذى فعــله تولستوى ردا على هذا ؟ انى لا الومه على تحطيمه الأثاث غضبا وحنقا ، فقد كان يلقى من الاستفزاز أشده، ولكنه فعل أسوأ من هذا : انشأ مذكرات خاصة صب فيها اللوم كله على زوجته . ذلك كان « مزماره » الباهظ الثمن ! فقد أراد أن تنصفه الأجيال القادمة ، وتصب الوم كله على زوجته . فلماذا ترى فعلت زوجتــه ردا على ذلك ؟ لقد مزقت جانبــا كبيرا من مذكرات زوجها واحرقته فى النار . ثم أنشأت مذكرات خاصــة صبت فيها اللوم على زوجها ، بل انها كتبت قصة بعنوان غلطة من ؟ « Whose fault ? »وصفت فيها زوجها بأنه شيطان مريد، واضفت على نفسها صفات الشهداء والقديسين .

وماذا كان الدافع عن هذا كله ؟ ولمـاذا احال هذان الزوجان منزلهما الى ما يشبه مستشفى المجاذيب ؟ لاشك ان هناك أسبابا عدة : منها رغبتهما ، كليهما ، فى التأثير علينا ـ نحن الأجيـال التالية التى أراد منها كل منهما أن تنصـفه ، وتصب اللوم على شريكه ــ فهل تظن أن احدا منا يهتم بأن يعرف ايهما كان المصيب وايهما كان المخطىء ؟ كلا ! فأنا وأنت مشغولان بمشاغلنا الخاصة ولسنا نملك أن نضيع دقيقة واحدة فى التفكير فى آل تولستوى الـكرام .

فياله من ثمن فادح دفعه هذان الزوجان من اجـل « مزمار رخيص » ! لقد قضيا خمسين عاما فى جحيم مقيم ، دون أن يفطن أحدهما الى وجوب تقدير الأشياء بقيمتهـا الحقيقية ، ودون أن يوافق أحدهما الى أن يقول لنفسـه « كفى » فيقول لشريكة : « دعنا نضع حدا لهذه الحال ، اننا نسمم حياتنا من أجل توافه لا قيمة لها » .

نعم . اننى اعتقد مخلصا أن تقدير الأشياء بقيمتها الصحيحة سر عظيم من أسرار الطمأنينة النفسية ، والراحة الذهنية . كما كما اعتقد أن فى وسعنا التخلص من نصف القلق الذى يساورنا فى التو واللحظة ، لو أن كلا منا اتخذ هذا المبدأ الذهبى ، مبدأ تقدير الشىء بقيمته الحقة .

اذن ، فلكى تحطم عادة القلق قبل أن تحطمك ، اليك القاعدة رقم (٥) :

عندما يساورك القلق من اجـل الحصول على شىء ، اسأل نفسك هذه الأسئلة :

١ ــ ما مدى الفائدة التى سيعود بها على هذا الأمر الذى يساورنى من اجله ؟

٢ ــ كم من الوقت اجعله حدا اقصى لهذا القلق ؟

٣ ــ كم ينبغى ان ادفع ثمنا لهذا الشىء الذى يساورنى القلق من اجله ، ولا ازيد عليه ؟

الفصل الحادى عشر

لا تحاول أن تنشر « النشارة »

استطيع وأنا أكتب هذه العبارة ، أن أتطلع من نافذة غرفتى، فأرى بعض آثار حيوان « الديناصور » (١) التاريخى فى « حديقة منزلى ، لقد ابتعت هذه الآثار التاريخية من متحف « بيبودى » التابع لجامعة « ييل » . ولدى خطاب من مدير هذا المتحف يقول فيه « ان هذه الآثار ترجع الى ١٨٠ مليون سنة مضت » وبديهى ان اى أحمق فى الوجود ، لايحلم بأن يعود بخياله القهقري ١٨٠ مليون سنة ليغير او يبدل شيئا من هـــذه الآثار .. ولكن هـــذه المحاولة العقيمة ، فى رأيى ، لا تنطوى على مثـــل الحماقة التى يأتيها الكثيرون منا ، حين يلقون بأنفسهم بين براثن القلق ، لأنهم لا يستطيعون تبديل ما حدث منذ ١٨٠ ثانية ! .

ان من المعقول أن تحاول تعديل « النتائج » التى ترتبت على أمر حدث منذ ١٨٠ ثانية ، أما أن تحاول تغيير الأمر نفسه ، فهذا هو الذى لا يعقل .

وليس ثمة الا طريقة واحدة يمكن بواسطتها أن تصبح الأحداث الماضية انشائية مجدية . تلك هى تحليل الأخطاء التى وقعت فى الماضى ، والاستفادة منها ، ثم نسيانها نسيانا تاما .

أنا أؤمن بهذا ، ولكن هل ترانى أملك الشجاعة دائما لأفعـــل ما أؤمن به ؟ ولكى أجيب عن هـــذا السؤال ، دعنى أسرد لك تجربة مرت بى منذ بضع سنوات مضت . وترتب عليها أن أضعت ثلاثمائة ألف دولار .

---

(١) الديناصور حيـــوان من حيـــوانات ما قبـــل التاريخ ، ينتمى لفصـــيلة الزواحف ، ويبلغ طوله نحو ثمانين قدما .

كنت قد وضعت مشروعا ضخما لتعليم الطلبة البالغين ، وافتتحت عدة فصول فى مختلف المدن ، وانفقت المال بسخاء فى الدعاية والاعلان ، وقد استغرق قيامى فى هذه الفصول كل وقتى وسلبنى كل رغبة فى الاهتمام بالناحية المالية من المشروع ، ثم اننى كنت من السذاجة بحيث غاب عنى أننى فى حاجة الى مدير لأعمالى ، مدرب على تدبير شئون المال .

واخيرا .. وبعد مضى سنة ، اكتشفت حقيقة مريرة : هى أننى رغم كثرة « الدخل » ، لم أحقق من الربح شيئا ! . وكنت خليقا، بعد أن اكتشفت هذه الحقيقة ، أن افعل شيئين . الأول : أن افعل شيئا مثلما فعل العالم الزنجى « جورج واشنجتون كارفر » ، حين افلس المصرف الذى كان يودع فيه كل ما ادخره طيلة حياته، وقدره اربعون الف دولار .. فقد سأله أحدهم ، ان كان قد عرف أنه خسر امواله جميعها ، اجاب : « نعم ! سمعت » ثم انصرف الى التدريس ، وكأن شيئا لم يحدث . لقد محا من ذهنه محوا تاما كل تفكير فى هذه الخسارة . حتى انه لم يعد يذكرها بعد ذلك قط ! .. والشىء الثانى : أن أحلل اخطائى وأخرج منها بدرس مفيد .

ولكنى لم أفعل شيئا من هذا ، بل أوقعت نفسى فى براثن القلق وعشت اشهرا طوالا فى شبه دوار مستمر ، لا أذوق النوم الا لماما ، ولا اكاد أتناول من الطعام شيئا .. اننى عوضا عن أن أتعلم من هذه التجربة القاسية درسا ، عدت فكررت الخطأ نفسه ، ولكن على نطاق أضيق .

وانى ليدركنى الاضطراب ، عندما أسلم بحماقتى هذه ! ... ولكنى اكتشفت بعد ذلك أن قيامى بتعليم عشرين شخصا كيف يتجنبون الخطأ ، أيسر من أن أكون أنا واحدا من عشرين شخصا يتبعون تعليماتى ! .

لكم تمنيت لو أتيح لى أن أكون طالبا فى كلية « جورج

واشنجتون » بنيويورك ، لأتتلمذ على « مستر براندوين »، ذلك الأستاذ الذى تتلمذ على يديه « الن سوندرز » من اهالى مدينة نيويورك .

فقد حدثنى « سوندرز » ، أن « مستر براندوين » مدرس الصحة بكلية « جورج واشنجتون » علمه درسا لن ينساه ابدا، ثم قص على قصة هذا الدرس فقال : « لم اكن ، بعد ، قد بلغت العشرين من عمرى ، ولكنى كنت شديد القلق حتى فى تلك الفترة المبكرة من حياتى .. فقد اعتدت ان استعيد اخطائى . واهتم بها اهتماما بالغا ، وكنت اذا فرغت من اداء امتحان وقدمت أوراق الاجابة ، اعود الى فراشى فأستلقى عليه ، ثم اعض اصابعى وانا فى اشد حالات القلق خشية الرسوب . لقد كنت اعيش فى الماضى ، وفيما صنعته فيه ، واود لو اننى صنعت غير الذى كان وافكر فيما قلته من زمن مضى ، واود لو اننى قلت غير الذى قلت ، وهكذا .

« حتى كنت ذات صباح ، وقد ضمنى وزملائى الطلبة الفصل وبعد قليل دخل المدرس « مستر براندوين » ، ومعه زجاجة مملوءة باللبن وضعها امامه على المكتب .. وتعلقت ابصارنا جميعها بزجاجة اللبن ، وراحت خواطرنا تتساءل : مادخل اللبن فى دروس الصحة التى يلقنها لنا « مستر براندوين » ،و فجأة ، نهض « مستر براندوين » : واطاح بزجاجة اللبن بظهر يده ، فوقعت على الأرض ، وكسرت ، واريق ما فيها من اللبن ، وصاح « مستر براندوين » : « لا يبك احدكم على مافات » .

ثم نادانا الأستاذ واحدا فواحدا لنتأمل حطام الزجاجة ، واللبن المراق على الأرض ، وجعل يقول لكل واحد منا : « انظر جيدا.. اننى اريد ان تذكر هذا الدرس مدى حياتك ، لقد ذهب هذا اللبن ، واستوعبته البالوعة ، فمهما تشد شعرك . وتسمح للهم والكدر ان يمسكا بخناقك ، فلن تستطيع أن تستعيد قطرة واحدة منه ، لقد كان يمكن بشىء من الحيطة والحذر ان تتلافى اراقة

اللبن ، ولكن .. لقد فات الوقت الآن ، وكل ما تستطيعه أن تمحو أثره وتنساه ، ثم تعود الى عملك بهمة ونشاط » .

* * *

واستطرد مستر سوندرز يقول : « ولقد بقيت هذه التجربة ، الصغيرة عالقة بذهنى ، بعد أن تلاشت منه معلومات الحساب والهندسة ، واللاتينية . بل الحق انها افادتنى فى حياتى العملية اكثر مما افادنى أى شىء آخر مما تعلمته خلال السنوات الأربع التى قضيتها فى الكلية ، لقد علمتنى أن أحول دون اراقة اللبن اذا استطعت ، وأن أنسى انه أريق ، اذا لم استطع الحيلولة دون اراقته » .

وكأنى ببعض القراء يهزون أكتافهم استخفافا حين يرون كيف بالغ المدرس فى تجسيم مثل سائر معروف : « لا تبك على ما فات » ! .

وانا أعلم أنه مثل سائر معروف ، وانك ربما قرأته من قبل مئات المرات . ولكن اعلم أيضا أن هذه الأمثال السائرة، تتضمن جوهر الحكمة التى أعقبتها العصور المتوالية ، فان هذه الأمثال السائرة لم تخرج الا بعد أن صهرها الجنس البشرى ، فى بوتقات التجارب القاسية ، لو أنك قرأت كل ما كتبه العلماء فى مختلف العصور عن القلق ، ما أغناك هذا شيئا عن الحكمة الجوهرية التى يتضمنها هذان المثلان السائران : « لا تعبر جسرا حتى تصل اليه » و « لا تبك على ما فات » . فاذا طبقنا هذين المثلين بدلا من أن نستخف بهما ، لما احتجنا الى كتاب — كهذا — يعلمنا كيف نتقى القلق .

بل الحق ، أننا لو طبقنا معظم الأمثال القديمة ، لعشنا عيشة مثالية لاينغصها شىء .. على أن المعرفة لا تصبح « قوة » يعتد بها ، حتى توضع موضع التجربة ، وليست غاية هذا الكتاب أن يطلعك على أشياء لم تعرفها من قبل ، وانما هدفه أن يذكرك

بما تعرفه فعلا ، وأن يحفزك على تطبيق ما تعرفه على حياتك.
لقد كنت على الدوام ، أعجب برجل مثل « فرد فوللرشد » الذى أوتى القدرة على أن يعيد كتابة الحقائق القديمة المعروفة بطريقة جذابة مشوقة . حين كان يرأس تحرير جريدة «فيلادلفيا بولتين » ، حدث انه كان يحاضر طلبة السنة النهائية باحـدى الجامعات فسألهم ؟ » « كم منكم مارس نشر الخشب ؟ » فرفع كثير من الطلبة أصابعهم فعاد يسـألهم .. « وكم منكم مارس نشر « نشارة الخشب ؟ » فلم يرفع أحد اصبعه . وعندئذ قال مسـتر شـد : « بالطبـع لا يمكن لأحـد أن ينشر نشـارة الخشب » ، فهى « منشورة » فعلا ، وكذلك الحال مع الماضى. «فعندما ينتابكم القلق لأمور حدثت فى الماضى فاعلموا أنكم تمارسون نشر النشارة ! » .

* * *

عندما بلغ « كونى ماك » لاعب « البيسبول » المشـهور ، الواحدة والثمانين من عمره ، سألته هـل كان يقلق من اجـل المباريات التى خسرها ، فأجاب : « نعم . كنت أقلق فى وقتما ولكنى تغلبت على هذه الحماقة منذ سنوات عـديدة مضت .. فقد وجدت أن القلق على الماضى لا يجدى شيئا ، تماما ، كمـا لا يجديك أن تطحن الدقيق ! » .
نعم ! ليس يجديك أن تطحن الدقيق ، ولا أن تنشر النشارة، وكل ما يجديك اياه القلق هو أن يرسم التجاعيد على وجهك ، أو يصيبك بقرحة فى المعدة .

* * *

تناولت العشاء ، أخـيرا مع « جاك دمبسى » بطل الملاكمة القديم المعروف ، فحدثنى عن مباراته مع « تونى » التى خسر فيها لقب « بطل العالم فى الوزن الثقيل » ، وكانت بلاشك ضربة لكبريائه .. قال :

« فى غمار تلك المعركة ادركت أننى أصبحت عجوزا ، وفى نهاية الجولة العاشرة ، زايلنى الأمـل فى الفوز اطـلاقا ، وان كنت ظللت واقفا على قدمى .. فقـد كان وجهى يدمى .. وعيناى لا تبصران شيئا . وشاهدت الحكم وهو يرفع ذراع «جين تونى» معلنا فوزه بالبطولة ، فعرفت أننى لم اعد بطلا ، واتخذت طريقى الى حجرتى وسط حشود المتفرجين . بينما المطر ينهمر بشدة.. وحاول بعض النظارة أن يمسكو بيدى معزين مواسين ، ولمحت الدموع تترقرق فى مآقى بعضهم الآخر .

« وبعد مضى سنة على هذه الهزيمة ، نازلت تونى مرة أخرى ولكن بلا جـدوى .. فقـد قضى على الى الأبد . وكم كان من الصعب على أن أبعد عن نفسى القلق الذى جلبه الى اليـأس ولكننى قلت لنفسى : اننى لن أعيش فى المـاضى ولن أبكى على ما فات لسوف أحتمل هذه الضربة واقفا ، ولن أدعها تطرحنى أرضـا » .

وهذا بالضبط هو ما فعله جاك دمبسى ، وكيف ؟ لأنه قال : « لن أقلق على الماضى قط » ؟ كلا ! فان هذا كان جـديرا بأن يدفعه الى التفكير فى الماضى واسـتزاده قلقه . وانمـا بتسليمه بهزيمته أولا ، ثم بتحويل ذهنه الى مشروعات المستقبل ثانيا فانه لم يلبث أن افتتح مطعما فى « برودواى » ، وفندقا فى الشـارع السابع والخمسين .. وفضلا عن هذا تبرع بجوائز للملاكمة ، وجعل يقيم استعراضات للملاكمة بين حين وآخر .. لقد شغل نفسه بمشروعات انشائية حتى لم يبق له من الوقت ما يتيح له التفكير فى المـاضى . قال لى دمبسى : « لقد عشت فى خـلال السنوات العشر الماضية عيشة أفضل بكثير من تلك التى كنت أعيشها وأنا بطل العالم » .

* * *

اننى اذ أقرأ كتب التاريخ ، والتراجم ، وأتأمل تصرفات الناس فى مختلف المواقف ، تتملكنى الدهشة من مقدرة بعض الناس على

محو قلقهم ومآسيهم ، والاستغراق فى الحياة كأن شيئا لم يحدث، لقد زرت مرة سجن « سنج سنج » . فأدهشنى أن نزلاءه لايقلون حظا من السعادة عن اقرانهم خارج جدران السجن .. وقد أفضيت بهذه الملاحظة الى مدير السجن « لويس لوز » ، فقال « ان المحكوم عليهم بالسجن حين يأتون الى هنا يحسون المرارة، وتعتمل فى نفوسهم الثورة ، فما ان تنقضى بضعة أشهر ، حتى يمحو الأذكياء منهم كل تفكير فى تعاستهم وسوء حظهم ، ويسلموا بحياة السجن ، ويمضونها فى هدوء وسكينة » وقد حدثنى « لويس لوز » عن سجين من نزلاء « سنج سنج » يشتغل بستانيا ، كان يغنى وهو يغرس البذور والأزهار فى حقول السجن ، ثم أردف قائلا « ان البستانى على حظ من الذكاء يفوق الكثيرين منا فهو يعمل بقول الشاعر :

« اذا القول قيل أو اللفظ كتب ،
« أو الخاطر جال أو الفكر وثب ،
« فليس يرد القول جهد ولا نصب ،
« وليس يعيد الفكر مدمع سكب »

فلماذا تضيع الدموع هباء وليس فى استطاعتها أن تعيد مامضى وولى ؟ لاشك أننا جميعا ارتكبنا كثيرا من الأخطاء والحماقات ، فمن ذا الذى خلق معصوما من الخطأ ؟ فلا تتحسر قط على ما فات من أخطائك ، لأن الحسرة لن تجديك فتيلا ، لأنه ليست هناك قوة فى العالم يسعها أن تعيد الماضى ، أو تغير منه أو تبدل واذكر دائما القاعدة رقم (٦) :

لاتحاول أن تنشر النشارة .

الجزء الثالث فى سـطور

القاعـدة رقم (١) :

انشغل عن القلق بالاستغراق فى العمل فان العمل هو خير علاج للقلق أخرج للناس .

القاعدة رقم (٢) :

لا تهتم بالتوافه ، ولا تدع صـغائر المشـكلات تهـدم سعادتك .

القاعـدة رقم (٣) :

كلما ساورك القلق على شيء سائل نفسك « الا يحتمل الا يحدث هذا الشيء الذى أقلق من أجله اطلاقا ؟ » .

القاعـدة رقم (٤) :

ارض بما ليس منه بد ، واذا أدركت أن الفرصة لتغيير شيء أو تبديله قد تجاوزتك الى غـير رجعة فقل لنفسك : « هـكذا أريد للأمر أن يكون ولا يمكن الا أن يكون الأمـر هـكذا » .

القاعـدة رقم (٥) :

ضع حـدا أقصى للقلق . قدر قيمـة الشيء ، ولا تعطه من القلق أكثر مما يستحق .

القاعـدة رقم (٦) :

دع التفكير فى الماضى ، فليست هناك قوة يسعها أن تعيد الماضى ، ولا تحاول قط أن تنشر النشارة .

الجزء الرابع

سبع طرق لخلق اتجــاه ذهنى
يجلب لك الطمانينة والسعادة

الفصل الثانى عشر

حياتك من صنع افكارك

منذ سنوات قلائل مضت ، طلب الى فى أحد برامج الاذاعة أن أجيب على السؤال التالى : « هل فى حياتك درس لا ينسى ؟» وكان الجوابمن البساطة بمكان ، فقد قلت على الفور :«الدرس الذى وعيته ولن أنساه ، هو ان للأفكار المسيطرة على المرء تأثيرا عظيما فى تكييف حياته » . ان أفــكارنا هى التى تصــنعنا ، واتجاهنا الذهنى (Mental Attitude) هو العامل الأول فى تقرير مصائرنا . قال ايمرســـون : « نبئنى بمـــا يدور فى ذهن الرجل ، أنبئك اى رجل هو » . نعم ! فكيف يكون الرجل شيئا آخر غير ما ينبىء عنه تفكيره ؟

واعتقادى الذى لا يتطرق اليه الشـــك ، أن المشكلة الكبرى التى تواجهنا جميعا هى كيف نختار الأفكار الصائبة السديدة . فاذا حللنا هذه المشكلة حلت سائر مشكلاتنا ، وزالت احـــداها فى اثار الأخرى . وقد لخص الفيلسوف « ماركوس أوريليوس» الذى حــكم الامبراطورية الرومانيـــة ، هــذه المشكلة فى ثمانى كلمات ... ثمانى كلمات يسعها أن تغير مجرى حياتك ، وهى:

- Our Life is What our thour thoughts make it

اى : « ان حياتنا من صنع أفكارنا » .

أجل . فاذا نحن راودتنا أفكار سعيدة كنا ســـعداء ، واذا

تملكتنا أفكار شقية أصبحنا أشقياء ، واذا سادتنا أفكار مزعجة غدونا خائفين جبناء ، واذا سيطرت علينا أفكار السقم والمرض، فالأرجح أن نمسى مرضى سقماء ، واذا نحن فكرنا فى الفشل ، أتانا الفشل فى غير ابطاء ، واذا جعلنا نندب أنفسنا ، ونرثى لها اعتزلنا الناس ، وتجنبوا عشرتنا .

قال « نورمان فنسنت بيل » : « انك لست من تفكر انه أنت، وانما أنت ما تفكر » (١) .

اترانى أدعو الى اتخاذ موقف ذهنى سلبى حيال كل مايعترضنا من مشكلات ؟ فالحياة لسوء الحظ لا تعفينا قط من العمل ، انما أنا أدعو الى اتخاذ موقف ايجابى ، بمعنى أن « نواجه »مشكلاتنا لا أن « نقلق » من أجلها فما الفرق بين مواجهـــة المشكلات ، و « القلق » من أجلها ؟ دعنى أضرب لك الأمثال :

فى كل مرة أعبر فيها أحد شوارعنيويورك المكتظة بالمواصلات فانني « أواجه » ما أنا فاعله ، ولا أقلق من أجله .. فالمواجهة معناها ادراك كنه المشكلة ، واتخاذ الخطوات اللازمة الايجابية لحلها فى هدوء واتزان . أما القلق فمعناه اللف والدوران حول المشكلات فى غير وعى ولا ادراك .

وقد يستطيع الرجل أن يواجه أشد المشكلات قسوة وتعقيدا، بينما هو يغـــدو ويروح مرفوع الرأس ، مشرق الوجـــه ، وقد يرشق زهـــرة أنيقة فى ســـترته !! ولقـــد رأيت بنفسى « لويل توماس » يفعل هذا .. فقد حظيت ذات مرة بالاشتراك معه فى تقديم أفلامه الشهيرة عن حملات « اللنبى ولورنس » فى الحرب العالمية الأولى . كان هو ومساعدوه قد التقطوا مناظر الحرب فى ست من جبهات القتـــال ، وكان أهم تلك المنـــاظر جميعا ،

---

(1) "You are not what thimk but , what you think yor are Norman Vincent Peale.

ما سجل للكولونيل لورنس على راس الجيش العربى ، واللورد اللنبى اثناء غزوة فلسطين . وقد لاقت تلك الأشرطة السينمائية التى كانت تسمى « مع اللنبى فى فلسطين ، ولورنس فى جزيرة العرب » ، رواجا منقطع النظير فى بريطانيا وسائر أنحاء العالم، بل لقد تأجل موسم الأوبرا فى لندن لمدة ستة أسابيع ، حتى يتاح لأفلام « لويل توماس » المثيرة أن تعرض فى « دار الأوبرا الملكية — كوفنت جاردن » . فلما لاقت هذه الأفلام رواجا كبيرا فى لندن ، شرع « لويل توماس » فى القيام برحلة ناجحة حول العالم لعرض أفلامه . وحين فرغ من رحلته ، أمضى عامين وهو يستعد لاخراج فيلم عن الحياة فى الهند وافغانستان ، وقد باء هذا المشروع بالفشل الذريع ووجد « توماس » نفسه فى لندن مفلسا معدما .. وكنت أنا معه فى ذلك الحين . واذكر اننا كنا نتناول أرخص الوجبات ثمنا فى أرخص المطاعم ، وما كنا لنتناول وجبات على الاطلاق لو لم نقترض ثمنها من « جيمس ماكس » الفنان الاسكتلندى المعروف .

وهدفى من سرد قصة « لويل توماس » أنه رغم غرقه فى الديون ، وبرغم خيبة الأمل التى منى بها .. كان « يواجه » مشكلته ، ولا يقلق من أجلها .. فقد كان يعلم انه لو امتثل للقلق لسقط من أعين الناس ولقضى عليه ، ومن ثم ، فقد كان يستحضر ، قبل خروجه من بيته كل يوم ، وردة نضرة يثبتها فى عروة سترته ،ويخرج هكذا الى « شارع اكسفورد » مرفوع الرأس ثابت الخطوات .

كان تفكيره ايجابيا ، فرفض أن يستسلم للهزيمة ، وكان قويا فلم تنل منه خيبة الأمل ، وكان حكيما فاتخذ من هذه المحنة التى مر بها حنكة لا غناء عنها لكل من أراد ان يصل الى القمة .

ان لاتجاهنا الذهنى تأثيرا عجيبا حتى فى قوتنا ، وقد أوضح العالم النفسانى الانجليزى « ج. ا. هادفيلد » هذه الحقيقة

فى كتابه الرائع « سيكولوجية القوة » (١) .

قال : أجــريت على ثلاثة رجال تجربة لاختبار تأثير الاتجاه الذهنى فى قوامهم ، التى كنت أقيسها بواسطة « ديناموميتر » جعلتهم يقبضون عليه بكلتــا يديهم وبجمـــاع قوتهم . وقد قسم هادفيلد التجربة الى ثلاث مراحل ففى المرحلة الأولى اختبر قوة الرجال الثلاثة وهم فى اكتمال وعيهم ، فكان معدل قوتهم ١٠١ رطلا ثم نومهم تنويما مغناطيسيا واوحى بأنهم غاية فى الضعف والوهن ، فكان معدل قوتهم ٢٩ رطلا ــ اى اقل من ثلث قوتهم العادية ! ــ وكان أحد هؤلاء الثلاثة رياضيا معروفا ، فلما قيل له وهو تحت تأثير التنويم المغناطيسى انه ضعيف ، عقب على ذلك بقوله : انه يشـــعر كأن ذراعه نحيلة واهنة كذراع الطفل الوليـــد ! .

وفى المرحلة الثالثـــة أوحى اليهم ، وهم تحت تأثير التنـــويم المغناطيسى انهم غاية فى القوة فاربى معدل قوتهم على ١٤٢ رطلا! اى انهم عندما امتلأت أذهانهم بفكرة القوة ، ازدادت قوتهم فعلا بنسبة خمسمائة فى المائة تقريبا ! .. هذا هو التأثير العجيب للاتجاه الذهنى .

ولكى أعطيك فـــكرة عن قوة التفكير (Thought) دعنى أروى لك قصة من أعجب القصص ، استطيع أن أوجزها لك ، رغم أنها طويلة يمكن أن تملأ كتابا بمفردها .

فى ليلة قارسة البرد من ليـــالى شهر أكتوبر ، عقب انتهـــاء الحرب الأهليـــة الأمريكيـــة بفترة وجيزة ، طرقت باب « الأم وبستر » (٢)ــ وهى زوجة قبطان بحرى متقاعد كان يعيش فى بلدة « آمزبرى » بولاية ماساتشوستس ــ امـــرأة مشردة ،

---

(1) J. A Hadfield "Psychology of Power"

(2) Mother Wepster

لا عائل لها ولا مأوى . وفتحت « الأم وبستر » الباب فوجدت نفسها حيال مخلوقة واهنة ، محطمة لاتزن اكثر من مائة رطل من الجلد والعظام .. واوضحت لها الطارقة ، وتدعى « مسز جلوفر » أنها تفتش عن مأوى تأوى اليه ليلتها تلك ... قالت لها مسز وبستر : « ولماذا لا تقيمين معى ؟ اننى وحيدة فى هذا المنزل الكبير » .. وكان من المحتمل أن تقيم مسز جلوفر مع المسز وبستر دواما ، لولا ان « بيل اليس » زوج ابنة الأخيرة ، حضر من نيويورك فى اجازة ، فلما رأى « مسز جلوفر » صـــاح فى حماته قائلا : « لا أريد أن يأوى هــذا البيت المشردين وابنـــاء السبيل ! » ، وقوله هذا بأن القى بالمــرأة الشريدة الى عرض الطريق . وكان المطر يهطل مــدرارا ، فوقفت المــرأة البائسة تحت المطر الهتون برهة ، ثم درجت فى الطريق الزلقة ، لا تلوى على شيء ! .

والجانب العجيب فى هــذه القصة أنه قد قدر لهــذه المرأة البائسة الشريدة التى طردها « بيل اليس » أن يكون لهـــا من « التأثير الفكرى » فى العالم اجمع ، أكثر مما كان لأية امـــرأة سواها عاشت على الأرض !! وهى تعرف الآن لدى الملايين من تلاميذها وأبنائها المخلصين باسم « مارىبيكرايدى » — مؤسسة « العلم المسيحى » (١) .

غير أن هذه السيدة لم تكن تعلم فى ذلك الوقت شيئا منأمور الحياة ، اللهم الا الجوع ، والفقر ، والمرض فقــد مات زوجها بعد زواجهما بوقت قصير ، وهجرها زوجها الثانى هاربا مع امرأة متزوجة ، ثم وجد فيما بعد ميتا فى منزل حقير ، وكان لها ولد واحد ، لكنها الفت نفسها ، مدفوعة بالفاقة والمرض والبؤس الى التخلى عنه حين بلغ الرابعة من عمره ، ثم فقدت كل أثر له بعد ذلك ، فلم تره أبدا لمدى واحد وثلاثين عاما ! .

---

(1) Mary Baker Eddy-Founder of "Christian Science"

ولما كانت « مسز ايدى معتلة الصحة على الدوام ، فقد انساقت الى الاهتمام بما أسمته « العلاج بقوة العقل » The science of mind healthing وقد وقعت نقطة التحول الأساسية فى حياتها فى مدينة «لين» بولاية ماساشوستس فبينما هى تجوب طرقات البلدة ذات يوم ، اذ زلت قدمها ، فسقطت على الافريز المكسو بالجليد ، وراحت فى اغماء طويل ، وكان من جراء سقطتها هذه ، أن أصيب عمودها الفقرى باصابة بالغة وتوقع لها الأطباء اما الموت العاجل واما الشلل التام الذى يقعدها طيلة حياتها ! .

وبينما « مارى بيكر » راقدة على فراش المرض ذات يوم، اذ فتحت « الكتاب المقدس والهمتها العناية الالهية — كما صرحت هى — ان تقرأ هذه الكلمات للقديس متى « واذا مفلوج يقدمونه اليه مطروحا على فراش ... حينئذ قال للمفلوج : قم احمل فراشك ، واذهب الى بيتك ، فنهض وغادر المكان » .

قالت « مارى بيكر » : ان هذه الكلمات امدتها بقوة وايمان. وبقدرة داخلية ، حتى انها نهضت من الفراش ، وتمشت فى الغرفة ! . مهدت هذه التجربة « لمسز بيكر » الطريق الى شفاء نفسها وشفاء الآخرين ، واكسبتها يقينا راسخا ان علتها لم تكن الا ظاهرة عقلية ، فحين امتلأ ذهنها بفكرة الصحة والقوة غدت صحيحة قوية .

* * *

تلك هى التجربة التى مكنت « مارى بيكر ايدى » من أن تصبح مبشرة بدين جديد ، لعله الدين الوحيد الذى بشرت به امرأة ، وذلك هو « العلم المسيحى » .

ولعلك الآن أيها القارىء تقول لنفسك : « ان هذا الرجل ، كارنيجى ، قد انقلب مروجا لمبادىء « العلم المسيحى » . كلا ؛ فلست من أتباع العلم المسيحى ، ولكنى كلما امتدت بى الحياة.

ازدادت اقتناعا بقوة الفكر ، ومـدى تأثيره على الجسد . وانا أعرف رجالا ونساء يسعهم اقصاء القلق والمخاوف والأمراض ، بل يسعهم تحويل مجرى حياتهم تحويلا شاملا عن طريق أفكارهم ، وقد رأيت بنفسى هذا التحول يطرأ على حياة بعض الناس ، حتى حتى ان مثل هذا التحول لم يعد يبدو لى مستغربا .

وقد حـدث تحول من هـذا النوع لطالب من طلبتى ، يدعى « فرانك هويلى » من أهالى « سانت بول » بولاية مينيسوتا . حدثنى فرانك بقصته فقال : كنت اقلق من اجـل كل شىء . من اجل نحافتى ، ومن اجل تساقط شـعر راسى ، وكنت أخشى الا استطيع الزواج من الفتـاة التى اريدها ، الا أحيـا الحياة التى اشتهيها ، وكنت اقلق من أجل الأثر الذى اتركه فى الناس ، ومن اجل ظنى أننى مصاب بقرحة فى المعدة ، ولم أستطيع الاستمرار فى عملى فتركته ، وازداد بى التوتر ، حتى غـدوت كمرجل يغلى وما له من صمام أمان ! ثم آن للمرجل أن ينفجر فانفجر ، واصبت بانهيار عصبى ! . واسأل الله تعالى أن يقيك الانهيار العصبى ، فما من ألم يدانى فى قسـوته ومرارته الألم العاصف الناشىء عن توتر الأعصاب :

« وكان الانهيار العصبى الذى اصابنى ، من الشـدة بحيث لم استطيع أن أكلم احدا حتى من أهلى ، ولم تعد لى سيطرة على أفكارى ، بل كان يتملكنى خوف قاتل ، حتى كنت اهب فزعا لأقل صوت أسمعه ، وتجنبت الناس جميعا ، وأصبحت أنفجر باكيـا بين الحين والحين بغير سبب على الاطلاق .

« كانت أيامى المتوالية ، فى ذلك الوقت ، محنـا متوالية ، واحسست أن البشر جميعـا ، بل العناية الالهيـة أيضا ، قد تخلت عنى ، حتى لقد خطر لى أن اقفز الى النهر ، فاضع حـدا لهذا العذاب .

غير أنى قررت عوضا عن الانتحار ، أن أرحل الى فلوريدا ، مؤملا أن أجد العون فى اختلاف المناظر فلما ارتقيت درجات القطار

سلمنى ابى مظروفا واوصاني الا أفتحه حتى أصل الى فلوريدا، ووطئت قدماى أرض فلوريدا فى أوج موسم الاصطياف ، فلم أهتد الى غرفة واحدة خالية فى فندى ، ثم وفقت أخيرا الى غرفة فى داخل « جراج » ، وحاولت بعد ذلك ، أن التحق بعمل على باخرة شحن تعمل خارج « ميامى » ولكنى لم أوفق ، ومن ثم كنت أقضى الوقت كله على الشاطىء . ولقد عانيت فى فلوريدا بؤسا أشد مما عانيت فى بلدتى .

« وفتحت المظروف الذى أعطانيه والدى ، وقرأت فيه : « ولدى : انك الآن على بعد ألف وخمسمائة ميل من بيتك، ومع ذلك لست تحس فارقا بين الحالتين هنا وهناك ، اليس كذلك ؟ انا أعلم أن الأمر كذلك ، لأنك أخذت معك ، عبر هذه المسافة الشاسعة الشىء الوحيد الذى هو مرد كل ما تعانيه ، ذلك هو نفسك ! لا آفة البتة بجسمك أو عقلك ، ولا شىء من التجارب التى واجهتها قد ترديت بك الى هذه الهوة السحيقة من الشقاء ، وانما الذى تردى بك هو الاتجاه الذهنى الذى واجهت به هذه التجارب فكما يفكر المرء ، يكون . فمتى أدركت ذلك يا بنى ، عد الى بيتك وأهلك ، فانك يومئذ قد شفيت » .

« ولقد اهاجنى خطاب والدى وأغضبنى ، فما كنت أبغى منه النصح والارشاد وانما كنت أطمع فى الشفقة ، والعطف ، والرثاء ، بل وصل بى الغضب الى حد أن قررت الا أعود الى البيت قط . وفى تلك الليلة ، وبينما انا أذرع أحد شوارع ميامى، صادفت كنيسة فى طريقى تقام فيها الصلوات ، ولما تكن لى وجهة معينة ، فقد وجدتنى منساقا الى داخلها لأستمع الى المواعظ الدينية التى تلقى ، وكان عنوانها « هذا الذى يقهر نفسه ، أعظم من ذاك الذى يفتح مدينة » . وكأنما كان جلوسى فى معبد من معابد الله ، وانصاتى الى الأفكار نفسها التى ضمنها أبى خطابه تقال بصيغة أخرى ، بمثابة ممحاة ، محت الاضطراب الذى يطغى على عقلي . فقد وسعنى فى تلك اللحظة ، أن أفكر تفكيرا متزنا

للمرةالأولى فى حياتى . ولقد هالنى اذ ذاك ، أن أرى نفسى على حقيقتها . نعم ! لقد رايتنى اريد اغير الدنيا وما عليها ، فى حين ان الشىء الوحيد الذى كان فى اشد الحاجــة الى التغير ، هو تفكيرى ، واتجاه ذهنى .

« وفى اليوم التالى حزمت أمتعتى ، ويممت شطر بلدتى . ولم يمض أسبوع بعد ذلك حتى عدت الى عملى . ثم لم تمض بضعة اشهر ، حتى تزوجت من الفتــاة التى خشيت أن افقدها . وانا الآن رب اسرة سعيدة مؤلفة من زوجتى وخمسة أبناء . لقــد لطف الله بى ماديا ومعنويا واخرجنى من هذه المحنة بسلام . وفى الوقت الذى دهمنى فيه الانهيار العصبى كنت اشتغل حارســا لبليا أراس ثمانية عشر عاملا . اما اليوم فأنا مشرف على مصنع لانتاج الكرتون ، واراس اكثر من اربعمائة وخمسين عاملا . ان الحياة لتبدو لى الآن امتع واحفــل ، واحسب أننى الآن مقدر قيمة الحياة ونعمها . واذا حاول الآن شىء من القلق أن يتسرب الى نفسى كما يفعل مع كل نفس — فانى أقول لنفسى : اضــبط اتجاهك الذهنى وزنه ،وسوف يسير كل شىء على ما يرام .

* * *

« واننى لا يسعنى الا أن اغبط نفسى مخلصا على أننى أصبت بالانهيــار العصبى ! .. فقد تعلمت مــدى سيطرة عقولنا على اجسامنا ، وفى استطاعتى الآن ان استنهض افكارى الى العمل فى صالحى — كما أننى أدرى الآن أن أبى كان على حق حين قال: ان التجارب ليست هى سر مرضى ، وانما موقفى منها . واتجاهى الذهنى حيالها هما سر ما الم بى » .

* * *

تلك كانت التجربة التى عاناها « فرانك هويلى » ولعلك تقتنع بعدها بأن سلامة عقولنا ، واستمتاعنا بالحياة ، وتقديرنا لنعمها لا تعتمد على ماهيتنا ، أو على مقدار ما نملكه وانما تعتمد على

طبيعة اتجاهنا الذهني فحسب . ودعني أضرب لك مثلا آخر « جون براون » الذى أعدم شنقا لأنه احتل الترسانة فى «هاربرز فيرى » وحاول أن يحرض العبيد على الثورة . لقد سيق الى غرفة الاعدام وهو جالس فوق اكتافه ، وجلاده الى جواره ، وكان الجلاد قلقا مهتاج الأعصاب ، أما جون براون العجوز ، فكان يشمله الهدوء والاطمئنان ! .. وحين تطلع الى قمم جبال « بلوردج » فى فرجينيا ، هتف من أعماق قلبه : « يا لها من بلاد جميلة ! ان الفرصة لم تسنح لى من قبل كى أراها فى اكتمال بهائها ! » .

أو خذ مثلا « روبرت فالكون سكوت » وأصحابه ، وهم أول جماعة من الانجليز ارتادت القطب الجنوبى . فلعل رحيلهم الى القطب كان أقسى رحلة قام بها انسان . فقد نفد طعامهم ، ووقودهم ، وعتادهم . ولم يسعهم الاستمرار فى السير بعد أن حاصرتهم عاصفة ثلجية هوجاء ، ظلت تعصف بطرف الكون الجنوبى أحد عشر يوما بلياليها . وكان « سكوت » وصحبه يعلمون أنهم ملاقون حتفهم ، وكانوا قد استحضروا معهم كمية من المخدر لمواجهة الموت ، فما هى الا جرعة كبيرة من المخدر يتناولها كل منهم حتى يستغرق رويدا فى نوم لا يفيق منه أبدا .. لكنهم تجاهلوا المخدر ، وماتوا وهم ينشدون الأغانى والأهازيج المرحة ! وقد علم الناس بميتتهم هذه من خطاب وجدته على جثثهم المتجمدة قافلة استكشافية ارتادت القطب بعد ذلك بنحو ثمانية شهور ! اننا لو داعينا الأفكار الانشائية ، المشجعة ، الهادئة ، لاستطعنا أن نستمتع بكل لحظة من لحظات حياتنا ، حتى ولو كنا على فراش الموت ، أو مساقين الى حبل المشنقة، أو ضاربين فى ثلوج القطب الجنوبى .

وقد وقع الشاعر ملتون ، برغم فقد بصره ، على هذه الحقيقة منذ ثلاثمائة عام مضت اذ قال :

« فى وسع العقل أن يخلق ، وهو فى مكانه مقيم

جحيما من الجنـــة ، أو نعيمـــا من الجحيم »

ومن الأشخاص الذين تنطبق عليهم كلمات « ملتون » هذه ، « نابليون » ، « وهيلين كيللر » .. لقـــد حصـــل « نابليون » على اقصى ما يطمع فيه انسان من المجد ، والجاه ، والسلطان ، ورغم ذلك كله ، فقد قال يوما فى منفاه بجزيرة «سانت هيلانة »: « اننى لم أذق فى حياتى السعادة الحقة ستة أيام سويا ! » فى حين صرحت « هيلين كيللر » يوما — وهى العمياء ، الصماء ، البكماء — بقولها « لقـــد استمتعت بمناهج الحيـــاة ، ونعمت بجمالها » ! واذا كان نصف قرن من الحياة على هـــذه الأرض قد علمنى شيئا ، فذلك « هو انه ما من شيء على الاطلاق يســـعه ان يواتيك بالراحة والاطمئنان سوى نفسك » .. وانا اذ اقول هذا ، انما اكرر ما سبق أن قاله « ايمرسون » فى ختام مقـــاله الممتع عن « الثقة بالنفس » : « انتصارا سياسيا ، أو ازديادا فى دخلك ، أو شفاء مريض عزيز عليك ، او عودة صديق حبيب الى قلبك ، أو اى عامل آخر من هذه العوامل « الخارجية » يبعث السرور فى نفسك ، فتحسب أن الأوقات السعيدة قد واتتك أخيرا ولكنى أنصحك الا تتمادى فى هذا الظن ، فلا شيء يسعه أن يجلب لك السعادة الحقة الا نفسك »! .

وقد حذرنا ، « ابكتيتوس » ، الفيلسوف الروائى ، بأن ازالة الأفكار الخاطئة من العقل أجدى بكثير من ازالة أورام الجسد . الفى ابكتيتوس بتحذيره هذا منذ تسعة عشر قرنا مضت ، ومع ذلك فان الطب الحديث يؤيده . فقد صرح الدكتور « ج . كابتى روبنسون » أن أربعة مرضى من كل خمســـة ينزلون بمستشفى « جونز هوبكنز » يشكون أمراضا عضـــوية تدخلت فى اجتلابها الأعصاب المتوترة ، والضغط الداخلى . واستطرد الدكتور يقول: « ويمكن ارجاع تلك الأمراض عموما الى عجز المرء عن الملاءمة بين نفسه ومطالب الحياة أو مشكلاتها » .

وقد اتخـــذ « مونتان » الفيلسوف الفرنسى الكلمات التاليـــة

شعارا له فى الحياة : « ان المرء لا تضــيره الحوادث ، وانمــا الذى يضيره حقا هو تقديره للحوادث .. وتقديرنا للحوادث امر متروك لنا وحدنا » .

ماذا تظننى — ايها القارىء — احاول ان اقول ؟ .. اترانى انصــحك ، متى غرقت فى مشكلة من مشكلات الحياة ، توترت لها اعصابك ، واهتاجت لها خواطرك ، وذهب لهــا تفكيرك كل مذهب ، أن تتخير ، بمحض اختيــارك ، الموقف الذهنى الذى تقفه منها ؟ نعم ! هذا بالضبط هو ما اهدف اليه ! ليس هــذا وحسب ، بل اننى سوف ابين لك هنا كيف تفعل هذا :

قال « وليم جيمس » العالم النفسانى الذى لم يدانه احد من العلماء فى مضمار علم النفس العملى : « الذى يبدو لنا جميعا أن الفعل يعقب الاحساس . ولكن الواقع أن الفعل والاحساس يسيران جنبــا الى جنب .. فاذا ســيطرنا على الفعل الذى يخضــع مباشرة للارادة . امكننا بطريق غير مباشر ان نسيطر على الاحساس » .

أو ، بمعنى آخر يريد « وليم جيمس » أن يقــول :ليس فى استطاعتنا أن نغير شيئا من احساساتنا بمحض ارادتنا ، ولكن فى استطاعتنا ان نغير افعالنــا ، فاذا غيرنا افعالنا ، تغــيرت احساساتنا بطريقة آلية .

ويستطرد « وليم جيمس » فيقول : « ومن ثم ، فان الطريق المفضية الى السعادة — اذا افتقدت السعادة — هى ان تبدو كما لو كنت سعيدا .. » .

هل وقفت على السر الآن ؟ انه من البساطة بمكان . جربه بنفسك : ارسم على وجهك ابتسامة عريضــة ، وارجع كتفيك الى الوراء ، واملأ رئتيك بالهواء ، وغن مقطعا من اغنية ، او صفر بفمك ان كنت لاتستطيع الغناء ، او همهم ان كنت لاتستطيع الصفير ، وحينئذ سوف تدرك فى التو واللحظة ، ما يعنيه «وليم

جيمس » .. وسوف ترى أن من المحال أن تلبث منقبضا كئيبا وانت « تصطنع » السعادة ! .

أعرف امرأة فى كاليفورنيا — امسك عن ذكر اسمها — يسعها أن تمحو شقاءها جميعا فى مدى أربع وعشرين ساعة لو أنها وقفت على هذا السر . انها أرملة عجوز — وهذا أمر يبعث على الاكتئاب حقا — ولكن هل تراها حاولت قط أن تتكلف السعادة ؟ كلا ! اذا سألتها : « كيف حالك ؟ » أجابتك : « اننى بخير » ، ولكن التعبير المرتسم على وجهها ، والبؤس المطل من عينيها ، والنغمة التى تحملها كلماتها ، كلها تصرخ فيك قائلة : « يا الهى ! لو انك فقط علمت بالأهوال التى مررت بها ! » وانها ليبدو عليها كأنها تلومك ، لأنك تظهر السعادة فى حضرتها! والواقع أن آلاف النساء أسوأ منها حالا . فقد ترك لها زوجها بعد وفاته ، مالا ، هو قيمة التأمين على حياته ، يكفيها لأن تعيش عيشة رغدة لينة ، ماتبقى لها من العمر . ولها أبناء متزوجون يوفرون لها المأوى ، ولكن قلما رأيتها تبتسم ! انها تشكو على الدوام .. تشكو من أزواج بناتها وفظاظتهم وانانيتهم .. ومن أن بناتها لا يقدمن لها الهدايا ، فى حين أن لها من مالها ما يغنيها عن معونة أى انسان .. انها على الجملة ، مبعث شقاء لنفسها ولعائلتها .

ولكن — هل كتب عليها أن تظل كذلك ؟ هذا هو وجه الأسف! ففى استطاعتها ، لو شاءت ، أن تحيل نفسها من امرأة شقية تعسة كئيبة ، الى سيدة محبوبة ، لطيفة المعشر ، معززة من أفراد أسرتها . وكل ما يقتضيه الأمر أن تصطنع المرح ،وأن توجه ما بقى فى قلبها من حب الى الناس ، بدلا من ان تنفقه فى الرثاء لنفسها ، وبكاء حظها ! .

وأعرف رجلا من « انديانا » ، يدعى « هـ. ج. انجلرت » يرجع السبب الأول فى بقائه الى الآن على قيد الحياة الى وقوفه على هذا السر . فمنذ عشرة أعوام خلت ، مرض مستر انجلرت

بالحمى القرمزية ، فلما شفى منها أصيب بالتهاب فى الكلى ، وقد جرب كل صنوف الأطباء ، بل المشعوذين أيضا ، فلم يجد عند أحد منهم شفاء ، ومنذ وقت قصير مضى ، أصيب ، فضلا عن هذا كله ، بضغط الدم ، وذهب الى الطبيب ، فقال له ان ضغط الدم بلغ حدا من ارتفاع خطير هو ٢١٤ ، وانه يوالى الارتفاع ، فعليه — والحالة هذه — أن يتأهب لملاقاة الموت ! .

قال لى مستر انجلرت : « وعدت الى بيتى فى ذلك اليوم ، فتحققت من أننى سددت اقساط التأمين على حياتى ، ثم سألت الله العفو والمغفرة عما بدر منى من ذنوب ، واستغرقت فى خواطرى السوداء الكئيبة .

« لقد أشقيت كل انسان .. اشقيت زوجتى وأهلى ، وغرقت انا نفسى فى بحر من الشقاء لا يسير له غور . وانقضى أسبوع، وانا أجتر خواطرى الكئيبة ، وفجأة قلت لنفسى : انك تتصرف كأحمق . انك قد لا تموت قبل سنة مثلا ، فلماذا لا تحاول أن تعيش ما بقى لك من العمر فى سعادة ونعيم ؟

« وشددت كتفى ، ورسمت ابتسامة على وجهى ، وجعلت اتظاهر كما لو كانت السعادة ملك يمينى . واعترف اننى صادفت بعض العناء أول الأمر ، فى تكلف السعادة . ولكنى قسرت نفسى على أن أكون مرحا ، مسرورا ..ومنذ ذلك اليوم بوات أستشعر تحسنا فى صحتى ، واستمر التحسن .

« واليوم ، وقد انقضت اشهر طوال على الموعد الذى كان ينبغى فيه أن أوسد اللحد ، اشعر لا بالسعادة ، وبهجة الحياة فحسب ، بل بالصحة والعافية أيضا ، فقد شفيت من ضغط الدم وانى لأعلم شيئا واحدا على اليقين ، ذلك هو نبوءة الطبيب لى بوفاة عاجلة كانت تتحقق فعلا ، لو اننى دابت على التفكير فى الموت ، واستسلمت لحزن والشقاء ، ولكنى اتحت لجسدى فرصة الشفاء ، بأن غيرت اتجاهى الذهنى من المرض الى الصحة ! » .

هل لى لذا أن أوجه سؤالا : اذا كان مجرد تكلف السعادة ، والتفكير فى الصحة ، فى وسعه أن ينقذ حياة هذا الرجل ، فلماذا نصبر ، أنا وأنت ، لحظة واحدة على انقباضنا ، وأحزاننا ؟ لماذا نجعل أنفسنا ، وكل من حولنا ، أشقياء محزونين ، فى حين أن فى استطاعتنا اجتلاب السعادة بمجرد اصطناعها ؟

* * *

منذ عدة سنوات ، قرأت كتابا صغيرا ترك فى نفسى أثرا لا يمحى ، عنوانه « كما يفكر الانسان » (١) ، ومؤلفه هو « جيمس لين ألن » . وقد جاء فى هذا الكتاب ما يلى :

« سيجد المرء، متى غير اتجاهه الذهنى حيال الأشياء والناس أن الأشياء والناس سيستجيبون لهذا التغير بمثله ... دع انسانا يغير اتجاه أفكاره ، وسوف تملكه الدهشة لسرعة التحول الذى يحدثه هذا التغير فى جوانب حياته المتعددة . ان القدرة الالهية التى تكيف مصائرنا ، موضوعة فى أنفسنا ، بل هى أنسفنا ذاتها، وكل مايصنعه المرء هو نتيجة مباشرة لما يدور فى فكره ، فكما أن المرء ينهض على قدميه . وينشط . وينتج بدافع من أفكاره ، كذلك يمرض ، ويشفى بدافع من أفكاره أيضا » .

جاء فى الكتا بالمقدس ، فى « سفر التكوين » ان الخالق جل وعلا ، وكل بالانسان السيطرة على الأرض وما فيها ، وتلك عطية عظيمة ، ولكن كل ما أطمع فيه انا هو السيطرة على نفسى وحسب .. السيطرة على أفكارى ، ومخاوفى ، السيطرة على عقلى وروحى . والعجيب حقا اننى أعلم أن هذه السيطرة فى متناول يدى فى أى وقت شئت ، فما على الا أن أسيطر على أفعالى ، التى تسيطر بدورها على احساساتى .

دعنا اذن نذكر كلمات وليم جيمس هذه : « ان كثيرا مما

(1) Games Lane Allen, "As Man thinketh" Publi-shed by Fowler & Co. Ltd.

ندخله فى حساب الرذيلة ، يسعنا أن نحوله لحساب الفضيلة اذا غيرنا اتجاهنا الذهنى ، واحللنا الكفاح محل الخوف » .

فلنكافح من اجل سعادتنا :

فلنكافح من أجل سعادتنا باتبـــاع نهج من التفكير الانسانى السعيد ، واليك هذا النهج ، وعنوانه « لليوم فقط » .. وقد اجدانى هذا النهج كثيرا ، حتى اننى طبعته ووزعته على الناس بالمئات . لقد كتبه منذ ستة وثلاثين عاما «سايبيل بارنريدج »(١) ولو أننا ، انت وأنا ، سرنا وفقا لهذا النهج ، لخلصنا أنفسنا من القلق ، وزدنا حظنا من الاستمتاع بالحياة .

لليوم فقط

١ ــ لليوم فقط سأكون سعيدا . فقد قال ابراهام لنكولن وقوله الصدق « ان معظم النـــاس يصبحون ســـعداء بمقدار ما ينتوون بينهم وبين أنفسهم » ، فالســـعادة تأتى من داخـــل النفس ، وليس للمؤثرات الخارجية دخل فى اجتلابها .

٢ ــ لليوم فقط سألائم بين نفسى وبين كل ما هو حادث ، ولا أحاول أن أوفق بين كل شىء وبين رغباتى . سأرضى بأهلى، وعملى ، وحظى على علاتها .

٣ ــ لليوم فقط سأعتنى بجسمى . سأرعاه ، وأروضه ، وأغذيه ، ولا أسىء اليه أو أهمله ، حـــتى يصبح آلة طيعة فى يدى .

٤ ــ لليوم فقط سأحاول أن أهــذب عقلى . سأتعلم شيئا نافعا ، سأقرأ مادة تحتاج الى مجهود ذهنى ، وامعان فكرى ، واعمل على استيعابها .

٥ ــ لليوم فقط سأصقل روحى . سأسدى معروفا لشخص

---

(1) Sybil F. Partridge

ولا انصح له عن شخصي ، وسافعل على الأقل امرين لا ارغب فى ادائهما ، كما نصح بذلك وليم جيمس .

٦ — لليوم فقط سأكون محبوبا . وسأبدوا فى أحسن هندام، واجمل مظهر ، واتحدث بصوت رزين ، واتصرف بأدب وكرم ، واجزل مديحى للناس ، ولا الوم احدا أو افتش على اخطاء احد، ولا احاول ان أوجه احدا او سيطر على احد .

٨ — لليوم فقط سأجرب أن أعيش لهـذا اليوم فقط . فلا اواجه كل مشكلات حياتى كلها دفعة واحدة ، ففى وسعى أن أنجز فى خـلال اثنتى عشرة سـاعة أمورا تصبح ضخمة هائلة لو اننى ارجأتها الى آخر العمر .

٧ — لليوم فقط سأصنع لنفسى برنامجا . سأكتب كل ماأود انجازه فى خلال ساعات اليوم . وقد لا اسير على هذا البرنامج، ولكن سأكتبه على اية حال ، فهو يخلصنى من امرين : العجلة والاندفاع .

٩ — لليوم فقط ، سأختلى بنفسى نصف ساعة واسترخى. وفى خلال هذا المدى ، سأتجه بتفكيرى الى الله ، سبحانه ، عسى أن تغدو حياتى أدنى الى الكمال .

١٠ — لليوم فقـط ، سأتجنب الخوف . وعلى الخصوص الخوف من الا اكون سعيدا. وسأتمتع بكل ما هو جميل، وسأقنع نفسى بأن أولئك الذين احبهم يبادلوننى الحب .

فاذا اردت ان تخلق اتجاها ذهنيا يجلب لك الصحة والسعادة، فاليك القاعدة رقم (١) :

فكر فى السعادة واصطنعها ، تجد السعادة ملك يديك

الفصل الثالث عشر

الثمن الباهظ للقصاص

فى ذات ليلة من الليالى التى كنت أخترق فيها غابة (يللوستون) مع بعض أصحابى ، نصبنا مخيمنا تجاه غابة كثيفة الأشجار .

وفجأة برز لنا وحش الغابة المخيف : الدب الأسود . وتسلل الدب الى ظلال الضوء المنبعث من معسكرنا ، وراح يلتهم بقايا طعام يبدو أن خدم الفنادق المقامة فى أطراف الغابة القوها هناك، وفى ذلك الوقت كان « الماجور مارتنديل » أحد رواد الغابات المغامرين ، يمتطى صهوة جواده ، ويقص علينا أعجب القصص عن الدببة ، فكان مما قال : ان الدب الأسود يسعه أن يقهر اى حيوان آخر يعيش فى العالم الغربى ما عدا الثور فى الغالب .. غير انى لاحظت تلك الليلة ، أن حيوانا ضئيلا ضعيفا استطاع أن يخرج من مكمنه فى الغابة ، وأن يواجه الدب غير هياب ولا وجل ، بل أن يشاركه الطعام ذلك هو « النمس » (١) .

ولا ريب فى أن الدب يعلم أن ضربة واحدة من مخلبه القوى تمحو « النمس » من الوجود ، فلماذا لم يفعل هذا ؟ لأنه تعلم بالتجربة أن مناصبة مثل هذا الحيوان الضئيل العداء لن تعود بالضرر الا عليه هو ، فأكرم له واليق بكبريائه أن يغض الطرف عنه .

ولقد تعلمت هذا أنا أيضا ، فطالما ضيقت الخناق على آدميين من طراز هذا « النمس » فعلمتنى التجربة المرة ان اجتلاب عداوة هؤلاء لا تجدى فتيلا ! .

---

(١) النمس : حيوان صغير فى شكل الفأر وحجمه ، أو يزيد قليلا ، ووسيلته فى الدفاع عن نفسه ضد اعدائه ان يفرز مادة كريهة الرائحة ، تزكم الأنوف .

اننا حين نمقت أعداءنا ، فانما نتيح لهم الفرصة الغلبة علينا.. الغلبة على راحتنا وطعامنا ، وصحتنا وسعادتنا ، وان أعداءنا ليرقصون طربا لو علموا كم يسببون لنا من القلق ، وكم يقتصون منا ! ان مقتنـا لهم لا يؤذيهم هم ، ولكنه يؤذينا نحن ، يحيل أيامنا ولياليـنا الى جحيم .

من تظنه قائل هذه العبارة ؟ « اذا سولت لقوم أنفسهم أن يسيئوا اليك ، فامح من نفسك ذكراهم ، ولا تحاول ابدا أن تقتص منهم ، فلو أنك اخترت القصاص ، لآذيت نفسك اكثر مما تؤذيهم » ؟ ان هذه الكلمات تلوح . كما لو كانت صادرة من فيلسوف مثـلى يحلق بذهنه فى أجواز الفضاء ، الا ترى ذلك ؟ ولكن الأمر على العكس ! فقد نشرت هذه الكلمات فى أحد المنشورات التى توزعها ادارة البوليس فى مدينة « ميلووكى »!

فكيف تؤذيك محاولة القصاص ؟ بطرق عدة ... فهى قد تؤدى بصحتك كما ذكرت مجلة « لايف » ا اذ قالت : « ان ابرز ما يميز الذين يعانون ضغط الدم ، هو سرعة انفعالهم ، وامتثالهم للغيظ والحقد » .

ومن ثم ، فأنت ترى ان المسيح عليه السلام ، حين قال : « احبوا أعداءكم » لم يكن يبغى تقويم الأخلاق وحسب ، وانما كان تقويم الأبدان ايضا ، وفقا لمبادىء الطب الحديث . وحين نصح بأن يعفو المرء « الى سبعين مرة سبع مرات » (١) فانما كان يبين لنا كيف نتجنب ضغط الدم ، واضطراب القلب، وقرحات المعدة ، وغيرها من الأدواء .

أصيبت احدى معارفى اخيرا بداء القلب ، فكان ما نصح لها

---

(١) النص الذى وردت فيه هذه العبارة فى الكتاب المقدس . هو كما يلى « تقدم اليه بطرس وقال : يا رب كم مرة يخطىء الى اخى وانا اغفر له ، هل الى سبع مرات (٢٢) قال يسوع : لا أقول لك سبع مرات . بل الى سبعين مرة سبع مرات » (متى ١٨ : ٢١) .

به الأطباء هو الا تدع الى الغضب سبيلا اليها مهما كان السبب، فالأطباء يعلمون أن من يشكو داء القلب قد تكفى غضبة واحدة للقضاء على حياته ، بل ان نوبة من الغضب قد قضت فعلا على حياة صاحب مطعم فى بلدة « سبوكين » بولاية واشنجتون منذ بضعة أعوام ، وأمامى الآن رسالة من « جير سوار ثواب » ، رئيس البوليس فى بلدة « سبوكين » يقول فيها « منذ بضعة اعوام ، توفى « وليم فالكابر » ، البالغ من العمر ثمانية وستين عاما ، وهو صاحب مطعم هذا فى سبوكين ، لأنه اندفع الى الغضب حين أصر طاهيه على أن يتناول القهوة فى فنجانه — أى فنجان سيده ! — فقد أثارت هذه الفعلة غضب صاحب المطعم، حتى انه اختطف مسدسا وراح يطارد الطاهى قاصدا قتله ، ولكنه خر ميتا بالسكتة القلبية ، وما زالت يده قابضة على المسدس ! وقد ورد فى تقرير الطبيب الشرعى أن الغضب هو الذى سبب وفاته الفجائية » .

وحين قال السيد المسيح عليه السلام : « أحبوا أعداءكم » فقد كان أيضا يعلمنا كيف نهتم بتجميل مظاهرنا . فانى أعرف نساء — ولاشك أنك تعرف مثلهن — اكتست وجوههن بالتجاعيد وانقلبت سحنتهن فغدت بغيضة منفرة ، لا لشىء الا لدابهن على الغضب والانفعال ، وليس ثمة وسيلة من وسائل التجميل المعروفة ، تستطيع أن تعيد النضرة والجاذبية الى وجوههن ، مثل قلب عامر بالعفو ، والرقة ، والحب .

ان الكراهية تحطم قابليتنا للاستمتاع بمأكلنا ، وفى ذلك يقول الكتاب المقدس : « لقد يابسة ومعها سلامة خير من بيت ملآن ذبائح مع خصام » (امثال سليمان ١٧٠) .

الا تمتلىء نفوس أعدائنا سرورا وارتياحا اذ هم علموا أن كراهيتنا لهم ترهقنا ، وتحطم أعصابنا ، وتشوه مظاهرنا ، وتبعث الاضطراب فى قلوبنا ، وربما قصرت آجالنا ، فاذا لم نستطع أن نحب أعداءنا فلا اقل من أن نحب انفسنا ، فلا نعطى لأعدائنا

فرصة السيطرة على سعادتنا ، وصحتنا ، ومظهرنا ، وفى ذلك يقول شكسبير :

« لا تنفخ لعدوك نارا أو تزد جذوتها ! » .

« فقد تؤذيك أنت من النار لفحتها ! » .

وعندما نصحنا المسيح أن نعفو « الى سبعين مرة سبع مرات» فانما كان ينصحنا باقامة معاملتنا مع النـــاس على أسس متينة قوية . وأمامى الآن خطـــاب تلقيته من « جورج رونا » ببـــلدة « ابسالا » بالسويد يقص فيه على قصة عجيبة ، كان « جورج رونا » يشتغل محاميا فى « فيينا » ولكنه هرب الى السويد خلال الحرب العالمية الأخيرة ، ولم يكن لديه مال ،ومن ثم كان فى أشد الحاجة الى عمل ، ولما كان ملما بعدة لغات ، فقد رغب فى أن يعمل وكيلا لبعض الشركات التى تشتغل بالتصدير والاستيراد. وقد اجابت معظم الشركات التى كتب اليها بطلب عملا بألا حاجة بها اليه فى الوقت الحاضر نظرا لظروف الحرب ، وانها احتفظت باسمه لحين الحاجة اليه .. ولكن شخصا واحدا ارســـل الى «جورج رونا» خطابا مختلفا يقول فيه : « مخطىء فيما توهمته عن حقيقـــة عملى .. بل انك مخطىء وأحمق معـــا .. وحتى لو كانت بى حاجة اليك لما اخترتك أنت بالذات . فأنت لا تجيـــد كتابة السويدية ، وقد كان خطابك حافلا بالأخطاء » ! وعنـــدما قرأ « جورج رونا » هـــذا الخطاب استشاط غضـــبه ، وثارت عواطفه وهم بأن يكتب الى هذا الرجل خطابا قدر أنه سيقتله غيظا . ولكنه توقف برهة ، وقال لنفسه : « انتظر لحظة ! من يدرينى أن هذا الرجل ليس على صواب انها ليست لغتى الأصلية، ومن ثم فمن المحتمـــل أن أخطىء دون أن أفطن الى أخطائى ، فاذا كان الأمر كذلك فلابد من استزادة معرفتى بهذه اللغة قبـــل ان اسعى للحصول على عمل ، وكون هذا الرجل عبر عن نفسه بطريقة أثارتنى ، لا يغير شـــيئا من امتنانى له ، اذ دلنى على موطن الضعف فى .. ولهذا يجب أن اشكره على صنيعه » .

ومن ثم مزق « جورج رونا » الخطاب الحافل باللوم والتقريع الذى كان قد أعده، وكتب بدلا منه ، يقول : « سيدى المحترم — كان جميلا منك ان تتكلف عناء الكتابة الى خاصة وانك لست فى حاجة الى خدماتى ، وانه ليؤسفنى اشـد الأسف اننى اخطأت فهم حقيقة الشركة التى تتشرف برئاستكم ، ومبعث هذا الخطأ اننى استفسرت عن عدد من الشركات لأعرض عليها خدماتى ، فأعطنى اسمكم بوصفكم علما من أعلام الميدان الذى تشتغلون فيه . والحق اننى لم افطن الى الاخطاء اللغوية التى وقعت فيها، ولذلك اشعر بالخزى والأسف ، وسوف أعكف على التمكن من اللغة السويدية ، وسأحاول فى المستقبل تصحيح اخطائى لأكون عند حسن ظنك بى . وفى الختام أود أن اشكرك على ان هيأت لى فرصة الأخذ بأسباب التحسن والتقدم » .

ولم تمض أيام حتى تلقى « جورج » خطابا من هذا الرجـل يسأله فيه أن يحضر لمقابلته ، وذهب رونا لمقابلته .. وحصل على عمل لديه ! .. لقـد اكتشف « جـورج رونا » بنفسه أن جوابا لينا يسعه أن يدرأ الحقد والغضب .

وقد لا نكون جميعا من عفـة النفس بحيث يسعنا أن نحب أعداءنا ، فلا أقل ، والحالة هـذه ، من أن نحبهم رفقا بصحتنا وسعادتنا نحن ، فهذا ولا شك أولى بذوى الرشـد والحجى ، وقد قال كونفشيوس : « لا يضيرك سب ولا ذم ، وانما يضيرك

سألت مـرة « جون ايزنهـاور » نجـل الجنرال « دوايت ايزنهاور »هل ينفعل أبوه أو يغضب ، فأجاب : « كلا ! اننى ما رأيت ابى يفكر فى خصومه لحظة واحدة » .
أن تفكر فيهما!» .

وهناك قول قديم مأثور ، مؤداه أن الأحمق هو الذى يغضب، أما العاقل فهو الذى « يرفض » ان يغضب ! .. وتلك بالضبط كانت السياسة التى اتبعهـا « وليم جاينور » عمـدة نيويورك الأسبق . فقد حملت عليه الصـحافة الصفراء حمـلة شعواء

استفزت رجلا معتوها فأطلق عليه الرصاص وأوشك أن يقتله ، وبينما العمدة ممدد على فراشه يصـــارع الموت ، كان يقول : « فى كل ليلة أغفر كل شيء وأعفو عن كل لنسان » ! أتراه كان مثاليا ، مغاليا فى المثالية ؟ أم رقيقـــا متناهيا فى الرقة ؟ اذا كنت تراه هذا أو ذاك ، فلنبتغ المشورة عند الفيلسوف الألمانى العظيم « شوبنهور » ، مؤلف كتاب « دراسات فى التشاؤم » (٢) فقـــد كان شوبنهور ينظر الى الحياة على أنها « مغامرة عقيمة أليمة » وكان اليأس يغمره من قمة الرأس الى اخمص القدم ، وبرغم ذلك فقد هتف يوما فى غمرات يأسه : « فى الوســـع الا يجتلب أحد عداء أحد » ! .

وقد سألت « برنارد باروتشى » ـــ الرجل الذى كانمستشارا لستة من رؤساء جمهورية الولايات المتحدة ، ولسن ، وهاردنج، وكولدج ، وهوفر، وروزفلت ، وترومان ـــ ســـألته هل انزعج يوما لحملات أعدائه عليـــه ، فأجاب . « اننى لا اسمح لأحـــد بأن يزعجنى » ! ولا يسع أحد أن يزعجنا ، أنت ، وأنا ، اذا لم نسمح له نحن بذلك .

لطالما أوقد الانسان الشموع ، على مر العصور، تحية لذكرى افراد تشبهوا بالســـيد المسيح ، فلم يحملوا ضغينة لأعدائهم . وكثيرا ما وقفت فى حدائق « جاسبر » فى كندا أسرح الطرف فى اروع الجبال الراسيات فى العالم الغربى طرا ، وهو جبل مهيب الطلعة ، بهى المنظر ، أطلق عليه اسم « اديث كافل » . تلك المرضة الانجليزية التى سيقت تحيط بها هالة القديسين الأبرار الى حتفها رميا بالرصاص على ايدى الجنود الألمـــان فى الثامن عشر من شهر اكتوبر عام ١٩٥٩ . وما كانت جريمتها غير أنها آوت فى بيتها الذى اتخذته مقاما فى بلجيكا ، عددا من الجنـــود الانجليز والفرنسيين ، واطعمتهم من جوع وامنتهم من خوف ، وداوتهم من جراح ، ومهدت لهم سبيل الفرار الى هولنـــده .

(٢) Schopenhaur, "Studies in Pasimism"

وعندما دخل القس الانجليزى الى السجن الحربى الذى زج بها فيه ، فى بروكسل ، ساعة احتضارها ، لم تنطق اديث كافل الا بعبارة واحدة حفرت فيما بعد على رقائق البرونز ، وصور الجرانيت ، وهى : « ان الوطنية وحدها لا تكفى ، بل يجب ايضا الا نحمل حقدا ولا كراهية لمخلوق كائنا من كان » . وبعد مضى أعوام نقل جثمانها الى انجلترا ، واقيمت مراسم الاحتفال به فى كاتدرائية « وستمنستر » . واليوم ينتصب تمثال من صخر انجرانيت فى مواجهة « متحف الصور الوطنى » بلندن National Portail Gallery ، تخليدا لذكرى هذه المراة الخالدة التى قالت يوما : « ان الوطنية وحدها لاتكفى ، بل يجب أيضا الا نحمل حقدا ولا كراهية لمخلوق كائنا من كان ! » .

واحدى الطرق المؤدية الى العفو عن أعدائنا ، هى أن ننشغل بقضية أوسع وأكبر من دائرتنا الخاصة ، وعندئذ لن نبالى شيئا بما يصيب أشخاصنا من اساءة أو عداوة ، لأننا نكون مهتمين اذ ذاك بقضيتنا العظمى ، ولا شىء غيرها . ولأضرب لك مثلا تلك الفاجعة التى أوشكت أن تحدث فى غابات الصنوبر بولاية مسيسبى فى عام ١٩١٨ .. فقد أوشك « لورنس جونز » ، وهو زنجى يشتغل مدرسا وواعظا . أن يشنق على قارعة الطريق ! .

ففى تلك الفترة التى تميزت بجيشان العواطف وتوتر الأعصاب خلال الحرب العالمية الأولى ، سرت اشاعة فى أواسط مقاطعة المسيسبى مؤداها أن الألمان يؤلبون الزنوج على البيض ، ويحضونهم على الثورة ، وكما أسلفت كان « لورنس جونز » زنجيا ، ومن ثم أشيع عنه بأنه يساهم فى حض بنى جنسه على الثورة . فقد سمعه قوم من البيض ، خارج الكنيسة التى يخطب فيها يقول ، الحياة معركة يتحتم فيها لعى كل زنجى أن ينتضى « سلاحه » و « يقاتل » من « أجل بقائه » ! .

« سلاح » ؟ ! « قتال » ؟ ! فى هذا الكفاية ! .. وتسلل القوم الذين استمعوا الى كلام الواعظ الزنجى ، فجمعوا جمهورا

كبيرا عادوا به الى الكنيسة ، وقبضـــوا على الواعظ واحاطوا رقبته بحبل غليظ ، وجروه فى الطريق مسافة ميل ثم وضـــعوه فوق منصـــة خشبية مرتفعة ، واشـعلوا عيدان الثقاب ، توطئة لشنقه ثم احراق جثته . وفجأة قال قائل منهم : « فلنر ان كان لدى هـــذا الزنجى ما يقوله ، دفاعا عن نفسـه .. فليتكلم قبـــل أن يموت » .

وتكلم لورنس جونز وهو واقف على المنصة العالية ، وحبل المشنقة حول رقبته .. تكلم دفاعا عن نفسه وعن « قضيته » . كان قد تخرج فى جامعة « أيوا » عام ١٩٠٧ . وقربتـــه أخـــلاقه الدمثة ، واجتهاده فى الدرس والتحصيل ، وبراعته فى الموسيقى ، من قلوب زملائه وأساتذته على السواء . وبعـــد تخرجه رفض عملا عرضه عليه صاحب فندق ، كما رفض ، بعد ذلك ، عرضا من مالى كبير بمواصلة دراسة الموسيقى على نفقته ، لماذا ؟ لأنه كان مشغول النفس بقضية يريد أن يكرس لها حياته : لقد قرأ سيرة « بوكر . ت واشنجنطون » فألهمته هذه السيرة أن يكرس حياته لتعليم الفقراء والأميين من بنى جنسه . ومن ثم قصد الى أشد بلدان الجنوب تأخرا وانحطاطا وهى بلدة تبعـــد خمسة وعشرين ميلا جنوبى مدينـــة جاكسون بولاية المسيسبى ورهن ساعة يده لقاء دولار واحد و ٦٥ سنتا ، وأسس بهـــذا المبلغ التافه مدرسة فى العراء ، وسط الغابات ، وجعل مكتبه من جذع شجرة مقطوعة .. وحين تكلم لورنس جونز ، فى تلك الليلة ، وحبل المشنقة حول رقبته ، قال للجمهور الغاضب الملتف حوله : انه كافح من أجل تعليم الأميين من بنى جنسه ، بنـــين وبنات ، وتدريبهم على أعمال الفلاحة ، والصناعة ، والطهو ، وتدبير المنازل ثم تحـــدث عن الرجال البيض ، الذين ساندوه فى كفاحه على تأسيس « مدرسة الغابات الصنوبرية الريفية » ، فأمدوه بالأراضى ، والأخشاب والأبقار ، والمـــال ، ليتسنى له الاستمرار فى رسالته التعليمية ! .

واذا تكلم « لورنس جونز » فى تلك الليـــلة ، ببيان مؤثر ،

وبلاغة خلابة ، لا دفاعا عن نفسه ، وانمـــا عن رسالته التى كرس لها حياته ، بدأ الجمهور الغاضب يلين ، ولخيرا صاح عضو متقاعد فى حكومة الاتحـــاد ، كان يقف فى ذاك الحشد : « اعتقد أنهذا الرجل يقول الصدق . فأنا أعرف الرجال البيض الذين عدد الآن أسماءهم ، انه يقوم بعمل عظيم ، وأرى اننـــا ارتكبنا خطأ جسيما . ينبغى علينا أن نساعده لا أن نعدمه » . وخلع العضو المتقاعد قبعته ، وبســـطها فى يده ، وراح يطوف على الجمهور المحتشد ، فجمع فيها اثنين وخمسيندولارا وأربعين سنتا ، تبرع بها للمدرس الزنجى ، أولئك الناس أنفسهم الذين تجمهروا ليشنقوه ، تقديرا منهم للرسالة الانسانية التى اضطلع بأعبائها ! .

ولقد سئل لورنس جونز ، بعد نجاته من تلك المحنة بسلام ، هل امتلأ حقـــدا على أولئـــك الذين جروه فى الطريق ليشنقوه ويحرقوه ، فأجاب بأنه كان مشغولا بقضيته العظمى عن الحقد! وكان ممـــا قاله : « ليس لدى وقت للمقت ، ولا للحقـــد ، ولا يستطيع انسان أن يضطرنى الى هـــذا الدرك الأسفل لـــكى اكرهه ! » .

ومنذ تسعة عشر قرنا خلت ، اشار « ابكتيتوس » الى أننا نحصد ما نزرع ، وأن الأقدار تتقاضى منا ، بشكل من الأشكال ثمن الشرور التى نزرعها . ثم قال : « عاجلا أو آجلا سيدفع المرء ثمن ما ارتكبه من الشرور . فمن ذكر ذلك ، فانه جدير الا ينقم على أحد ، أويلوم أحد ، او يكره أحدا » .

لعل أحدا من أنجبتهم أمريكا فى تاريخها جميعا ، لم يلق من الايذاء والمقت والخديعة مثلمـــا لقى لنكولن ! وبرغم ذلك فان لنكولن ، كما يقول عنه « هندرون » مؤلف سيرته : « لم يزن الناس قط بميزان حبه أو كراهيته لهم . فاذا أساء رجـــل الى شخصه — اى شخص لنكولن — وكان هذا الرجل أصلح الرجال لتقلد منصب من المناصب أسرع لنكولن الى أن يقلده اياه ، كما لو كان يقلده صديقا .. ولا اخاله عزل رجلا من عمله لأنه كان عدوا له ، أو لأنه يكرهه » ! .

بل الواقع أن لنكولن أوذى ، وأسىء اليه على يد رجال تقلدهم فيما بعد مناصب ذات وجاهة وسطوة ، أمثال كامايلان ، وسيثوارد ، وستانتون ، وتشيسن . فان لنكولن كان يرى — كما يقول هندرون — أنه « لا ينبغى لرجل أن يمتدح أو يذم على عمل يؤديه ، لأننا جميعا مسخرون فى أيدى الظروف ، والأقدار ، والبيئة ، والتعليم ، والعادات المكتسبة ، والوراثة التى تطبع الناس بطابعهم الحاضر ، وتلصق بهم هذا الطابع الى الأبد » .

ويحتمل أن لنكولن كان مصيبا . فلو أننا ، أنت وأنا ورثنا الميزات الجسمانية ، والذهنية ، والعاطفية التى ورثها أعداؤنا، فالأرجح أننا كنا نصبح على مثالهم تماما . وقد اعتاد « كلارنس وارد» أن يقول : « بدلا من أن نمقت أعداؤنا دعنا نشفق عليهم، ونحمد الله على أنه ، سبحانه ، لم يخلقنا على غرارهم . وبدلا من أن نصب الاتهامات ، والوان الانتقام على رؤس أعدائنا ، دعنا نشملهم بالرحمة ، والشفقة ، والمعونة ، والعفو » .

لقد نشأت فى عائلة اعتاد أفرادها أن يتلوا آيات من الكتاب المقدس كل ليلة ، ثم يركعوا على الأرض لتقديم الشكر لله . ولا يزال يتردد فى سمعى صوت أبى ، فى ذلك البيت الريفى فى ولاية ميسورى ، وهو يتلو قول المسيح : « أحبوا أعداءكم ، وباركوا لاعينكم ، واحسنوا الى مبغضيكم ، وصلوا لأجل الذين يسيئون اليكم ويضطهدونكم » .

وقد حاول أبى أن يعيش وفق هذا المبدأ الذى استنه المسيح عليه السلام ، فأفاد من ذلك طمأنينة وسلاما ، طالما بحث عنهما ملوك متوجون على غير طائل .

واذن ، فلكى تتخذ اتجاها ذهنيا يجلب لك الطمأنينة والسعادة اذكر القاعدة رقم (٢) :

لا تفكر فى محاولة الاقتصاص من أعدائك ، فانك ، بمحاولتك هذه ، تؤذى نفسك أكثر مما تؤذى أعداءك . وافعل مثلما يفعل الجنرال ايزنهاور : لا تضيع لحظة واحدة فى التفكير فى أولئك الذين تبغضهم .

الفصل الرابع عشر

لا تنتظر الشكر من أحد

قابلت أخيرا فى تكساس رجل اعمال كان يغلى كالمرجل من فرط الغضب . وقد قيل لى قبل ان القاه ، انه سيكشف لى عن همه بعد ربع ساعة من لقائه ، وقد فعل ! .. أما تاريخ الحادثة التى اثارته الى هذا الحد ، فيرجع الى احد عشر شهرا مضت ، وبرغم ذلك فمازال يغلى غضبا منها ، ولا يتكلم الا عنها . واليك تفصيل هذه الحادثة : لقد منح موظفيه ، وعددهم أربعة وثلاثون موظفا ، مكافآت مالية بمناسبة عيد الميلاد ، قدرها عشرة آلاف دولار — اى بمعدل ثلاثمائة دولار تقريبا لكل منهم — فلم يقدم له أحد منهم كلمة شكر واحدة ! قال لى هـذا الرجل : « لكم أتحسر على كل سنت أعطيته لهؤلاء الجاحدين ! » .

قال كونفشيوس : « الرجل الغاضب ممتلىء سما » وهكذا كان ذلك الرجل ، حتى اننى رثيت لحاله ! كان فى نحو الستين من عمره ، وشركات التأمين تقدر أننا — فى هذا المعدل — نعيش أكثر بقليل من ثلثى الفرق بين سننا الحالية وسن الثمانين ، وقياسا على هذا ، كان أمام هذا الرجل — على احسن تقدير — نحو أربع عشرة أو خمس عشرة سنة ليحياها ، وبرغم هذا ، فقد ضيع سنة على الأقل من هذا العمر القليل الذى تبقى له ، فى التحسر على حادثة وقعت وانقضت ! .

وكان فى مقدور هذا الرجل ، بدلا من أن يغضب أو يجتر الحسرة والمرارة ، أن يسائل نفسه : لماذا لم يقدم له احد من مرؤوسيه كلمة شكر ؟ ولماذا قابلوا منته بكل هذا الجحود ؟ فلعله يتبين أنه لم يوف موظفيه حقهم من الأجر ، أو لعله ارهقهم بما هو فوق طاقتهم من العمل ، أو لعلهم لم ينظروا الى منحة عيد

الميلاد على أنها هدية ، بل نظروا اليها على أنها حق مكتسب ، أو لعله كان فظا متعجرفا حتى ان أحـــدا موظفيه لم يجرؤ ، أو لم يهتم بشكره ، و لعلهم أدركوا لنه وهبهم هذه المنحة بدلا من ان تأخذها الضرائب ، وان هذه المنحة كانت ستخرج من جيبه على أى حال ! .

ويجوز من ناحية أخرى ، ان موظفيـــه كانوا أنانيين سيىء الأدب .. يجوز هذا ، ويجوز ذاك ، فليس لى علم بالحقيقةأكثر مما لك ، ولكن الذى أعلمه أن الدكتور « صمويل جونسون » كان صادقا فى قوله « الشكر ثمرة لا تنضجها الا الرعاية الفائقة، ولذلك لا تجدها عند كل الناس ! » . وهــــذا هو الهدف الذى أسعى اليه : فهذا الرجل ارتكب خطأ لأنه انتظر الشكر وتوقعه، فدلل بهذا على أنه جاهل بالطبيعة الانسانية .

لو انك انقذت حياة رجل ، اتراك تنتظر منه الشكر ؟ قد تفعل انت ، ولكن « صمويل لايبيتز » ، الذى كان محاميا . ثم قاضيا، أنقذ ثمانية وسبعين رجلا من الكرسى الكهربائى ، فكم من هؤلاء تظن قدم له الشكر ؟ .. لا أحد ! .

ولقد شفى المسيح عليه السلام ، عشرة من المفلوجين فى يوم واحد ، فكم من هؤلاء قدم له الشكر ؟ واحد فقط !. أما التسعة الباقون فقد انصرفوا دون كلمة شكر ! .

حدثنى « تشارلى شواب » ، انه أنقذ مرة صرافا فى بنك ، خسر فى مضاربات البورصة أموالا تخص البنك ، فدفع له شواب المال المفقود ، وبهذا أنقذه من السجن ، فهل شكره الصراف ؟ نعم ! شكره يومئذ ، ولكنه مالبث أن راح يحمل عيله ، ويكيل له السباب ألوانا !

ترى لو انك أعطيت أحدا من أقربائك مليون دولار ، هلتنتظر منه الشكر ؟ لقد منح أندرو كارنيجى أحد اقربائه مليون دولار ، ولو قدر له أن ينفض عنـــه غبار الموت بعد ذاك بزمن ، لروعه

أن يجـد قريبه يسـبه ويلعنـه ! لمـاذا ؟ لأن كارنيجى وهب الجمعيات الخيرية ٣٦٥ مليونا من الدولارات . ووهب قريبـه هذا مليونا واحدا ! .

ان الطبيعة الانسانية مابرحت فى الطبيعة الانسانية ، والأرجح انها لن تغير أبد الآبدين . فلماذا لا نتقلبها على علاتها ؟ ولمـاذا لا نكون واقعـيين ، كمـا كان الامبراطور الرومانى « ماركوس أوريليوس » وهو الذى كتب فى يومياته يقـول : « سألتقى فى هذا اليوم بأشخاص أنانيين ، جاحدين ، ولكن هذا لن يدهشنى، أو يثير حفيظتى ، فلنا لا أكاد أتصور عالما يخلو من هؤلاء الناس» فلماذا نتحسر على ضياع الامتنان ، وتفشى الجحود بين الناس؟ انه لأمر طبيعى ، أن ينسى النـاس واجب الشكر ، فاذا توقعنـا الشكر وانتظرناه ، فنحن جديرون بأن نجر على أنفسنا ما هى فى غنى عنه من المتاعب .

أعرف سيدة فى نيويورك لاتفتأ تشكو من أن أحدا من أقاربها لا يريد أن يؤنس وحدتها . ولهم العذر : فلو أنك زرتها ، لقضت الساعات الطوال وهى تقص عليك ماقدمت لابنتى أختها حـين كانتا طفلتين ، لقـد سهرت عليهما حـين مرضتا بالحصبة ، والنزلات المعدية والسعال ، وكفلتهما سنوات طوالا ، وارسلت احداهما الى مدرسة تجـارية ، وزوجت الأخرى ، فهل ابنتـا أختها تأتيان لزيارتها شكرا منهما لهـا وامتنانا ؟ نعم ! تأتيـان أحيانا ، مدفوعتين بالاحساس بالواجب ، ولكنهما تكرهان هذه الزيارة ! فان خالتهما لا تفتأ تغمزهما بالعتاب المقنع ، وتلمزهما بالملام المحجب ! وحينما عجزت هـذه المـرأة عن الجاء ابنتى أختها الى زيارتها أصابها مرض القلب ! .. أترى مرض القلب هذا كان حقيقيا ؟ نعم ! لقد قال الأطباء ان لها « قلبا عصبيا » ومن ثم فلا حيلة لهم فيه .

ان ما تحتاج اليه هذه المرأة حقيقة ، هو الحب ، والرعاية، والحنان ، ولكنها تسمى هذه الأشياء « شكرا » ولن تظفر هذه

السيدة قط بالحب . مادامت تطلبه ، وتنتظره ، وانما تظفر به حين تكف عن المطالبة به ، وتشرع هى فى اغداقه دون أن تنتظر له استجابة ؟

أترانى أقدم نصائح مثالية نظرية ؟ كلا فما هذه الا طريقة عملية يسعنا — انت وانا — بواسطتها ان نحصل على السعادة المنشودة . وقد رايت هذه الطريقة تؤتى ثمارها فى محيط عائلتى نفسها ، فقد كان ابى وامى شغوفين بمساعدة المحتاج ، والعطف على المحروم ، وبرغم اننا كنا فقراء ، غارقين دواما فى الديون الى آذاننا ، الا اننا كنا نرسل الهبات كل عام الى احد ملاجىء الأيتام فى « ايتوا » ، ولم يزر ابى ولا امى ، هـذا الملجأ قط ، والأرجح ان احـدا لم يشكرهما على اريحيتهما — اللهم ألا من طريق المكاتبات — وبرغم ذلك فقد كان يكفى ابى وامى سعادة انهما يبذلان العطايا دون أن ينتظرا عليها جزاء ولا شكورا .

وحينما كبرت ، وخرجت من بيت ابوى ، اعتدت ان ارسل اليهما مبلغا من المال كلما حان عيد الميلاد ، واوصيهما بأن يرفها عن نفسيهما قليلا . ولكنهما قلما عملا بنصيحتى . فمتى ذهبت اليهما ليلة عيد الميلاد، حدثنى كلاهما ، عن فحم الوقود، وأصناف البقالة التى اشتراها واهدياها الى رجل بائس فى البلدة يعول كثيرا من الأولاد بقليل من المال ؟

كان أبى وامى يطـيران فرحا بمنح العطايا ، ولم ينتظرا قط عليها منة ولا شكرانا .

واحسب ان والدى يكاد ينطبق عليه وصف ارسـطو للرجل المثالى : « الرجل المثالى يستمد السعادة من اسداء المعروف الى الآخرين ولكنه يشعر بالخزى حين يسدى اليه الآخرون معروفا، فان من دلائل رفعة الشأن أن يؤدى المرء صنيعا ومن دلائل ضعة الشأن ان يتلقى المرء صنيعا » .

ومن ثم اذا اردنا السعادة ، فلنكف عن التفكير فى الشـكر أو انتظاره ، ولنعط بقصد الاعطاء ذاته .

ان الآباء ما برحوا على مر العصور يشدون شعرهم حنقا من جحـــود أبنـــائهم ، حتى ان « الملك لير » صرح ــ على لســـان شكسبير ــ قائلا : « ليس أشد ايلاما من ناب حية رقطاء غير ابن جحود ! ولكن .. كيف بالله يشكر الأبناء ما لم نعودهم نحن الشكر ؟ ان الجحود فطرة ، مثله مثل الأعشاب الفطرية . والشكر كالزهرة لا ينبتها الا الرى والسقيا فاذا لم نعود أبناءنا اجزال الشكر للآخرين ، فكيف ننتظر منهم أن يشكرونا نحن ؟ .

واحسب أن خالتى « فيولا الكسندرا » مثل رائع للمرأة التى لم تشك قط من جحود أبنائها ... وما زلت أذكر ، منذ كنت طفلا، أن خالتى فيولا كانت تدعو أمها الى بيتها لتحيطها بأسباب الحنو والرعاية ، وكذلك كانت تدعو حماتها ، وفى وسعى أن أغمض عينى وأتصور هاتين السيدتين العجوزتين جالستين الى المدفأة فى بيت خالتى الريفى تتبادلان الحديث فى صفاء وانسجام ، وبديهى أنهما كانتا تسببان ازعاجا كثيرا لخالتى ، ولكنها لم يظهر عليها قط شىء من الانزعاج فقد كانت تحبهما وتضيفهما على الرحب والسعة برغم أن لها ستة أبناءهم أولى برعايتها واهتمامها . والمهم فى الأمر أن خالتى لم تكن ترى فى صنيعها ما يستحق الشكر أو الجزاء .

ترى أين تعيش خالتى فيولا الآن ؟ لقد ترملت منذ عشرين عاما، ولديها الآن خمسة أبناء متزوجون ، ولكل منهم بيته الخاص ، وكل منهم يود لو تقيم أمه فى بيته . ان أبناءها يحبونها حبا جما ، ولا يشبعون قط من رؤيتها ! أيعد هذا من قبيل الشكر ؟ كلا ! انما هو الحب المجرد ، فقد رتع هؤلاء الأبناء فى صباهم فى بحبوحة من حنان أمهم وحبها ، فلما انعكس الوضع ، وتطلبت أمهم الحب والحنان احاطوها بهما .

ودعنا بعد ذلك نقل لك مرة ثانية : ان تعود أبنائنا الشكر . يقتضينا أن نبدأ بأنفسنا فنكون شاكرين ، ودعنا نذكر « أن للجرار الصغيرة آذانا طويلة » ، فلنزن كل كلمة نقولها أمام أطفالنا ، ولنطلقها بحساب . مثال ذلك ــ عندما نوشك ، فى المرة القادمة،

أن نقلل من صنيع أحد أمام أبنائنا ، فلنكف عن الكلام ولنحذر من أن نقول : « انظر الى هذه الهدية التى أرسلتها فلانة بمناسبة العيد ! لقد حزمتها بنفسها . ان هذه الهدية لم تكلفها شيئا ! »
فقد يبدو هذا القول تافها فى نظرنا ، ولكن أطفالنا ينصتون لما نقول ، ويتطبعون به . والأفضل ، حينئذ ، أن نقول : « لقد قضت فلانة ، ولا ريب ، زمنا طويلا تحاول أن تعد هذه الهدية لنا . اليس هذا جميلا منها ؟ دعنا نرسل لها كلمة شكر » عندئذ يتشبع أطفالنا ، فى غير وعى منهم ، بعادة التقدير والثناء .

فلكى تتجنب القلق من أجل الجحود الذى أصابك ، اليك القاعدة رقم ٣ :

(أ) بدلا من أن يقلقنا الجحود ، دعنا نتقبله على علاته : ولنذكر أن السيد المسيح شفى عشرة من المفلوجين فلم يقدم له الشكر منهم سوى واحد ! فلماذا نتوقع من الشكر أكثر مما نال المسيح ؟ .

(ب) فلنذكر أن الطريقة الوحيدة للحصول على السعادة ليست فى توقع الشكر ، وانما فى البذل بقصد البذل ذاته .

(ج) دعنا نذكر أن الشكر وليد الرعاية والعناية ، فاذا أردنا لأبنائنا أن يشبوا على عادة الشكر ، فينبغى أن ندربهم نحن على هذه العادة .

الفصل الخامس عشر

هل تستبدل مليون ريال بما تملك

عرفت « هارولد ابوت » من سنوات عدة ــ وهو من أهل مدينة « وب » بولاية ميسورى ــ اذ لبث مديرا لبرامج محاضراتى أمدا طويلا . وقد التقيت به ذات يوم فى مدينة كانساس فأقلنى بسيارته . وفى خلال الطريق الى مزرعتى فى بلدة بلتون ، بولاية ميسورى ، سألته كيف يتجنب القلق ، فروى لى قصة مثيرة لن انساها ما حييت . قال :

« فى ذات يوم ربيع عام ١٩٣٤ ، كنت أسير فى شارع «دوفرتى» الغربى بمدينة « وب » فرأيت منظرا أذاب كل ما كنت أعانيه من قلق . ولم يستغرق المشهد سوى عشر ثوان ، ولكنى تعلمت فى خلال هذه الثوانى العشر من فن الحياة ، أكثر مما تعلمت فى عشرة أعوام . وكنت فى خلال العامين السابقين لهذا الحادث أدير محلا للبقالة افتتحته فى مدينة وب .. وقد باءت تجارتى بالكساد ، وفقدت فيها كل ما ادخرته من مال ، بل عمدت ، فوق ذلك الى الاستدانة حتى لقد استغرق تسديد ديونى أكثر من سبعة أعوام ، وكنت قد أغلقت محل البقالة ، قبل ذلك الحادث بأسبوع، وفى يوم الحادث كنت متجها الى أحد المصارف لأقترض شيئا من المال يعيننى على الذهاب الى مدينة كانساس ، للبحث عن عمل فيها وبينما أنا أسير فى الطريق ذاهلا شارد البال ، قد داخلنى اليأس ، وأوشك الايمان أن يفارقنى . اذ رأيت رجلا مبتور الساقين يريد ان يعبر الطريق .. كان يجلس على عارضة خشبية مزودة بعجلات صغيرة وكان يستعين على تسيير هذه العارضة بيديه اللتين امسك بكلتيها قطعتين من الخشب يستند بهما الى أرض الشارع لدفع العارضة الخشبية الى الأمام .. التقيت به بعد أن عبر الشارع ، وكان بسبيل رفع العارضة الخشبية التى

يجلس عليها ليعتلى الطوار . فلما أصبح فوق الطوار ، وأدار العارضة الخشبية ليمضى فى سبيله ، التقيت عيناه بعينى فابتسم لى ابتسامة عريضة مشرقة ، ثم قال :

« أسعدت صباحا يا سيدى ، انه يوم جميل ، أليس كذلك ؟» واذ وقفت متطلعا الى هذا الرجل أدركت كم أنا موفور الثراء ! فان لى ساقين ، واستطيع ان امشى ! وخجلت مما كنت أستشعره من الرثاء لنفسى ، وحدثت نفسى قائلا : « اذا كان هذا الرجل يسعه أن يكون سعيدا ، مرحا ، ممتلئا ثقة بنفسه مع فقد ساقيه ، فأولى بى ان اتصف بهذه الصفات ولى ساقان » ! . وكنت قد انتويت أن اقترض من المصرف مائة دولار ، ولكنى اذ ذاك واتتنى الشجاعة فطلبت مائتين . كما فكرت فى أن أقول للمشرفين على المصرف اننى ذاهب الى كانساس « لأحاول » الحصول على عمل ، ولكنى بعد هذا قلت لهم اننى ذاهب الى كانساس « للحصول » على عمل . ولقد حصلت على القرض ، وحصلت على العمل ! .

« والآن تطالعنى كل صباح فى المرآة هذه الكلمات التى لصقتها بنفسى على صقال المرآة :

« كاد القلق يبددنى هباء
« لأن قدمى افتقدتا حذاء
« الى ان صادفت من يومين
« شخصا بلا ساقين ! . . »

سألت يوما « ايدى ريكنبيكر » ما هو الدرس الذى أفاده من تجربته القاسية مع رفاقه ، حين راحوا يضربون فى المحيط الهادى على غير هدى ، فى قارب من المطاط ، مدى واحد وعشرين يوما . . فقال : « الدرس الذى افدته من تلك التجربة ، انه ما دام لديك الماء الذى تشربه ، والطعام الذى تطعمه ، فلا ينبغى لك ان تشكو من شىء بعد ذلك » ! .

وقد كتبت مجلة « تايم Time » أخيرا مقالا مؤثرا عن

جندى جرح فى معركة « جوادال كانال » . فقد أصيب هذا الجندى بشظية قنبلة فى حنجرته استلزمت اجراء سبع عمليات لنقل الدم اليه . وبينما كان الجندى راقدا على فراشه فى المستشفى ، كتب للطبيب ورقة قال فيها : « هل سأعيش ؟ » فأجابه الطبيب بايجاب، فعاد الجندى يكتب له : « هل سأتكلم ؟ » فعاد الطبيب يجيبه بالايجاب . وعندئذ كتب الجندى يقول : « الا ما أحمقنى ! علام أقلق اذن ؟ » .

لماذا لا تتوقف — أيها القارىء — فى هذه اللحظة وتسائل نفسك : « علام أقلق ؟ » فربما استكشفت أن ما يثير قلقك أتفه بكثير مما وقع لهذا الجندى .

ان تسعين فى المائة من أمورنا يسير فى طريقه المستقيم . وعشرة فى المائة فقط تشذ عن الطريق ، فاذا أردت أن تكون سعيدا، فركز اهتمامك فى هذه التسعين فى المائة من أمورك ، وتجاهل العشرة الباقية . أما اذا أردت أن تحيل حياتك الى سعير فالأمر هين : ما عليك الا أن تركز كل اهتمامك فى أمورك الضئيلة التى تنكبت الطريق السوى ! .

انك لتجد هاتين الكلمتين «فكر واشكر» ThinkandThank محفورتين فى كثير من الكنائس الانجليزية التى عاصرت عهد كروميل ، وما أجدرنا بأن نحفر هاتين الكلمتين على جدران قلوبنا كذلك « فكر واشكر » ، فكر فيما وهبك الله . واشكره على ما وهبك .

كان « جوناثان سويفت » . مؤلف « رحلات جليفر » من أشد الأدباء الانجليز اغراقا فى التشاؤم ، حتى انه كان يرتدى الحداد فى أعياد ميلاده ! وبرغم ذلك ، فقد امتدح البهجة والسعادة ، فقال : « ان أفضل الأطباء فى هذا العالم هى ثلاثة : الغذاء ، والسلام ، والانشراح » . وفى وسعى انا وأنت أن نحصل على خدمات الطبيب الثالث — الانشراح — بغير مقابل ، لو أننا ركزنا اهتمامنا فى الثروة الوفيرة التى نملكها — الثروة التى تفوق فى قيمتها

الروحية والمعنوية كنوز « على بابا » الخرافية ! .

أتراك تبيع عينيك مقابل بليون دولار ؟ وكـم من الثمن ترى يكفيك فى مقابل ساقيك ؟ او سمعك ؟ او اولادك ؟ او اسرتك ؟ . احسب ثروتك بندا بندا ، ثم اجمع هذه البنود وسوف ترى أنها لا تقدر بالذهب الذى جمعه آل روكفلر . وآل فورد . وآل مورجان مجتمعين ! ولكن .. اترانا نقدر هذا كله ؟ كلا . فاننا كما قال فينا « شوبنهور » : « ما أقل ما نفكر فيما لدينا ، وما اكثر ما نفكر فيما ينقصنا » . وهذه هى آفة العالم اليوم . ولقد احالت هذه الآفة نفسها « جو بالمر » الى حطام بشرى ، وكادت تودى ببيته واسرته .

قص على جون بالمر وهو من اهالى مدينة باترسون ، بولاية نيو جرسى — قصته فقال . « عقب تسريحى من الجيش بقليل ، انشأت لنفسى محلا واشتغلت فيه بجد ، مواصلا الليل بالنهار . فسارت الأمور فى مجراها الطبيعى .. الى حين ! فقد وجدت ، بعد قليل ، اننى لا استطيع الحصول على الخامات اللازمة لمنتجاتى .. وخشيت ان يمنى عملى بالكساد فاستسلمت للقلق الذى احالنى الى رجل مهدم ، محطم ، دائم الغضب ، حتى أوشكت — وما علمت ذلك فى حينه ، وانما علمته فيما بعد — انى اكاد أفقد بيتى الذى تظلله السعادة .

وفى ذات يوم ، قال لى شاب من مشوهى الحرب ، كان يعاوننى فى العمل ! « الا تخجل من نفسك يا جون ؟ انك تواجه الحياة كما لو كنت الرجل الوحيد فى هذا العالم الذى تشغله المتاعب وتثقله الهموم ! هب انك اضطررت الى اغلاق محلك زمنا .. فمـاذا يحدث ؟ انك تستطيع أن تبدأ من جديد متى تحسنت الأحوال ، ان لديك الكثير مما يستحق منك الشكر ، ومع ذلك فأنت ناقم دائما . يا لله ! كم أتمنى لو كنت مثلك انظر الى . ان لى ذراعا واحدة ، ونصف وجهى قد غدا كتلة شوهاء ، ومع ذلك لا اشكو قط . اذا لم تكف عن نقمتك . وثورتك ، فأنت جدير بأن تفقد ، لا عملك

وحسب ، بل صحتك ، وبيتك وأصدقاءك كذلك ..

ولقد فعلت فى تلك الكلمات فعل السحر ، فقد جعلتنى أدرك كم أنا احسن حالا منكثيرين غيرى ، فصممت منذ تلك اللحظة على أن اكف عن قلقى ، واثوب الى نفسى — وقد فعلت » .

واعرف فتاة تدعى « لوسيل بليك » أشرفت على حافة الدمار ، قبل ان تتعلم كيف ترضى بحظها من الحياة ، بدلا من ان تستسلم للقلق من أجل ما ينقصها . وقد عرفت لوسيل منذ كنا ندرس معا فن كتابة القصة فى مدرسة الصحافة بجامعة كولومبيا . ومنذ تسعة أعوام ، واجهتها الصدمة القاسية ، وكانت وقتئذ تعيش فى مدينة « تكسون » بولاية أريزونا . واليك قصتها كما روتها لى :

« كنت أعيش فى دوامة لا تكف عن الدوران . كنت أتعلم العزف على الأرغن فى جامعة « أريزونا » ، وفى الوقت نفسه أحضر برنامجا فى الخطابة ، واعطى درسا فى الموسيقى ، والى هذا كله كنت أحضر حفلات الرقص ، والحفلات العامة ، ومباريات ركوب الخيل .

وفى ذات يوم اصبت بداء القلب ، وقال لى الطبيب : « عليك أن تلازمى فراشك سنة كاملة » . وتولانى الفزع الشديد ، وتساءلت فى مرارة ، « لماذا يحدث لى كل ذلك ؟ ماذا جنيت لأستحق هذا كله ؟ » لقد بكيت وانتحبت ، وعصفت بى المرارة ، واجتاحتنى الثورة ، ولكنى لزمت الفراش ، كما نصح لى الطبيب .. الى أن زارنى ذات يوم جار لى فنان يدعى « رودنف » ، وقال لى : « لا ريب انك تظنين أن قضاء عام فى الفراش مأساة ما بعدها مأساة ! ولكنه فى الواقع ليس كذلك ، فسوف تتاح لك فرصة عظيمة للتأمل ، والتعرف على نفسك ، وسوف تكتسبين فى خلال الأشهر القادمة ثروة روحية لا تقدر بثمن » . وامتلأت نفسى سكونا وهدأت تلك العواصف الجامحة فى صدرى ، وبدأت أحاول تنمية احساس جديد بقيم الأشياء . وفى ذات يوم ، سمعت معقبا فى الراديو يقول : «ان كل ما يبديه المرء من تصرفات ليس الا تعبيرا عن الأفكار التى تجول فى وعيه » . وكنت قد سمعت هذه الكلمات

مرات عدة من قبل ، ولكنها فى تلك اللحظة ، رسخت فى أعماق نفسى ، فاعتزمت عندئذ ان اجعل افكارى كلها تدور حول ما يعود على حياتى بالنفع ، كأفكار السرور ، والسعادة والصحة . ورضت نفسى على التفكير كل صباح ، عقب قيامى من النوم ، فى الأشياء التى ينبغى أن اشكر الله سبحانه من اجلها .. كطفلتى الحبيبة ، ونظرى السليم ، وسمعى الصحيح ، واصدقائى الأوفياء . واحسست حينئذ بالانشراح يغمر نفسى ، وتكاثر عدد زائرى ، لفرط ائتناسهم ببشاشتى ، حتى لقد أمر الطبيب بألا يدخل على الزوار الا فرادى .

وها قد انقضت تسعة أعوام على ذلك ، وانى لأفيض اليوم بالشكر والامتنان لتلك السنة التى قضيتها ملازمة لفراشى ، لقد كانت أسعد سنى حياتى ، ومازلت متشبثة بتلك العادة التى اصطنعتها فى تلك السنة : عادة احصاء نعم الله على . وانه ليخجلنى اننى لم اتعلم كيف أعيش حقا ، الا حين خشيت ان أموت ! » .

منذ مائتى عام مضت قال الدكتور جونسون : « ان اعتيادك النظر الى أجمل تجربة صادفتها ، ليساوى اكثر من الف جنيه !» ولم يكن قائل هذه الكلمات ، رجلا متفائلا ، كما قد تظن ، وانما كان رجلا عرف القلق ، وذاق الفقر والجوع مدى عشرين عاما . وقد أورد « لوجان بيرست سميث » ذخيرة من الحكمة فى كلماته هذه : « هناك شيئان ينبغى أن نهدف اليهما فى هذه الحياة : اولا ، أن نحصل على ما نريد، وثانيا : ان نستمتع به . وان أكثر بنى الانسان حكمة ،هوالذى يسعه تحقيق الأمر الثانى !» .

اتريدين يا سيدتى أن تعرفى كيف تجعلين من غسل الأطباق فى المطبخ عملا مبهجا مثيرا ؟ اقرئى اذن تلك الكتاب الملهم « أردت أن أبصر » (١) ، لمؤلفته « بورجيلد دال » . وقد عاشت بورجيلد ،

---

(1) Borngid Dahl : "I Wan Ted to See"

نصف قرن من الزمان ، وهى اقرب الى أن تكون عمياء منها الى أن تكون مبصرة ، وقد كتبت فى مؤلفها هذا تقول : « كنت أبصر بعين واحدة ، وكانت عينى الواحدة، الى هذا، مغشاة بالسحب الكثيفة ، فاذا أردت أن اقرأ كتابا قربته عينى حتى ليوشك أن يلتصق بوجهى » . على انها رفضت أن يشفق عليها انسان . وكانت فى طفولتها توق الى مشاركة الأطفال فى لعبة «الحجلة» فكانت — اذا انصرف زملاؤها الى منازلهم — تركع على الأرض وتدنى عينها من العلامات المرسومة ، وتحفظ أوضاعها وطريقة تقسيمها ، فما لبثت أن برعت فى تلك اللعبة حتى بزت لداتها المبصرات . وكانت تمضى وقتها فى البيت بمطالعة الكتب ذات « الحروف » الكبيرة ، فتدنيها من عينها حتى تكاد أهدابها تمس صفحة الكتاب ، وبهذا تمكنت من الحصول على درجتين جامعيتين : درجة الليسانس فى الآداب من جامعة مينيسوتا ، ودرجة « الماجستير » فى الآداب من جامعة كولومبيا .

واشتغلت بعد ذلك بالتدريس فى قرية « توين فالى » الصغيرة بولاية مينيسوتا ، ثم ارتفعت فأصبحت استاذة الصحافة والأدب فى كلية « أوجستانا » بمدينة « شلالات سيو » فى ولاية داكوتا الجنوبية ، وكانت الى جانب التدريس ، تحاضر بأندية السيدات ، وتذيع من محطات الاذاعة معقبة على الكتب والمؤلفات .

ثم فى عام ١٩٤٣ ، حين بلغت الخمسين من عمرها ، حدثت المعجزة . فقد أجريت لها جراحة فى مستشفى مايو الشهير ، فتضاعفت مقدرتها على الابصار بمقدار أربعين ضعفا . وبهذا فتحت أمامها آفاق جميلة مثيرة ، واصبحت تجد البهجة والسرور حتى فى غسل الأطباق فى مطبخ بيتها ، وفى ذلك تقول : « اننى أداعب فقاقيع الصابون واغسل الأطباق ، فأمد يدى الى قاع الطبق لألتقط فقاعة صغيرة ، ثم أجمع الفقاقيع فى قبضتى وأدنيها من الضوء فأرى فيها الوان قوس قزح تبرق وتلتمع .. وقد

اتطلع من نافذة المطبخ ، فأبصر عصفورا صفيرا يشق طريقه من الفضـــاء ، وسط الجليـــد المتساقط ، وأتبين لون جناحيه الرماديين ، ليملأنى السرور ويستخفنى الطرب » .

ولقـــد غمرتها فرحة كبرى من جراء ازدياد مقـــدرتها على الأبصار ، حتى انها اختتمت كتابها بقولها : « يا الهى اشكرك. اشكرك » .

انها تشكر الله لأنها اصبحت تتبين فقاقيع الصابون ، وجناحى العصفور الطائر ! . أفلا يجدر بى وبك ، أن نخجل من انفسنا؟! اننا نعيش فى جنان مشرقة ، بهية الصـــور ، مجلوة الحســـن ، ولكننا لا نرى ، ولا نقدر ، ولا نشكر !

فاذا أردت أن تقهر القلق وتبـــدأ الحياة ، فاليـــك القاعـــدة رقم (٤) :

احص نعم الله عليك بدلا من أن تحصى متاعبك .

الفصل السادس عشر

أنت نسيج وحدك

« ارسلت الى مسز أديث « أولرد » من مدينة « مونتأيرى » بولاية « كارولينا الشمالية » ، رسالة تقول فيها : « كنت فى طفولتى مرهفة الحساسية ، مفرطة الخجل ، وكنت بدينة نوعا، ولكن وجنتى المكتنزتين باللحم كانتا تظهر اننى اكثر بدانة مما أنا عليـــه فى الحقيقة ، وكانت والدتى تستقبح الثياب المحكمة على الجسد . ومن ثم كانت ثيابى كلها طويلة فضفاضة . وقد نشأت عزوفا عن المجتمعات ، منطوية على نفسى . لا اكاد اميل الى شىء من اسباب البهجة والمرح . وحين ذهبت الى المدرســة أول مرة ، لم اجرؤ على مشـــاركة لداتى نشاطهن الاجتماعى أو الرياضى ، فقد كنت اظن لفرط حيائى وانطوائى ، اننى بدعة فى الخلق .

فلما كبرت ، تزوجت من رجل يكبرنى بعـــدة أعوام . ولكن حالى لم تختلف وكان أقارب زوجى ، قوما يميزهم الاتزان والثقة بالنفس ، ولطالما حاولوا أن يخرجونى عن تحفظى وانطوائى عن نفسى ، ولـــكن على غير طائل ، اذ كانت كل محاولة من جانبهم تزيدنى تحفظا وانطواء ، حتى غدوت ، على مر الأيام ، عصبية المزاج ، سريعة التأثر ، يكفى رنين جرس الباب لكى يملأ قلبى فزعا ، كنت اعـــلم اننى أخفقت فى حيـــاتى ، وأخشى ما كنت أخشاه . هو أن يعلم زوجى بهذا الاخفاق ، ومن ثم كنت أبذل جهدى لكى أبدو مرحة مبتهجة . حين أكون معه فى مجتمع عام، وكان احساسى بأننى أتكلف الابتهاج يزيد فى تعاستى وشقائى، فما لبث الأمر أن تفاقم ، ولم أعد أرى خيرا فى اطالة أيامى على قيد الحياة ، وبدأت افكر فى الانتحار » .

فما الذى حدث ، وغير مجرى حياة هذه السيدة التعسة ؟ ملاحظة عابرة ! . فقد استطردت مسز أولرد فى رسالتها تقول : « ثم غيرت ملاحظة عابرة مجرى حياتى جميعا . كانت حماتى تتكلم يوما عن أبنائها وكيف درجت فى تنشئتهم ، فقالت فى معرض حديثها : « ومهما يحدث من أمر ، فقد كنت أصر دائما على أن ينطلق أبنائى على سجيتهم ، ويتمشوا مع طبيعتهم » .. أن ينطلقوا على سجيتهم ! تلك هى الملاحظة العابرة ، فقد أوحت الى هذه العبارة على الفور ، اننى درجت على التطبع بطباع لا تلائمنى ولا الائمها ! .

« ولقد تغيرت حياتى فى يوم وليلة ، حين بدأت أنطلق على سجيتى . حاولت أن أدرس شخصيتى ، وأتلمس نواحى القوة ، ونواحى الضعف فيها ، ثم رحت أحطم العادات المتزمنة التى اكتسبتها منذ نشأتى ، فبدأت اتخير من الوان الثياب ما يلائمنى ويتفق مع « الموضة » الشائعة ، ورحت اسعى لاكتساب أصدقاء جدد ، وانضممت الى جمعية نسائية ، صغيرة فى مبدأ الأمر ، فكان الخوف يملأنى كلما اضطررت الى القاء كلمة ، ولكنى على توالى الكلمات ، اكتسبت الشجاعة والثقة بالنفس . وقد اقتضانى تحويل مجرى حياتى أمدا طويلا ، ولكنى اليوم انعم بسعادة لم أحلم بها قط . ومازلت اليوم اوصى ابنائى بقولى : « مهما يكن من الأمر انطلقوا دائما على سجيتكم » .

* * *

ومشكلة « ارادة الانطلاق على السجية » — كما يقول الدكتور « جيمس جوردون جيلكى » — قديمة قدم التايخ وأن القدرة على تنفيذ هذه الارادة أو عدم القدرة ، تعزى معظم الأمراض العصبية والعقلية ، والعقد النفسية .

كتب « انجلو باترى » ثلاثة عشر كتابا ، وآلافا من الفصول والمقالات ، فى تربية الأطفال ، وقد أثر عنه قوله : « ليس اتعس من الشخص الذى يتوق الى أن يكون شخصا آخر غير الذى يؤهله

له كيانه الجسمانى ، والعقلى » . وانك لتجد هذه الرغبة فى أن « يصبح الشخص شخصا آخر غير نفسه » ، متفشية فى هوليوود على الخصوص ، وقد قال لى « سام وود » المخرج السينمائى الشهير ، انه يلاقى أكبر العناء فى تعويد الممثلين الناشئين الانطلاق على سجاياهم ، فمعظم هؤلاء يبغون أن يكونوا « روبرت تايلور » من الدرجة الثانية ، أو « كلارك جيبل » من الدرجة الثالثة ! ويتوسل « سام وود » الى اقناعهم بالعدول عن تشبههم بقوله : « لقد سئم الجمهور أسلوب هذين الممثلين فى التمثيل ، انه يريد شيئا جديدا » ، ثم أردف « سام وود » حديثه لى بقوله : « لقد علمتنى التجارب أنه لا خير فى قوم يتشبهون بمن ليس يشبههم » .

وقد سألت أخيرا « بول بوينتون » مدير المستخدمين فى شركة « سوكونى فاكوم » على الغلطة الكبرى التى يرتكبها طلاب العمل فى شركته — وهو أفضل من يجيب عن هذا السؤال ، فقد قابل اكثر من ستين الف طالب عمل ، والف كتابا بعنوان « ست طرق للحصول على عمل » (١) — وقد أجابنى بقوله : « ان أكبر غلطة يرتكبها طلاب العمل هى أنهم لا ينطلقون على سجاياهم ، فبدلا من أن يصارحوك بحقيقة أفكارهم وآرائهم ، يحاولون أن يجيبوا عن أسئلتك بما يظنونه الجواب الذى تريده أنت . ولكن هذه الحيلة قلما تفلح ، فالناس يعرفون الشخص الذى يدعى ما ليس فيه ، كما يعرفون العملة الزائفة ! » .

وقد تعلمت ابنة سائق « أوتوبيس » هذا الدرس ، ولكن بعد تعب . كانت هذه الفتاة تتوق الى أن تصبح مغنية شهيرة . ولكن منظرها كان يقف عقبة دون تحقيق هذه الأمنية ، فقد كان لها فم واسع ، وأسنان ناتئة بشكل ملحوظ . فلما حاولت للمرة الأولى أن تغنى فى أحد المنتديات الليلية فى نيوجرسى ، توخت أن تطبق شفتيها العليا لتغطى بروز أسنانها . فما كانت

---

(1) paui Boymton « 6WaystoyetaJob »

النتيجة ؟ لقد جعلت من نفسها أضحوكة وحاقت بها الخيبة . وتصادف أن كان أحـد المخرجين السينمائيين فى ذلك المنتدى ، ولمس فى صوت الفتاة وطريقة أدائها ما ينبىء عن موهبة فنية ، فاستدعاها وقال لها : « أنا أعـلم تماما ما يدور بخلدك . أنت تريدين أن تخفى منظر أسنانك أليس كذلك ؟ » وارتبكت الفتاة، ولكن الرجل استطرد : « فمـا الذى يخجلك ؟ أهى جريمة أن تكون أسنانك ناتئة ؟ لا تحاولى أن تخفى أسنانك ! افتحى فمك عن آخره وسوف يعجب بك الجمهور ، وفضلا عن هذا ، فان أسـنانك هـذه تميزك بطابع خاص ، وقد تكون يوما مبعث شهرتك » .

وقد اتبعت « جاس‌ديلى » — وهذا هو اسم الفتاة — نصيحة الرجل ، وتجاهلت منظر أسنانها ، ولم تعد تفكر منذ ذلك اليوم الا فى ارضاء مستمعيها ، فأصبحت تفتـح فاها ، وتغنى بملء شدقيها ، حتى غدت نجمة شهيرة من نجوم الاذاعة والسينما ، وحاول كثير من المغنين فيما بعد أن يقلدوها .

* * *

قال العالم النفسانى « وليم جيمس » : « اذا قسنا أنفسـنا الى ما يجب أن نكون عليه تتضح لنا أننا أنصاف أحياء ! . فاننا لا نستخدم الا جانبا يسيرا من « مواردنا » الجسمانية والذهنية أو بمعنى آخر ، ان الفرد منا يعيش فى حـدود ضيقة يصنعها داخل حدوده الحقيقية . انه يمتلك قوى كثيرة مختلفة . ولكنه عادة لا يفطن لها ، او يخفق فى استخدامها » .

انك شىء فريد فى هذا العالم ، انك نسيج وحدك . فلا الأرض منذ خلقت رأت شخصا يشبهك تمام الشبه ، ولا هى فى العصور المقبلة سوف ترى شخصا يشبهك تمـام الشبه . وينبئك علم الوراثة بأنك تكونت جنينا نتيجة لتزاوج أربعـة وعشرين زوجا

من الكروموزمات (١) ساهم فيها بالنصف كل من والديك . وقد تضافرت هذه الأزواج الأربعة والعشرون على توريثك الصفات التى تتميز بها . ويقــول « امران شاينفيلد » فى كتابه « أنت والوراثة » (٢) : « ان كل « كرومزوم » يحمل « جينات » (٣) تعد بالمئات ، لكن واحدا من هذه الجينات ، فى بعض الأحيــان يسعه أن يغير حيــاة المرء تغــيرا شاملا » نعم . فالحــق أننا مخلوقون بدقة تثير الرهبة ، وتستدعى الاعجاب .

وحتى بعد التقاء أبويك أحدهما بالآخــر ، وتزاوجهما ، فان احتمال خروجــك أنت بالذات الى حيز الوجود كنسبة ١ الى ٣٠٠,٠٠٠ بليون أى بمعنى آخــر لو أن لك ٣٠٠,٠٠٠ بليون أخ وأخت لكانوا جميعا مختلفين عنك مناقضين لك ! .

* * *

وفى وسعى أن أحدثك عن موضــوع استقلالك بذاتك ، وانفرادك بصفاتك عن ثقة وخبرة ، فقد علمتنى التجارب المريرة، هذا الدرس لقاء ثمن فادح وأضرب لك مثلا على ذلك : عندما ارتحلت عن مــزارع « ميســورى » الى نيــويورك . التحقت بالأكاديمية الأمريكية لفنون التمثيل . اذ كنت أطمع فى أن أصبح

---

(١) الكروموزومات Chromosomes اجسام صغيرة عضوية متشابهة الشكل ، توجد فى نواة كل خلية من خــلايا الحيوان المنــوى « فى الرجل » والبويضة « فى الأنثى » ، وعددها فى كل نواة أربعة وعشرون زوجا ، الا أنها تختزل الى النصف فى حالة تكوين الخلايا التناســلية ، والحكمة فى هــذا هى المحافظة على عددها فى النوع الانسانى ، ويساهم بنصفها « أى ١٢ زوجا » الذكر ونصفها الآخر الأنثى .

(٢) Amran Shienfeld : "You and Heredity"

(٣) الجينات Genes هى عــوامل الوراثة ، التى تحملهــا الكروموزومات . ولكل صفة يتصف بها الفرد واحد على الاقل من هذه الجينات فلون العين مثلا ، يسببه « جين » خاص ، وكذلك فى سائر مميزات الانسان .

ممثلا . وراودتنى فكرة حسبتها تدنينى من النجاح فى أمد قصير ، وقد عجبت اذ ذاك كيف لم يفطن آلاف الناس الطموحين ، الى هذه الفكرة على بساطتها ؟ قلت لنفسى : على الا أن أدرس كيف توصل نوابغ الفنانين — فى ذلك العهد — أمثال «جون درو» و « والترهامدن » ، و « أوتيس سينر » الى بلوغ النجاح ، ومتى عرفت المميزات التى يمتاز بها كل منهم ، عملت على أن أجمع فى شخصى تلك المميزات جميعا ! يا للسخف ! لقد ضيعت سنين من عمرى فى محاولة التشبه بغيرى من الناس ، قبل أن يخطر لى ببال أن من المحال أن « أكون » شخصا غير نفسى . .

وكان من المتوقع ان تعلمنى هذه التجربة درسا لا ينسى ، ولكنها لم تفعل . فقد كابدت مرة اخرى تجربة مشابهة لها بعد فترة اذ شرعت فى تأليف كتاب خلته احسن ما اخرج للناس فى موضوع « الخطابة العامة وجدواها لرجال الأعمال » ، وكنت استهدف بوضع هذا الكتاب ، ذات الفكرة « الفذة » التى استهدفتها فى تعلم التمثيل ! فقد أردت أن « استعير » افكار غيرى من المؤلفين وأجمعها كلها فى مجلد واحد ! ومن ثم استحضرت عددا كبيرا من الكتب التى تبحث فى موضوع الخطابة، ورحت أعالج ادماج افكار المؤلفين فى مسودات كتابى . ولكنى مالبثت أن أدركت سخف تصرفى ، فقد وجدت فيما أنجزته من صحائف الكتاب أفكارا متناقضة ، متضاربة ، كفيلة بأن تصرف اى رجل أعمال عن المضى فى القراءة فيه ! ومنثم ضربت بمجهود سنة كاملة عرض الحائط ، وبدات من جديد ، وفى تلك المرة قلت لنفسى : « ينبغى لك أن تكون « ديل كارنيجى » بما انطوى عليه من نقائص ، وما يحده من حدود » . وهكذا شمرت عن ساعدى ، وفعلت ما كان ينبغى أن افعله منذ البداية : وضعت كتابا فى الخطابة العامة ، مستمدا من تجاربى ، وملاحظاتى ، ووجهات نظرى بوصفى ممارسا للخطابة العامة .

* * *

« كن نفسك » ! تلك هى النصيحة الحكيمة التى نصح بها الموسيقار « ارفنج برلين » زميله « جورج جيرشوين » . فحين التقى « برلين » بجيرشوين ، كان الأول علما مشهورا من اعلام الموسيقى ، فى حين كان الآخر ملحنا ناشئا يشتغل بأجر قدره خمسة وثلاثون ريالا فى الأسبوع ، وقد لمس برلين مواهب جيرشرين فعرض عليه أن يستخدمه لديه بصفة « سكرتير موسيقى » ، على ان يمنحه ثلاثة أضعاف المرتب الذى يتقاضاه، ثم شفع عرضه هذا بالنصح التالى : « ولكننى أنصحك الا تتبل! فانك ان قبلت فستحاول أن تجعل من نفسك « ارفنج برلين » آخرا ، أما اذا دأبت على أن « تكون نفسك » فستصبح يوما « جورج جيرشوين » الذى لا ثانى له ! » وقد انتصح جيرشوين بهذه النصيحة ، واصبح على مر الأيام من أشهر الموسيقيين الأمريكيين .

ولقد تعلم « شارلى شابلن » و « ويل روجرز » ، و « جين أوترى » وغيرهم ،هذا الدرس نفسه .

فعندما بدأ شارلى شابلن الاشتغال بالسينما ، أصر المخرج على أن يقوم شارلى بتقليد ممثل فكاهى شهير فى ذلك الوقت ، ولكن شارلى لم يصبح ممثلا ذا شأن الا حين بدأ يمثل على طريقته الخاصة .

وصادف الممثل الفكاهى « بوب هوب » مثل هذه التجربة . فقد انفق سنين من حياته وهو يمثل الأدوار الغنائية الراقصة ، ولكن ذكره لم ينبه الا حين أخذ يمثل الأدوار التى تصلح له ويصلح لها .

انت نسيج وحدك فى هذه الدنيا ، فاغبط نفسك على هذا ، واعمل على الاستزادة مما ركبته الطبيعة فيك من مواهب وصفات .

قال ايمرسون : « سوف ينتهى كل امرىء الى وقت يدرك فيه ان الجسد جهل ، وان التشبه انتحار ، وانه ينبغى للمرء ان يأخذ

نفسه على علاتها ، ويرضى بها كما قسمها الله له .. ويعلم أن الارض على امتلائها بالخيرات ، لن تهبه حبة من شعير ما لم يبذل الجهد فى تعهد الأرض التى تنبت الشعير ، وأن القوة التى أودعها فيه فريدة فى نوعها ، فلا أحد غيره يعلم كنهها . ولا هو نفسه يحيط بمداها ما لم يضعها موضع التجربة » .

وإذن ، فلكى تتخذ اتجاها ذهنيا يجلب لك الطمأنينة ، ويجنبك القلق ، اليك القاعدة رقم ٥ :

اعرف نفسك وكن كما خلقك الله ، ولا تحاول التشبه بغيرك .

الفصل السابع عشر

اصنع من الليمونة المالحة شرابا حلوا

أثناء اشتغالى بتأليف هذا الكتاب ، ذهبت يوما لزيارة جامعة شيكاغو وسألت مديرها « روبرت هتشينز » كيف يتجنب القلق فأجاب : لقد حاولت دائما ان اتبع نصيحة أسداها لى صديقى « جوليوس روزنوالد » ، اذ قال لى : « حين تجد لديك ليمونة ، اصنع منها شرابا حلوا » .

هذا ما يفعله الرجل العاقل ، أما الأحمق فيفعل العكس : اذا وهبته المقادير ليمونة مالحة ، تقاعس وتخاذل ، وقال : « لقد قضي على بسوء الطالع » ، ثم يروح يسخط على الناس والأقدار ويرثى لنفسه .

قال العالم النفسانى « الفرد ادلر » ، بعد أن أنفق معظم حياته فى دراسة الناس ، وخصائصهم النفسية الكامنة : « ان من أروع مميزات الانسان قدرته على تحويل السالب الى موجب » واليك مثلا على ذلك ، قصة مثيرة للسيدة « ثالما تومسون » قالت : «فى خلال الحرب العالمية الأخيرة ، صدر الأمر الى زوجى بالانتقال الى احد معسكرات التدريب فى صحراء « موجيف » بولاية نيومكسيكو . وصحبته الى مقره الجديد ، ولكن سرعان ما كرهت هذا المكان وازدريته . كان زوجى اذا خرج الى معسكر التدريب فى الصحراء، خلفنى وحيدة نهبا للضيق والضجر . فقد كانت حرارة الجو فوق ما أحتمل ، ولم اكن اجد من أحادثه أو أسامره . فالمكسيكيون والهنود الحمر لا يتكلمون الانجليزية . وكان الطعام الذى أطعمه، والهواء الذى أستنشقه محملين بذرات الرمال . وبلغ بى الشقاء مبلغا كبيرا حتى اننى كتبت لوالدى خطابا قلت لهما فيه : اننى عقدت العزم على ترك زوجى والعودة اليهما . ورد أبى على خطابى هذا بسطرين فقط ــ سطرين سأذكرهما ما حييت ، لأنهما

غيرا مجرى حياتي تماما . وهذان السطران هما : «من خلف قضبان سجن ، تطلع الى الأفق اثنان من المساجين ، فاتجه أحدهما ببصره الى وحل الطريق ، اما الآخر فتطلع الى نجوم السماء ! » .. وقد قرات هذين السطرين واعدت قراءتهما مرات ، فخجلت من نفسي، وعولت على ان أتطلع الى « نجوم السماء » . وما هي الا فترة وجيزة حتى عقدت صداقة وطيدة مع كثير من أهالى تلك المنطقة، وبادلوني هم ودا بود ، فما كنت أكاد أبدي اعجابي بشيء من منسوجاتهم ، او أوانيهم الخزفية حتى يسارعوا الى اهدائه الى. ورحت أدخل على نفسي البهجة بتأمل مغيب الشمس في جوف الصحراء ، كما أخذت أشغل وقت فراغي بالتقاط الأصداف من الرمال التي كانت يوما قاعا للمحيط .

فما الذي أحدث في نفسي هذا التغير ؟ ان صحراء «موجيف» لم تتغير . كما ، لم يتغير الهنود الحمر ، ولكنى أنا التي تغيرت ، أو تغير اتجاهي الذهني ، وبهذا استطعت أن أحول تجربة اليمة الى مغامرة مثيرة تعمر بسيرتها حياتي . بل لقد كانت تلك المغامرة من الاثارة بحيث دفعتني الى تأليف قصة عنها بعنوان « قضبان لامعة » (١) وكنت أعنى بها تلك القضبان التي تطلعت من ورائها، فرأيت نجوم السماء ! .

الا أنك يا « ثلما » لم تكتشفي الا حقيقة قديمة عرفها الاغريق قبل مولد المسيح بخمسمائة عام ، حين قالوا : « أفضل الاشياء أصعبها منالا » وأعاد « هاري ايمرسون فوزديك » صياغة هذه الحقيقة فقال : « ليست السعادة في السرور ، وانما هي في الظفر» نعم ! الظفر الذي نحسه حين تثمر اعمالنا .. حين نحيل الليمون المالح الى شراب .. حلو .

زرت مرة مزارعا سعيدا في فلوريدا ، وسعة أن يحيل ليمونة، لا مالحة فحسب ، بل « مسمومة » ايضا ، الى شراب سائغ .

---

(1) Thelma Thompson "Brigh Ramparst"

فعندما اشترى مزرعته ، ولم يكن رآها من قبل روع حين وجد تربتها مجدبة قاحلة لا تصلح للزراعة ، ولا تصلح حتى للرعى ! فكل ما ينمو فيها ليس الا أعشابا فطرية ، تقتات بها الحيات السامة التى ألفاها منتشرة فى أرضه ! .. وفجأة خطرت للرجل فكرة ، رآها وسيلة لتحويل « السالب الى موجب » . فبدأ يتعهد تربية الحيات السامة المنتشرة فى مزرعته ! وقد زرت هذا الرجل منذ بضعة أعوام ، فرأيت أفواجا من السائحين تتقاطر عليه لتشاهد أول مزرعة من نوعها فى العالم : مزرعة لتربية الحيات ! ونجح فى عمله نجاحا باهرا ، وكسب ثروة طائلة من استخلاص سموم حياته ، وتصديرها للمعامل كى تستخرج منها الأمصال المضادة لسموم الحيات ، ومن بيع جلود حياته بأسعار خيالية ، لتصنع منها أحذية السيدات وحقائب اليد ، ثم من بيع لحوم هذه الحيات بعد حفظها فى علب ، وتصديرها الى عشاق هذا اللون من اللحم فى جميع أنحاء العالم .

* * *

لقد ارتحلت شمالا وجنوبا ، وشرقا وغربا فى أنحاء أمريكا ، فصادفت كثيرا من النساء والرجال وسعهم أن يحيلوا «السالب» الى « موجب » . وقد صور « وليم بوليثو » هذه المقدرة بقوله : « ليس أهم شىء فى الحياة أن تستثمر مكاسبك ، فان أى أبله يسعه أن يفعل هذا ، ولكن الشىء المهم حقا فى الحياة هو أن تحيل خسائرك الى مكسب ، فهذا أمر يتطلب ذكاء وحذقا ، وفيه يكمن الفارق بين رجل عاقل ورجل أحمق » .

قال « بوليثو » هذه الكلمات بعد أن فقد احدى ساقيه فى حادث قطار ، ولكنى أعرف رجلا آخر فقد ساقيه جميعا ، ووسعه مع ذلك ، أن يحيل السالب الى موجب ! ذلك هو « بن فورستون » ، وقد قابلته مصادفة فى مصعد أحد الفنادق بمدينة « اتلانتا » بولاية « جورجيا » . فما ان خطوت داخل المصعد ، حتى لقيت رجلا مبتور الساقين ، ولكنه مشرق الوجه ، ضاحك الثغر ، يجلس فى

ركن المصعد ، على كرسى ذى عجلات . فلما توقف المصعد عند الطابق الذى يقطنه ، سألنى الرجل ببشاشة ولطف أن أفسح له الطريق ليخرج بكرسيه ، ثم قال ووجهه يفيض اشراقا : « آسف يا سيدى لازعاجك » . فلما غادرت المصعد الى غرفتى لم أستطع ان أفكر فى شىء آخر ، سوى هذا العاجز المشرق الوجه ، ومن ثم قصدت اليه ، وطلبت اليه أن يروى لى قصته ، فابتسم ابتسامة عريضـــة وقال :

« فى أحد أيام عام ١٩٢٩ ذهبت لأقطع بعض جذوع الأشجار، لأقيم منها فى حديقتى عمدا تتساند عليها أغصان نبات «الفاصوليا». وحملت هذه الجذوع فوق سيارتى ، واتجهت الى دارى . وفجأة سقط أحد هذه الجذوع تحت عجلات السيارة ، فى نفس اللحظة التى كنت انثنى فيها الى منعطف جانبى ، فتعثرت العجلات فى الجذع المتين ، وانقلبت السيارة ، وراحت تتدحرج حتى اصطدمت بشجرة ضخمة . وقد أصبت من جراء هذا الحادث برضوض فى سلسلتى الفقرية ، وشلل فى ساقى ، الأمر الذى استدعى بترهما. كنت فى الرابعة والعشرين حين وقع لى هذا الحادث ، ومن يومها لم أخط خطوة واحدة على الأرض ! » .

وعدت أسأله بأية شجاعة واجه هذه المسألة ، فأجابنى بأنه لم تكن له شجاعة فى ذلك الوقت ، فقد ثار فى وجه القدر ، وراح يغلى كالمرجل الذى يوشك على الانفجار ، ولكنه بمضى السنين، كان يجد أن ثورته لا تجديه الا امعانا فى الشقاء . قال : «وأدركت أخيرا أن الناس كانوا رحماء بى ، حانين على ، فوجدت أن أقل ما ينبغى لى حيالهم هو أن أكون رحيما بهم ، حانيا عليهم » .

ثم سألته هل يحس ، بعد انقضاء هذا الزمن الطويل ، أن تلك الحادثة كانت مأساة مروعة ، فأجاب على الفور : « كلا ! فانى سعيد بحدوثها » . ثم روى لى انه بعد أن تغلب على ثورة نفسه بدأ ينسج لنفسه دنيا حافلة ، فقد شغف بالمطالعة ، وبدأ يسيغ الأدب الرائع ، وقد طالع فى أربعة عشر عاما نحوا من ألف

واربعمائة كتاب ، ففتقت له هذه الكتب آفاقا جديدة ، وملأت حياته بهجة لم يكن يحلم بها ، وقد شغف فضلا عن هذا بالموسيقى ، واصبح يجد فيها روحا ومتعة بعد أن كان يجد فيها سأما وملالا . وكانت أهم حسنات هذا الحادث ، كما قال لى ، أنه وجد أمامه متسعا من الوقت للتأمل ، قال : لقد « وسعنى للمرة الأولى فى حياتى أن أتأمل أمور العالم ، وأشعر شعورا صحيحا بقيم الاشياء ، وقد وجدت أن الاشياء التى كنت أضفى عليها كثيرا من الأهمية ، وأجاهد للحصول عليها لم تكن لها فى الحقيقة بالأهمية التى علقتها عليها » .

وكنتيجة لاعتياده المطالعة اتجه ميله الى السياسة ، فدرس المسائل العامة ، وراح يلقى الخطب من مقعده ذى العجلات .. واليوم يشغل « بن فورستون » — وهو ما زال قعيد كرسيه ذى العجلات — منصب وزير الخارجية فى ولاية جورجيا .

* * *

لقد اشتغلت طوال الخمسة والثلاثين عاما الأخيرة بتعليم البالغين فوجدت أن أهم ما يشكو منه أكثر هؤلاء أنهم لا يتموا دراستهم الجامعية ، وهم يعتبرون هذا نقصا فادحا . وأنا أعلم أن هذا ليس الا وهما . فقد عرفت آلافا من الرجال الناجحين لم تتعد دراستهم المرحلة الثانوية ، ولهذا كنت اقص دائما على طلبتى قصة رجل ناجح عرفته ، لم يتم حتى المرحلة الابتدائية من الدراسة ، فقد نشأ فى فقر مدقع ، فلما مات أبوه اكتتب أصدقاؤه لنفقات كفنه ودفنه ، واشتغلت أمه عقب وفاة أبيه فى مصنع لانتاج المظلات ، فكانت تقضى فى العمل عشر ساعات من يومها ، ثم تعود الى بيتها بأجزاء المظلات لتواصل العمل حتى الساعة الحادية عشرة ليلا .

وحدث أن اشتراك الغلام فى رواية تمثيلية نظمها ناد للغلمان ، فوجد فى التمثيل شيئا مثيرا حفزه على أن يدرس فنون الخطابة والالقاء ، وجرته دراسته للخطابة الى معترك الحياة السياسية

فما ان بلغ الثلاثين من عمره حتى انتخب عضوا فى المجلس التشريعى لولاية نيويورك . غير أنه لم يكن يجد فى نفسه الاستعداد لتحمل هذه المسئولية . بل لقد صرح لى انه لم يكن يدرى من امور المجلس التشريعى شيئا .. كان يدرس مشروعات القوانين التى تعرض على المجلس ، ويعطى صوته لها أو ضدها ، ولكنه ان فهم منها شيئا فكما يفهم شيئا مكتوبا بالهيروغيلفية ! ولقد اجتاحه القلق حين عين عضوا فى لجنة من لجان المجلس خاصة بالغابات ، ولم تكن قدمه قد وطئت ارض احدى الغابات من قبل ! واجتاحه القلق مرة أخرى عندما عين عضوا فى لجنة المصارف ، وهو الذى لم يسبق له قط أن عامل أحد المصارف ! ولقد صارحنى بأنه كاد يستقيل عن طيب خاطر من المجلس التشريعى ، لولا انه كان يخجل من الافضاء لأمه بنبأ اخفاقه ! وفى غمرة يأسه قرر أن يعكف على الدراسة والتحصيل ست عشرة ساعة فى اليوم وأن يحيل «ليمونة» جهله الى «ليمونادة» سائغة من المعرفة والعلم ، فاستطاع بمجهوده ان يستحيل من سياسى محدودة شهرته بحدود ولايته ، الى سياسى ذى شهرة قومية ، لقد وصفته جريدة « نيويورك تيمس » بأنه « أقرب المواطنين الى قلوب أهالى نيويورك » .. ذلك هو « آل سميث » .

وما انقضت عشر سنوات على « آل سميث » بعد أن عكف على تنفيذ البرنامج التعليمى الذى اختطه لنفسه . حتى أصبح أشبه بموسوعة حية تعتمد عليها حكومة ولاية نيويورك . وقد انتخب محافظا لنيويورك اربع مرات متتالية ، وفى عام ١٩٢٨ رشحه الحزب الديمقراطى لرياسة الولايات المتحدة ! وقد منحته ست جامعات، من بينها جامعتا كولومبيا وهارفارد ، الدرجات العلمية الفخرية ، وهو الذى لم يتعد المرحلة الابتدائية من دراسته .

حدثنى آل سميث فقال ان شيئا مما حدث ما كان ليحدث لو أنه لم يعكف على العمل ست عشرة ساعة كل يوم ليحيل « السالب » الى « موجب » ! .

وكلما ازددت تعمقا فى دراسة الأعمال العظيمة التى انجزها بعض

مشاهير الناس ، أزددت ايمانا بأن هذه الأعمال كلها كان الدافع اليها نقائص حفز أصحابها على القيام بها . ثم جنى ثمراتها المباركة .

نعم ! فمن المحتمل ان الشاعر « ملتون » لم يكن ليكتب هـذا الشعر الرائع لو لم يكن أعمى .. وان بتهوفن لم يكن ليؤلف مثل هذه الموسيقى العظيمة لو لم يكن أصم . والأرجح أن « تشايكوفسكى» لو لم يكن شقيا معذبا فى زواجه ، حتى انه فكر فى الانتحار ، لما لحن سيمفونية العظيمة .. ولو لم يكن دستويفسكى ، وتولستوى ، معذبين فى حياتهما الخاصة لما كتبا قصصهما الخالدة .

وقد كتب تشارلس داروين — العالم الذى غير نظرة الناس الى الحياة ومنشئها — يقول : « لو لم اكن مريضا طريح الفراش ، لما انجزت من الأعمال ما انجزت » .

وفى اليوم الذى ولد فيه داروين فى انجلترا ، ولد طفل آخر فى كوخ حقير قائم على غابات « كنتوكى » وقد نبه ذكر هذا الوليد الآخر بسبب نقائصه . ذلك هو « ابراهام لنكولن » . فلو أنه نشأ فى أسرة ارستقراطية . ونال درجة جامعيـة ، وسعد فى حياته الزوجية ، فمن المرجح انه لم يكن ليلقى خطبته الخالدة خلال معركة « جتيسبرج » — فى الحرب الأهلية الأمريكية — ولا قصيدته الأخاذة التى القاها حين اعيد انتخابه رئيسا للولايات المتحدة ومطلعها : « بقلب لا يحمل شرا لانسان ، مفعم بالحب للجميع .. الخ » .

قال « هارى ايمرسـون فوزديك » فى كتابه « القـدرة على الانجاز (١) » : « من أين أتتنا الفكرة القائلة ان الحياة الرغدة ، المستقرة ، الهادئة الخالية من الصعاب والعقبات تخلق سعداء الرجال أو عظماءهم ؟ ان الأمر على العكس . فالذين اعتادوا الرثاء لأنفسهم ، سيواصلون الرثاء لأنفسهم ، ولو ناموا على الحرير

(1) Harry Emerson Fosdick "The Power to See it Through"

وتقلبوا فى الدمقس ، والتاريخ يشهد بأن العظمة والسعادة أسلمتا قيادهما لرجال من مختلف البيئات ، منها الطيب ، ومنها الخبيث ، ومنها التى تميز بين الطيب والخبيث ، حين حملوا المسئولية على أكتافهم . ولم ينتبذوها وراء ظهورهم ! » .

وهب أننا اصابنا اليأس ، فأفقدنا كل أمل فى احالة حياة الكدرة الى حياة عذبة صافية . فهناك سببان يدفعاننا الى المحاولة ، فقد نكسب كل شىء ، ولكننا من المؤكد لن نخسر شيئا :

١ — السبب الأول : أننا قد ننجح فى محاولتنا .

٢ — والسبب الثانى : أنه على فرض اخفاقنا ، فان المحاولة ذاتها — محاولة استبدال « السالب » بالموجب — ستحفزنا على التطلع الى الأمام بدلا من الالتفات الى الوراء ، وستحل الأفكار الانشائية فى أذهاننا محل الأفكار الهدامة ، وتولد فينا طاقة من النشاط تدفعنا الى الانشغال بالعمل ، فلا يغدو أمامنا متسع من الوقت للتحسر على الماضى الذى ولى وانتهى .

* * *

بينما كان عازف الكمان العالمى « أول بول » Ole Bull يقيم احدى حفلاته الموسيقية فى باريس ، انقطع فجأة وتر من أوتار كمانه ، فما كان من العازف البارع الا أن واصل العزف على الأوتار الثلاثة الباقية ! .

هكذا يجب أن تخوض معركة الحياة . لا تهتم لقطع الوتر بل واصل العزف على الأوتار الباقية .

لو كان الأمر بيدى لحفرت هذه الكلمات التى قالها «وليم بوليثو» على لوحات من البرونز وأودعت فى كل مدرسة لوحة منها :

« ليس أهم شىء فى الحياة ان تستثمر مكاسبك ، فأى أبله يسعه أن يفعل هذا ، ولكن الشىء المهم حقا هو أن تحيل خسائرك الى مكاسب ، فهذا أمر يتطلب ذكاء وحذقا ، وفيه يكمن الفارق بين

رجل عاقل ورجل أحمق » .

واذن ، فلكى تتخذ اتجاها ذهنيا يجلب لك الراحة والسعادة ، اتبع القاعدة رقم ٦ :

عندما تلقى المقادير بين يديك ليمونة ملحة ، حاول ان تصنع منها شرابا سائغا حلوا .

الفصل الثامن عشر

كيف تبرأ من « السوداء » (١) فى أسبوعين

عندما شرعت فى تأليف هذا الكتاب ، أعلنت عن جائزة قدرها مائتا دولار لأحسن قصة واقعية بعنوان « كيف قهرت القلق » واخترت للفصل فيما يرد من القصص ثلاثة حكام . هم « ايدى ريكبيكر » رئيس « شركة أيسترن للخطوط الجوية » والدكتور « ستيوارت ماكيلاند » رئيس جامعة لنكولن التذكارية ، و « هـ ، ف . كالتنبورن » المعقب السياسى بمحطات الاذاعة . وقد تلقينا ضمن ما تلقيناه من قصص ، قصتين تنافس احداهما الأخرى ، روعة وجمالا ، حتى ان الحكام لم يستطيعوا المفاضلة بينهما ، فقسمنا الجائزة بالتساوى بين صاحبى القصتين ، واليك احدى هاتين القصتين ، وقد أرسلها « س ، و ، برتون » الموظف « بشركة سيارات هويزر » ، والقاطن فى رقم ١٠٦٧ الشارع التجارى ، مدينة سير نجفيلد ، بولاية ميسورى .

« كان آخر عهدى بأمى وأنا فى التاسعة من عمرى ، فقد خرجت من البيت ذات يوم ، منذ تسعة عشر عاما فى صحبة شقيقى الصغيرين ، الى غير عودة . ولقى ابى مصرعه بعد ذلك بثلاث سنوات ، فقد حدث ان ابتاع هو وشريك له مقهى فى بلدة صغيرة ، وانتهز الشريك فرصة غياب أبى عن البلدة فى رحلة متعلقة بالعمل فباع المقهى . وقبض ثمنه نقدا ، ثم اختفى ! وتلقى أبى برقية من صديق له ينبئه فيها بالخبر ، ويرجوه أن يسرع بالعودة ، وفى أثناء هرولته فى الطريق وقد أذهله النبأ ، لقى حتفه فى حادث سيارة .

---

(١) « السوداء » أو « الملانخوليا » Melan-hoy مرض تطغى فيه الكآبة على نفسية المريض ، فتتملكه الأفكار السوداء ، ويستولى عليه اليأس ، وترتسم مظاهر مرضه هذا على وجهه فيبين فيه الوجوم وتعلو قسماته التجاعيد

وكفلت عماتي — على املاقهن ، وتقدم السن بهن ، وتمكن المرض منهن — ثلاثة من اخوتى ، أما أنا وشقيقى الأصغر ، فلم يكفلنا أحد ، بل تركنا لرحمة أهل البلدة ، وكنت فيما مضى أرتعد فرقا من ان اصبح يتيما ذات يوم ، فما بالك وقد غدوت لا يتيما وحسب ، بل مشردا أيضا ؟ ! واشفقت على واخى أسرتان من الأسر المقيمة ببلدتنا ، فكفلت احداهما أخى ، وكفلتنى الأخــرى ، وما لبثت الأقدار ، بعد أن اتخذت مقامى بين افراد الأسرة ، أن تنكرت لعائل الأسرة ، ففقد عمله ، ومن ثم ناءت هذه الرقيقة الحال بنفقــات ايوائى ، فسرحتنى بمعروف .

« ودعانى ، بعد هذا « مستر لوفتين » لأعيش معه وزوجته فى مزرعتهما التى تبعد أحد عشر ميلا عن البلدة وكان «مستر لوفتين» عجوزا فى السبعين ، الزمه المرض فراشه فــلا يبرحه . وقــد استدعانى اليه حال وصولى الى منزله ، وقال لى ان فى وسعى أن اقيم فى منزله ، واشاطره وزوجته العيش ما دمت لا أكذب ، ولا اسرق ، ولا اعصى له أمرا . وقد غدت هذه الوصايا الثلاث شريعتى ، لم أحد عنها قط . وأرسلنى مستر لوفتين الى مدرسة القرية ، فلم يمض اسبوع على ذهابى اليها حتى وجدنى ماكثا فى البيت ، وانا أبكى وانتحب وسألنى عن السبب ، فقلت له ان تلاميذ المدرســة يسخرون منى ، ويتندرون على ، ويلقبوننى باليتيم ، واننى أكبح غضبى ، وأتمالك نفسى عن مقاتلتهم بجهد جهيد . فطيب « مستر لوفتين » خاطرى وأزجى الى نصيحة ذهبت بكل ما كنت أعانيه من شقاء ، بل أحالت أعدائى الى أصدقاء أوفياء . قال لى : « أتدرى يا « رالف » أن زملاءك سوف يكفون عن السخرية منك ، والهزء بك ان انت أبديت بهم اهتماما ، وعملت على مساعدتهم قــدر استطاعتك ؟ جرب ، وسوف تلمس النتيجة بنفسك » وقد جربت ولمست .. رحت أساعد زملائى على كتابة ما صعب عليهم من الموضوعات الانشائية ، وكتبت بنفسى مناظرات بأكملها لطلبة متناظرين ، ولخصت كتبا فى مذكرات موجزة وهبتها لبعض زملائى ،

وانفقت ليالى ساهرا ، لأساعد تلميذة على اســـتيعاب دروس الرياضـــة .

« ثم غزا الموت جيراننا ، فعدا على مزارعين ، وهجر مزارع ثالث زوجته الى غير عودة ، فتطوعت لمعاونة هؤلاء الزوجات الثلاث اللواتى فقدن من يعولهن ، كنت أمر بديارهن قبيل ذهابى انى المدرسة وبعد ايابى منها ، فأحتطب لهن ، واحلب لهن الأبقار، واسقى الزرع . ولكن سرتنى النتيجة وازدهتنى . فقد غـــدوت محمودا بعد أن كنت مذموما ، واصبحت صديقا وفيا لكل انســـان فى محيطنا . وقد اظهر أهل القرية طيب شعورهم نحوى حين سرحتنى « البحرية » فى أعقاب الحرب . فقد توافد لزيارتى فى اليوم الأول لوصولى أكثر من مائتى مزارع ، قطع بعضهم فى ســـبيل الزيارة أكثر من ثمانين ميلا ! اننى لن انسى ما حييت هذا الدرس ، ولن انسى قط أننى حين انشغلت بمساعدة الناس ، واسداء العون لهم ، استبدلت بشقائى سعادة ، وبمخاوفى ثقة ، وبقلقى امنـــا واطمئنـــانا » .

مرحى ، مرحى .. لقد عرف مستر برتون كيف يكسب الأصدقاء، وعرف أيضا كيف يقهر القلق ويستمتع بالحياة .

❋ ❋ ❋

لبث الدكتور « فرانك لوب » ، من أهالى مدينة « سياتل » بولاية « واشنجتون » مريضا بداء المفاصل ثلاثا وعشرين سنة . وبرغم ذلك ، فقد قال عنه « ستيوارت هوايتهاوس » ، المحرر بجريدة « سياتل ستار » : « الحق أننى لم أر رجلا مثله منكرا لذاته، مستمتعا بحياته » ، فكيف يا ترى وسع هذا المريض الطريح الفراش أن يستمتع بحياته ؟ أتراه استمتع بها بالشـــكوى ، والنقمـــة ، والثورة ؟ أم استمتع بها بالرثاء لنفسه ، ومطالبته كل من حـــوله بالاهتمام به ؟ كلا ، بل باتخاذه فى الحياة شعارا : « أنا فى الخدمة» (ch Diem) فقد عكف على جمع أسماء وعناوين المرضى امثاله،

التسرية والترفيه الى مئات المرضى الملازمين لفراشهم ، فضــلا مشجعة لهم ، ومقوية لعزيمتهم . بل انه فى الواقع نظم « جمعية » أعضاؤها من المرضى الملازمين لفراشهم ، وهدفها تشجيع المرضى بعضهم لبعض عن طريق تبادل الرسائل ، وانتهى الأمر بهذه الجمعية أن غدت منظمة قومية اسمها « جماعة المقعدين » تنتظم آلافا من المرضى . وقد استطاع « الدكتور لوب » وهو ملازم لفراشه ، أن يدبج الرسائل بمعدل الف واربعمائة رسالة سنويا ، تحمل اسباب التسربة والترفيه الى مئات المرضى الملازمين لفراشهم ، فضــلا عما كان يتيحه لهم من التسهيلات لاقتناء الكتب ، واجهزة الراديو وغيرها

فما هو الفرق الأكبر بين « الدكتور لوب » وكثيرين غيره من المرضى ، فضلا عن الأصحاء ؟ الفرق هو هذا : كان «الدكتور لوب» يحس بين جوانحه بالشفقة والحب .. لا لنفسه بل لغيره من المرضى ، ومن ثم عكف على الترفيه عنهم بقدر طاقته ، دون أن يرجو لنفسه شيئا .

واليك اعجب حقيقة قالها رجل من علماء النفس المبرزين هو « الفرد ادلر » . فقد اعتاد هذا العالم النفسى أن يقول لمرضــاه المصابين بالسوداء (الملانخوليا) : « فى وسعكم ، أن تبرؤا من مرضكم فى اسبوعين اذا جربتم هذه الوصفة : حاولوا فى كل يوم أن ترفهوا عن شخص واحد » . وقد يبدو هذا القــول صــعب التصديق ولهذا استطرد فأقتبس شيئا مما اورده الفرد ادلر فى كتابه الرائع : « ما الذى تعنيه لك الحياة » (١) يقول ادلر : « لا يخــرج مرض السوداء فى الحقيقة عن اى نقمة وتقريع موجهان الى الغير ، وان كان المريض به يبدو كما لو كان يوجه هذه النقمة وهذا التقريع الى نفسه ، استدرارا لعطف الناس واجتلالا لاهتمامهم . وكثيرا ما يبدأ المريض بالسوداء فى سرد ذكرياته بقوله : « اذكر اننى فى

(1) Alfred Adler, «What life should Mean to You»

طفولتى كنت أرغب فى الاستلقاء على الأريكة ، ولكنى وجدت أخى مستلقيا عليها ، ولم يحمله على مفارقتها سوى بكائى ونحيبى » .. وقد يلجأ بعض المرضى بالسوداء الى الانتقام بقتل أنفسهم ، ولهذا يتحتم على الطبيب أن يقطع عليهم سبل الأعذار التى ينتحلونها للاقدام على الانتحار . وطريقتى الخاصة فى تخفيف حدة التوتر عن هؤلاء المرضى تتلخص فى اقتراح اقترحه عليهم وهو : « لا تفعلوا شيئا لا ترغبون فى عمله » وقد يبدو هذا الاقتراح غاية فى البساطة ولكنه فى الواقع يمس متاعبهم فى صميمها ، فلو استطاع المريض منهم أن يفعل ما يريده هو ، فلن يلوم أحدا غيره ، ولن يبقى أمامه مجال للانتقام من احد ! .

« وقد يحدث أن يجيبنى المريض ، اذا طلبت اليه أن يفعل ما يريده بقوله : ليس هناك ما أريد أن أفعله » ، ولكننى أكون مستعدا لهذه الاجابة ، لطول ما سمعتها ، فأقول له : « اذن لا تفعل ما لا تريده » واحيانا يقول لى المريض ، اذا سألته ماذا يريد : « اريد أن أمكث طوال الوقت فى فراشى لا ابرحه » واعلم أننى ان أقررته على الرغبة ، فسوف يتخلى عنها تمشيا مع رغبته فى السيطرة ، وان أنا انتقدت هذه الرغبة ، فسوف يقيم على حربا عوانا ، ولذلك اقره دائما على رغبته ! وثمة خطة أخرى أهدف من ورائها الى تغيير مجرى حياة المريض مباشرة فأقول له : «انك تستطيع أن تبرأ فى خلال أسبوعين اذا جربت هذه الوصفة : حاول أن ترفه فى كل يوم عن شخص واحد » واستجابات المرضى لهذه النصيحة تستحق التأمل والنظر . فمن قائل يقول : « لقد فعلت هذا طيلة حياتى » وهو فى الحق لم يفعله بتاتا ! .. الى آخر يعد بأن يفكر فى الأمر ثم لا يفكر . وقد اقول لأحدهم : « يمكنك استغلال الوقت الذى تستغرقه فى استجلاب النوم فى التفكير فى اسعاد شخص ، وبهذا تتقدم سريعا نحو الشفاء » ثم حين القاه فى اليوم التالى أسأله : « هل فكرت فيما اقترحته عليك بالأمس ؟ » فيقول : « لقد استسلمت للنوم فى اللحظة التى لامست فيها الفراش . فلم يكن لدى الوقت للتفكير » !! وقد يجيب أحد المرضى بقوله : « لا أستطيع ان افكر فى شىء من هذا ، فاننى شديد القلق » فأقول له :

« لا تكف عن القلق ، ولكن فكر بين الفينة والفينة فى اسعاد شخص» وقد يسألنى احدهم : « لماذا اسعد الآخرين ؟ ان الآخرين لا يحاولون اسعادى ! » . فأجيبه : « ان صحتك تتطلب ذلك . وسوف يعانى الآخرون مثلما تعانى اذا لم يحاولوا اسعادك » وأنا ابتغى من وراء هذا كله ان احول اهتمام مرضاى الى الغير ، فمتى اندمج المريض فى جماعته ، واصبح مع افرادها على قدم المساواة يعاونهم ويساندهم ، فقد برىء ، وعندى أن أهم ما أوصى به الدين هو حب الجار ومعاونته . والشخص الذى يحجم عن معاونة غيره خليق بأن تنصب عليه المتاعب والمشكلات . ان كل ما تتطلبه الحياة من الفرد هو أن يكون عاملا منتجا ، محبا للناس ، فعالا فى الحب والزواج » .

***

على أن « مسز وليم مون » — مديرة « مدرسة مون » لأعمال السكرتارية بنيويورك — لم تحتاج الى اسبوعين لكى تبعد عن نفسها الملانخوليا عن طريق اسعاد الآخرين ، بل انها لم تحتاج الا ليوم واحد واليك تفصيل قصتها كما روتها لى :

« منذ خمسة أعوام ، اجتابنى احساس عنيف بالتعاسة والشقاء، فقد اختطف الموت زوجى بعد سنوات قلائل من زواجنا السعيد ، وتزايدت تعاستى عندما اقتربت أجازة عيد الميلاد ، فلم أكن قد قضيت من قبل أجازة عيد مبلاد وحيدة . وقد دعانى بعض الأصدقاء لقضاء عيد الميلاد معهم ، ولكنى لم أكن استشعر للعيد بهجة ، وخلت أننى سأكون عبئا ثقيلا عليهم ، ومن ثم رفضت الدعوة .

« وفى اليوم السابق لليلة الميلاد رانت على الكآبة ، وثقلت وطأة الهم ، فخرجت فى الثالثة بعد ظهر ذلك اليوم من مكتبى بالمدرسة ، ورحت أضرب فى الشارع الخامس على غير هدى ، مؤملة ان أوفق فى اقصاء شىء من تعاستى . وكان الشارع يغص بالجماهير الفرحة المستبشرة ، وبألوان الزينة والحفاوة بالعيد ، التى أعادت الى ذهنى

ذكرى الأيام السعيدة الخالية . وشق على أن أعود الى مسكنى وأخلو فيه لنفسى ، وأحاطت بى الحيرة ، فلم أدر ماذا أفعل ولم أتمالك دموعى التى راحت تغمر عينى ، وتفيض على وجنتى وبعد ساعة أو نحوها وجدت نفسى فى مواجهة موقف « الأتوبيس » ، وذكرت أننى وزوجى طالما استهوانا ركوب « الاتوبيس » دون أن نعلم بوجهته اجتلابا للمرح والسرور فركبت أول « أوتوبيس » صادفنى ، فلما عبر بى نهر « الهدسون » ، سمعت السائق يقول : « هذه هى نهاية المطاف يا سيدتى » ولم أعرف حتى اسم البلدة التى انتهيت اليها ، ولكنى ألقيتها آمنة هادئة . وبينما انا أنتظر قدوم « الأوتوبيس » التالى ليعود بى الى بيتى ، خطر لى أن أتجول بعض الوقت فى شوارع البلدة . ومررت فى طريقى بكنيسة ، وطرقت سمعى تراتيل عيد الميلاد المنبعثة منها ، فدلفت اليها . وألقيتها عامرة بالناس ، فأتخذت مكانى فى الصف الأخير دون أن يلحقنى أحد . وكانت الأضواء الملونة المنبعثة من شجرة عيد الميلاد تبرق وتلمع كالنجوم السابحة فى سنا القمر . وكأنما تضافر سحر الموسيقى الهادئة ، والتراتيل الخاشعة ، والجوع الشديد الذى كنت أحسه — اذ لم أكن تناولت سوى وجبة الافطار — على بث الاعياء فى أوصالى ، وغلبنى النعاس ، فنمت .

« وعندما استيقظت لم أدر أين أنا .. ووجدت أمامى طفلا وطفلة أتيا ولا ريب لمشاهدة شجرة عيد الميلاد ، وسمعت الطفلة تقول لأخيها وهى تشير الى : « أترى بابا نويل ، أهو الذى أحضر هذه السيدة ؟ » وتملك الخوف الطفلين عندما استيقظت، ولكنى طيبت خاطرهما ، ولاحظت أنهما يلبسان ثيابا رثة فسألتهما عن والديهما أين هما فقالا : « ليس لنا والدان » ! والحق اننى خجلت ساعتئذ مما كنت أحسه من شقاء ! وأخذت بيدهما ، فاشتريت لهما بعض الحلوى والهدايا .. ولشد ما دهشت اذ وجدت أن احساسى بالوحدة والشقاء قد تبخر . لقد وهبنى هذان اليتيمان السعادة التى فقدتها منذ أشهر ، ولم

يسعنى الا أحمد الله على أن رعى طفولتى ، وأعاد على أعياد الميلاد فى صباى ، فى حمى والدين شفوقين رحيمين ! . لقد أسدى الى هذان اليتيمان فى ذلك اليوم اكثر ما أسديته لهما ، وعلمتنى هذه التجربة أن السعادة اخذ وعطاء ، فاذا اعطينا السعادة اعطيناها » .

* * *

وانى ليسعنى أن املأ كتابا كاملا بقصص اناس نسوا أنفسهم فاكتسبوا الصحة ، والسعادة ، والاطمئنان ، ولأضرب لك مثلا « مارجريت تايلربيتس » احدى شهيرات النساء فى أمريكا .

و « مسز بيتس » كاتبه روائية ، ولكن واحدة من رواياتها المتعة لا تعادل فى روعتها تلك القصة الحقيقية التى حدثت وقائعها لها يوم أغار اليابانيون على « بير هاربور » . كانت « مسز بيتس » مريضة بداء القلب منذ سنتين ، وكانت تلازم فراشها اثنتين وعشرين ساعة كل أربع وعشرين ساعة ، وكانت أطول مسافة يسعها أن تقطعها سيرا على قدميها لا تزيد على محيط حديقتها الصغيرة ، وحتى فى اثناء هذه « الرحلة » القصيرة كان يتحتم عليها أن تستند الى ذراع وصيفتها . قالت لى « مسز بيتس » انها كانت خليقة بأن تقضى ما بقى من حياتها ملازمة لفراشها ، لولا أن اغار اليابانيون على « بيرل هاربور » !ولندعها تروى القصة بنفسها :

« عندما وقعت الاغارة على « بيرل هاربور » . استحال الأمر فى بلدتنا الى فوضى واضطراب لا نهاية لهما ، وانفجرت احدى قنابل اليابانيين بالقرب من بيتى فألقتنى قوة الانفجار من فراشى! واسرعت سيارات الجيش تخرج من معسكرى « هيكام » و « سكوفيلد » ، ومطار « خليج كانو » تحمل زوجات رجال الجيش والبحرية واطفالهم الى المدارس العامة بعيدا عن الخطر واتصل « الصليب الأحمر » بكل من لديه مكان خال ليؤوى بعضا من هؤلاء الزوجات والأطفال . وكان رجال الصليب الأحمر يعلمون أن فى بيتى آلة تليفون ، فاتفقوا معى على أن أجعل من

بيتى ما يشبه مكتبا للاستعلامات .. واطلعونى على أماكن زوجات وأطفال رجال الجيش والبحرية ، وطلبوا الى ان أطلع عائليهم على أماكن اقامتهم . ولم البث أن علمت أن زوجى « الكوماندر روبرت رالى بيتس » سليم معافى فحاولت أن أسرى عن الزوجات اللائى لم يعرفن هل سلم أزواجهن أم لاقوا حتفهم، كما رحت أواسى أولئك اللواتى فقدن أزواجهن . وكن كثيرات.. فقد جاء فى التقارير الرسمية عن هذه الاغارة أن ٢١١٧ ضابطا وجنديا فى البحرية والجيش قتلوا ، و ٩٦٠ رجلا عدوا مفقودين! وكنت فى مبدأ الأمر أجيب عن المحادثات التليفونية التى انهالت على وأنا مستلقية فى فراشى ، ثم رحت أجيب عنها وأنا جالسة فى الفراش ، وأخيرا زحمنى العمل ، وشملنى التأثر حتى اننى نسيت مرضى بتاتا ، ونهضت من فراشى . ومن يومئذ لم أعد الى الفراش قط الا فى موعد النوم كغيرى من الأصحاء ! .. اننى أدرك الآن أنه لو لم يهاجم اليابانيون « بيرل هاربور » لكن الأرجح أن أمضى ما تبقى من عمرى طريحة الفراش .. ولقد كنت وأنا فى فراشى ، أنعم بالراحة طبعا ، والقى كل اهتمام ورعاية من الآخرين ، ولكنى أدرك اليوم اننى لهذا كنت أفقد رويدا مقدرتى على الاهتمام بنفسى .

« ولقد كانت مأساة « بيرل هاربور » من أشد المآسى فجيعة فى تاريخ أمريكا ، ولكنها بالنسبة لى، كانت نعمة من أفضل النعم ، فقد أمدتنى بقوة لم أحلم بمثلها قط ، وحولت انشغالى بنفسى الى انشغال بالآخرين ، فلم يعد لدى وقت لأفكر فى نفسى أو حتى لأهتم بها » .

ان ثلث أولئك الذين يهرعون الى عيادات الأطباء النفسيين يسعهم ، على الأرجح ، أن يشفوا أنفسهم بأنفسهم الى الانشغال بالآخرين . اترانى أتيت بهذه الفكرة من جعبة ذكرياتى ؟ بل انها أشبه بما يقوله العالم النفسانى « كارل يونج » :

« ان ثلث عدد مرضاى لا يشكون من أمراض نفسية معلومة

محددة ، بقدر ما يشكون من « فراغ حياتهم » وخلوها من البهجة والمتعـــة » .

ولعلك الآن ، أيها القارىء ، تقول لنفسك . « حسنا . ان هـــذه القصص لا تمسنى فى قليـــل أو كثير ، فلو اننى التقيت بيتيمتين ليلة عيد الميلاد ، أو لو اننى كنت فى « بيرل هاربور » يوم الاغارة عليها ، لفعلت عن طيب خاطر مثلما فعلت « مسز مون » و « مسز بيتس » ، ولكن الأمر معى يختلف فأنا أحيـــا حياة متشابهة ، كل يوم فيها كأى يوم ســـواه ، ولا شىء فيهـــا يمكن أن يســـلك فى باب المآسى أو الفواجع ، فكيف يسعنى أن أسعد الآخرين وآخذ بيدهم ؟ ولماذا ؟ وما الذى يعود على من وراء ذلك ؟ » .

الحق أنه سؤال فى موضعه ، واليك الجواب عنه : مهما تكن حياتك متشابهة متشاكلة الأيام ، فانك على التحقيق تقابل «ناسا» كل يوم فمـــا الذى تفعله معهم ؟ .. خـــذ ساعى البريد مثلا ، انه يقطع مئـــات الأميال كل يوم حاملا اليـــك بريدك ، فهـــل تكلفت يوما عناء البحث عن مسكنه لترى كيف يعيش ؟ وهـــل ســـألته مـــرة أن يطلعك على صـــور أولاده ، ليشعر بالسرور والزهو ؟ وهل ســـألته ان كانت قدماه قد كلتا من السعى ، أو أن الملل داخله من عمله المتشابه ؟

وقل مثل هذا القول عن صبى البقال ، وبائع الصحف ، وماسح الاحـــذية .. هـــؤلاء آدميون تثقل عليهم ، ولا ريب ، الهموم والمشكلات ، وتراودهم الأحلام والآمال ، وهم بلا شك ، يتحرقون لهفة الى أن يشاركهم الناس حمل همومهم ويشاطرونهم آمالهم ، فهل حققت لهم شيئا من هذه الرغبة ، وهـــل أبديت اهتمامك يوما بحياتهم الخاصة ؟ هذا هو ماأعنى .. ليس عليك أن تصبح « فلورنس نيتنجيل » ولا أن تغدو مصلحا اجتماعيا لكى تساهم فى تحسين أحوال الناس .. ابدأ بمن تقابلهم كل يوم .

ثم تسألنى : وما جدوى ذلك كله ؟ جدواه السعادة والرضا ، واكتساب الثقة بنفسك . وقد كان أرسطو يسمى هذا الضرب من معاونة الناس « الأنانية المستنيرة » وقد قال «زورد ستار » : « ان معاونة الناس ليست واجبا محتوما . ولكنها متعة تزيدك صحة وسعادة » وقال « بنجامين فرانكلين » : « عندما تسعد الناس تسعد نفسك » .

وكتب « هنرى س .. لنك » مدير مكتب الخدمات السيكولوجية بنيويورك . يقول : « ان السعادة لا تتأتى الا عن طريق انكار الذات ورياضتها على التضحية » . واعلم أن الانشغال بالناس لن يجديك خلاصا من القلق وحسب ، ولكنه سيعينك أيضا على اكتساب أصدقاء جدد والاستمتاع بأوفر قسط من المتعة .

تسأل : كيف ؟ لقد سألت مرة « وليم ليون فيلبس » الأستاذ بجامعة « ييل » هذا السؤال نفسه ، فأجاب :

« اننى لا اذهب قط الى فندق أو دكان حلاق ، أو حانوت بقال ، دون أن أقول شيئا سارا لكل من القاه . شيئا يمس الشخص بوصفه شخصا لا مسمارا فى آلة تدور ! وأحيانا أجامل الفتاة التى تبيعنى حاجتى فى أحد المحال بامتداح هندامها واطراء طريقتها فى تنسيق شعرها . وفى أحيان أخرى أسأل الحلاق : ألا يمل الوقوف على قدميه طول النهار ؟ ثم أستفسره كيف . لماذا اختار الحلاقة مهنة ، وكم من الزمن مضى عليه وهو يزاولها ، وكم « رأسا » مرت بين يديه منذ بدء اشتغاله ، وأعاونه على العد والاحصاء ! . وقد وجدت أن ابداء الاهتمام بالناس يجعل وجوههم تشع بالسعادة ، وقلوبهم تخفق بالسرور . أذكر أننى فى ذات يوم كان شديد القيظ ، دلفت الى مركبة الطعام فى أحد قطارات « شركة نيوهافن للسكك الحديدية » لتناول الغذاء .. وكانت المركبة المزدحمة تكاد تشتعل من فرط الحرارة .. ورأيت أن توزيع الطعام على طالبيه يجرى متباطئا متوانيا . فلما جاءنى

الخادم ليتلقي طلباتى ، قلت له : « لا شك أن الطهاة اليوم يعانون الأمرين من وطأة الحر ولفحة النار فى المواقد » . وبدأ الخـــادم يسب ويلعن ، حتى لاح لى كأننى أثرت غضبه ، وأخيرا هتف : « يا الهى » لقد ظللت خادما فى هذه المركبة تسعة عشر عاما سويا، ورأيت فيها الراكبين يأتون الى هنا فيشكون من رداءة الطعام ، ومن توانى الخدمة ، ويسخطون على الحر الشديد ، ولكننى لم أر من سبقك الى اظهار عطفه على الطهاة المساكين ، الذين تكاد تصهرهم حرارة الجو ووقدة النار فى المواقد . أسأل الله يا سيدى أن يكثر من أمثالك » نعم لقد دهش الخادم لأنى نظرت الى الطهاة على أنهم آدميون ، لا مجرد « تروس » تافهة فى منظمة السكك الحديدية . ان ما يبتغيه الانسان هو اهتمام الناس به بوصفه شخصا . وأنا اذ ألقى فى الطريق رجلا يجر كلبا جميلا ، أبدى اعجابى بجمال الكلب ، فاذا جاوزت الرجل وادرت نظرى اليه خلسة رأيته يربت بحنو على ظهر كلبه ، أو يقبله ، فاننى حين امتدح الكلب انما أمتدح ذوق الرجل ، وتوفيقه فى الاختيار ! .

« وقابلت يوما ، وأنا فى انجلترا . راعيا ، فأبديت اعجابى بالكلب الذى اتخذه لحراسة ماشيته ، وسألته أن يقص على كيف درب كلبه على الحراسة . فلما انصرفت ، أرسلت نظرى خلسة الى الرجل ، فوجدته يحمل كلبه على كتفه . ويداعبه ويربت على ظهره ، لقد وسعنى يومئذ أن أدخل السرور على الراعى ، وعلى الكلب ، وعلى نفسى ! » .

فهل تصور أن رجلا مثل « وليم فيلبس » يوزع محبته على الناس ذات اليمين وذات الشمال ، يمكن أن ينتابه القلق ، أو يحتاج يوما الى معونة تقدم اليه من شخص تافه مثلى ؟ كلا على التحقيق ! فلماذا لا تكون مثله ؟ .

اذا كنت أيها القارىء ، من الجنس الخشن . فأرح نفسك من قراءة القصة التالية ، انها لا تهمك فى شىء ، فهى قصة فتاة شقية الجأت عددا كبيرا من الرجال الى التقدم لطلب يدها ! وقد أصبحت

تلك الفتاة اليوم جدة ، وقد امضيت ليلة فى ضيافتها وضيافة زوجها منذ بضعة أعوام خلت .

كنت مدعوا لالقاء محاضرة فى البلدة التى تعيش فيها ، وفى الصباح التالى حملتنى بسيارتها خمسين ميلا لأدرك القطار العائد الى نيويورك .. وفى خلال تلك الرحلة اتصل بيننا الحديث عن اكتساب الأصدقاء ، فقالت لى : أود يا مستر كارنيجى أن أفضى اليك بشىء لم أفض به الى سواك ، حتى ولا لزوجى » (أعود فأحذر الجنس الخشن من القراءة ، لأن هذه القصة لن تلذ لهم كما يقدرون !) لقد حدثتنى بأنها نشأت فى عائلة فى فيلادلفيا آفتها الكبرى هى الفتر المدقع . قالت : « كانت مأساة صباى وشبابى هى الفقر الذى يخيم علينا . فما كان يسعنى أن أرفه عن نفسى، كما تفعل لداتى فى البيئة التى أعيش فيها . ولم تكن ثيابى قط من القماش الجديد ، لا ،ولا كانت تساير « الموضة » الشائعة . ومن هنا ضربت على الذلة ، وتملكنى الخجل ، حتى اننى كنت أدع دموعى تسيل ، كلما أويت الى فراشى . واخيرا ، وفى غمرة يأسى خطر لى أن أداب على سؤال اى شخص تضمنى واياه مائدة واحدة ، عن نفسه ، وعن تجاربه ، وآرائه ومشروعاته فى المستقبل ، وما كنت ابغى من وراء هذه الأسئلة ابداء الاهتمام بمحدثى ، وانما اردت أن احول بينه وبين التفرس فى ثيابى المتواضعة ! ثم حدث شىء عجيب : فاننى لطول ما استمعت الى اقوال محدثى الكثيرين ، اعتدت الاهتمام بما يقولون ، فكنت أستغرق فى الاستماع اليهم ، حتى انسى ، انا نفسى ، ثيابى ومدى تواضعها .. ولكن أعجب العجب هو هذا : لقد اشتهر عنى اننى « مستمعة طيبة » ، اشجع محدثى على الحديث عن انفسهم لأمتعهم بالسعادة ، وأدخل على قلوبهم السرور .. ومن ثم اصبحت ، على مر الأيام ، اشهر فتاة فى المحيط الذى أعيش فيه ، وتهافت الشباب على طلب يدى ! » .

هل سمعتن ايتها الفتيات ؟ ! تلك طريقة ناجحة لاصطياد الأزواج فعليكن بتجربتها !

واخال الكثيرين ممن يقرأون هذا الفصل سيقولون لأنفسهم « هذا الحديث عن الاهتمام بالناس ، واسعادهم ، ان هو الا حديث سخافة ان هو الا وعظ دينى متنكر . لا ياعم ! يفتح الله ! انا أولا ، وليذهب الآخرون الى الجحيم » .

ان كان هذا رايك فليكن . ولكنك ان حسبت أنك مصيب . فكأنما تزعم أن كل الأنبياء ، والفلاسفة ، الذين تعاقبوا على مر العصور — كالمسيح ، وكونفشيوس ، وبوذا ، وأفلاطون ، وأرسطو ، وسقراط ، وسانت فرانسيس — كانوا مخطئين . وعلى اية حال ، ان كنت تنأى عن تعاليم الأنبياء والمصلحين الدينيين ، فتعال نسأل النصيحة اثنين من الملحدين . ودعنا نبدأ بالأستاذ « هو سمان » بجامعة كامبردج ، لقد القى فى عام ١٩٣٦ محاضرة فى جامعة كامبردج عنوانها « الشعر : اسمه وطبيعته »، قال فيها : « لعل أعظم الحقائق التى وردت على لسان انسان ، هى التى انطوى عليها قول السيد المسيح : « من وجد حياته يضيعها ، ومن أضاع حياته من أجلى وجدها » .

نعم ، لقد سمعنا وعاظا كثيرين يقولون مثل هذا القول ولكن « هوسمان » ليس واعظا ، وانما هو ملحد ، متشائم ، فكر فى الانتحار اكثر من مرة ، وبرغم ذلك كله ، فقد أحس أن الرجل الذى يقصر تنكيره على نفسه ، لا ينال من الحياة شيئا يذكر ، بل احرى به أن يكون شقيا تعسا ، أما الرجل الذى ينسى نفسه فى معاونة غيره فيصيب متعة العيش .

فاذا لم يكن لقول « هوسمان » تأثير عليك ، فلنسأل النصيحة أعظم ملحد أمريكى فى القرن العشرين ، وأعنى به « ثيو دور دريزر » . لقد سخر « دريزر » من الأديان جميعها ، ووصفها بأنها أساطير الأولين ، وقصص من نسيج الخيال ، وقال عن الحياة « انها قصة يرويها أبله ، لا مغزى لها ، ولا معنى » . ولكن « دريزر » برغم ذلك يقول : « اذا شاء الرجل أن يستخلص من

الحياة المتعة ، فعليه أن يساهم فى اجتلاب المتعة للآخرين . فان متعة الشخص تعتمد على متعة الآخرين ، ومتعة الآخرين تعتمد على متعته » .

فاذا أردنا أن نجتلب المتعة للآخرين — كما يقول « دريزر » — فالأخلق بنا أن نعجل ، فان الوقت يمر .. ولن يمر أحدنا من هذا الطريق — طريق الحياة — سوى مرة واحدة .

واذن ، فاذا أردت أن تقصى عنك القلق ، وتكسب الطمأنينة والسعادة ، فاتبع القاعدة رقم ٧ :

انس نفسك وصب اهتمامك على الآخرين . اصنع فى كل يوم عملا طيبا يرسم الابتسامة على وجه انسان .

الجــزء الرابع فى سطور

سبع طرق تعينك على اتخاذ اتجاه ذهنى

القاعدة رقم ١ :

فلنعمر أذهاننا بخواطر الطمأنينة والشجاعة ، والصحة.

القاعدة رقم ٢ :

فلنتجنب القصاص من أعدائنا ، لأننا ان فعلنا آذينا انفسنا أكثر مما نؤذى أعدائنا .

القاعدة رقم ٣ :

(أ) بدلا من ان نفكر فى الجحود دعنا نسلم به

(ب) ليست السعادة فى توقع الشكر على ما بذلناه ، وانما فى البذل ذاته .

(جـ) الشكر غرس يروى ويتعهد بالسقى ، لكى ينمو ويترعرع .

القاعدة رقم ٤ :

احص نعم الله عليك .

القاعدة رقم ٥ :

الأخلق بنا الا نتشبه بأحد ، فان التشبه انتحار .

القاعدة رقم ٦ :

اجتهد أن تصنع من الليمونة الملحة شرابا سائغا .

القاعدة رقم ٧ :

فلننس انفسنا ، ولنحاول أن نوفر السعادة لغيرنا .

الجزء الخامس

القاعدة الذهبية لقهر القلق

الفصل التاسع عشر

كيف قهر أبى وأمى القلق

اسلفت اننى نشأت فى احدى مزارع ميسورى ، وأن والدى — شأنهما شأن معظم المزارعين فى ذلك الوقت — كانا يعيشان عيشة بسيطة متواضعة . كانت والدتى ناظرة مدرسة ريفية ، وكان أبى مزارعا أجيرا يتقاضى اثنى عشر دولارا فى الشهر ، فاضطرت أمى ، لكى تدبر نفقات معاشنا ، أن تصنع لى ثيابى بنفسها ، بل ان تصنع كذلك الصابون الذى نغتسل به ، ونغسل ثيابنا .

وقلما كنا نتعامل بالنقود ، بل كنا نستبدل بالزبد والبيض حاجتنا من الدقيق ، والسكر ، والبن ، وغيرها . والى أن بلغت الثانية عشرة ، لم يكن مجموع ما أنفقه فى العام كله يزيد على خمسين سنتا (أى نحو ستة عشر قرشا) . فلما ذهبت الى المدرسة، كنت اقطع فى اليوم ميلا بأكمله سيرا على قدمى ، ولا يحول دون هذه الرحلة اليومية تراكم الجليد ، أو هبوط درجة الحرارة الى الثامنة والعشرين تحت الصفر . وحين بلغت الرابعة عشر ، بدأت أستغنى عن الجوارب ، فكنت فى خلال أشهر الشتاء أحس كأن قدمى قدتا من الثلج ، ولم يكن يخطر لى قط أن هناك من ينعم بقدمين دافئتين فى الشتاء ! .

وكان والداى يعملان جاهدين . كالعبيد المسخرين ، ست عشرة ساعة فى اليوم ، وبرغم ذلك فقد كان يثقلنا الدين ، ويحالفنا سوء الطالع على الدوام . ولقد دأبت الفيضانات المتعاقبة على اغراق محصولاتنا ، وتحالف مع الفيضانات المتوالية وباء الكوليرا،

الذى كان يفتك بماشيتنا عاما بعد عام . وفى احدى السنين رحمنا الفيضان من شره ، فنما غرسنا من القمح واشتدت أعواده ، وأطعمنا الماشية حتى سمنت واكتنز لحمها ، ولكن سوء الطالع كان لنا بالمرصاد ، فقد كسدت سوق الماشية فى شيكاغو ، ولم يعد بيعها علينا بأكثر من ثلاثين دولارا مكسبا صافيا ! نعم . كانت هذه الثلاثون دولارا ثمرة عام كامـــل من التعب ، والنصب ، والاجهـــاد ! .

وبعد أيام طويلة من المجهود المضنى ، والعمل الشاق ، ألفينا أنفسنا لا معدمين فحسب ، بل مرهقين بالديون الفادحة أيضا ، وانتهى الأمر بأن رهنت مزرعتنا . ولقد طالمـــا أذاقنا المصرف ، المرهونة لديه أرضنا ، صنوفا من الهوان ، وفنونا من الاذلال ، وطالما هددنا بانتزاع ملكية الأرض التى هى مورد رزقنا الوحيد ، وكان أبى اذ ذاك فى السابعة والأربعين من عمره ، وقد قضى فى العمل المضنى أكثر من ثلاثين عاما ، فلما انتهى به الأمر الى الدين ، والهوان ، وقع فريسة القلق وانهارت صحته ، وفقد شهيته للطعام ، وتناقص وزنه ، وأنبأ الطبيب والدتى أن أبى فقد الرغبة فى مواصلة الحياة ، وكثيرا ما سمعت والدتى تقول — اذا تأخر أبى عن موعد عودته — انها تشفق أن تسعى اليه فتجد جثته متدلية من طرف حبل غليظ ! وفى ذات يوم جدد المصرف وعيدة لأبى بانتزاع مزرعتنا ، فلما مر أبى فى طريق عودته الى البيت بجسر فوق النهر الثانى بعد المائة ، أوقف عربته وترجل ، ووقف ذاهلا شاردا ، يتأمل مياه النهر المنسابة تحته . وكأنما يهم بأن يلقى نفسه بين أحضانها فيضع حدا لمتاعبه ومشكلاته .. ولكن الشىء الوحيد الذي حال بينه وبين القاء نفسه فى اليم ، كما حدثنى أبى بعد ذلك بأعوام ، هو اعتقاده الراسخ بأن الله سبحانه وتعالى لا بد متبع العسر يسرا .

وكان أبى على صواب . فقد جاء الفرج بعد الكرب ، وعاش أبى ، من بعد ذلك ، فى رغد من العيش مدى اثنين وأربعين عاما

الى أن مات فى عام ١٩٤١ وهو فى التاسعة والثمانين من عمره ، ولم تكن امى خــلال سنى الكفــاح تقلق قط ، بل كانت تداوى متاعبها بالصلاة والتعبد . واذكر ان احب آيات الكتاب المقدس لدى امى وابى كانت قول المسيح عليه السلام « فى بيت أبى منازل كثيرة أنا أمضى لأعــد لكم مكانا .. حتى حيث اكون انا تكونون أنتم أيضا » (يوحنا ١٤ من ١ الى ٥) فكان ابى وامى يتلوان هذه الآية ، ثم يركعان ويبتهلان الى الله أن يهبنا رحمته ويشملنــا برعايته .

قال وليم جيمس ! وقد كان استاذا للفلسفة بجامعة هارفارد: « ان اعظم علاج للقلق ، ولا شك ، هو الايمان » .

ولا يتحتم أن تتعلم فى « هارفارد » لتدرك هذه الحقيقة ، فقد أدركها والداى فى بيتهما الريفى المتواضــع ، فما اســـــتطاعت الفيضانات ولا الديون ، ولا النوازل أن تنال من روحهما القوية ، المستبشرة ، الظافرة ، ويسعنى الآن أن أستمع فيتردد فى أذنى صوت أمى وهى تترنم بالأغنية التالية ، وهى تدبر شئون المنزل:

الأمان ، الأمان .. يالروعة الأمان
اذ يسكبه فى نفوسنا الرحيم الرحمن
اليك اللهم ادعو أن تحيطنى بالأمان
فياضا ، غامرا ، تملأ القلب والجنان

وكانت مشيئة والدتى ان اكرس حياتى لخدمة الدين وكثيرا ما فكرت جديا فى أن أصبح مبشرا فى بلد اجنبى ، ولكنى حين ذهبت الى الجامعة ، طرأ على تغير كبير ، فقد درست علــم الأحياء ، والعلوم المختلفة ، والفلسفة والأديان المقارنة ، وقرأت كتبا كثيرة فى تفسير الكتاب المقدس فبدأت أشك فى الكثير ممــا أكده الانجيل . ورحت أرتاب فى العقائد المتزمتة التى يعظنا بها وعاظ الريف ، وتنازعتنى الحيرة ، واصبحت — على حد قول « والترهوتتمان » — « شغوفا بالتقصى والاستطلاع ، تتزاحم فى

دخيلتى أسئلة لا حصر لها » لم أدر ماذا أصدق وبأى شىء أوؤمن، ولم أر فائدة ترجى من الحياة ، فكففت عن الصلاة والعبادة ، واوشكت ان اكون جاحدا ملحدا ، يرى الحياة تسير بلا غـــاية والى غير مقصد ، وأحسب البشر مجردين من الأهداف السامية. مثلهم مثل حيوانات « الدينوسور » العملاقة التى كانت تجوب الأرض منذ مائتى مليون سنة ، وان النوع الانسانى مصيره الى انقراض يشبه انقراض حيوان « الدينوسور » .

عرفت من دراستى أن الشمس تفقد حرارتها رويدا ، وأنها متى فقدت مقدار عشرة فى المائة من حرارتها هلك كل كائن حى على وجه الأرض ، فرحت اهزا بفكرة وجود اله قادر رحيم أوجـــد السموات والأرض ، وخلق الانسان ، وركب فيه الفضائل ، وزوده بالأخلاق القويمة ، وكدت أصدق ان السموات والأرض ، بل الكون بما فيه من بلايين الشموس والكواكب الدوارة فى الفضاء المظلم المعتم ، انما خلقتها قوة غاشمة عمياء ، أو لعلها لم تخلق خلقا ، وانما وجدت وجودا ازليا كوجود الزمان ، والمكان .

افتراني توصلت الآن الى حلول لتلك الأسئلة ، وشفاء لتلك الريب والشكوك التى تنازعتنى فى صباى؟ كلا ! فما من أحد وسعه ان يفسر لغز الكون ، وسر الحياة ، فما نحن الا محوطون بالألغاز والأسرار من كل جانب ، فآلية جسدك سر من الأسرار — وكذلك الكهرباء التى تستضىء بها فى بيتك ، والأزهار التى تزين حديقتك، والخضرة التى تتطلع اليها من نافذتك : بل لقد رصد « تشارلس كيثرنج » — المهندس العبقرى المشرف على معامل ابحاث شركة « جنرال موتورز » ثلاثين الف دولار سنويا ، من جيبه الخاص ، «لكلية انطاكية» Antioch College عساها ان توفق الى معرفة سر اخضرار الزرع ! وقد صرح بقوله اننا اذا عرفنا كيف يحول الزرع ، ضوء الشمس والماء وثانى اكسيد الكربون الى سكر يتغذى به ، لوسعنا أن نغير وجه المدنية تغييرا شاملا غير ان جهلنا باسرار أجسامنا ، ومظاهر الكون المحيطة بنا ، يمنعنا من اســـتخدامها

والاستمتاع بها . ولم يعد جهلى بأسرار الدين يمنعنى من الاستمتاع بالحياة الروحية السامية التى يهيئها لى الدين ، فقد وعيت آخر الأمر حكمة « سانتايانا » البليغة : « لم يخلق الانسان فى الحياة ليفهمها وانما خلق ليحياها ! » .

لقد عدت الآن .. كنت على وشك أن أقول اننى « عدت » الى الدين .. ولكن هذا التعبير لا ينطبق فى الواقع على حقيقة ما حدث والأصح أن أقول اننى « اتخذت » نظرة جديدة الى الدين. فلم تعد تهمنى الخلافات التى تفرق المسيحيين شيعا ومذاهب ، وانما يهمنى الآن ما يسديه الى الدين من نعم ، تماما كما يهمنى النعم التى تسديها الى الكهرباء ، والغذاء الجيد ، والماء النقى ، فهذه تعيننى على أن أحياة حياة رغدة ، ولكن الدين يسدى الى أكثر من هذا ، انه يمدنى بالمتعة الروحية ، أو هو يمدنى — على حد قول وليم جيمس — « بدافع قوى لمواصلة الحياة الحافلة ، الرحبة السعيدة ، الراضية » . انه يمدنى بالامان والأمل ، والشجاعة ، ويقضى على المخاوف والاكتئاب والقلق ، ويزودنى بأهداف وغايات فى الحياة . ويفسح أمامى آفاق السعادة ، ويعيننى على خلق واحة خصبة وسط صحراء حياتى .

لقد كان الفيلسوف « فرانسيز بيكون » على حق حين قال : « ان قليلا من الفلسفة يجنح بالعقل الى الالحاد ، ولكن التعمق فى الفلسفة خليق بأن يعود بالمرء الى الدين » .

***

وانى لأذكر الأيام التى لم يكن للناس فيها حديث سوى التنافر بين العلم والدين ، ولكن هذا الجدال انتهى الى غير رجعة ، فان أحدث العلوم — وهو الطب النفسى — يبشر بمبادىء الدين . لماذا؟ لأن أطباء النفس يدركون أن الايمان القوى ، والاستمساك بالدين. والصلاة ، كفيلة بأن تقهر القلق ، والمخاوف ، والتوتر العصبى، وأن تشفى أكثر من نصف الأمراض التى نشكوها . نعم ان أطباء النفس يدركون ذلك . وقد قال قائلهم الدكتور « أ . ا . بريل »:

« ان المرء المتدين حقا لا يعانى قط مرضا نفسيا » .

لقيت « هنرى فورد » قبل وفاته ، فتوقعت أن أرى عليه سيماء رجل منهوك القوى من فرط الجهد الذى بذله فى انشـــاء مؤسسة تجارية من أضخم المؤسسات فى العالم . غير انى فوجئت حين وجدته غاية فى الرزانة والهدوء ، وآية فى الاتزان والاطمئنان برغم بلوغه الثامنة والسبعين من عمره . فلما سألتهُ هل عانى من القلق شيئا ؟ أجاب : « كلا فانى أعتقد أن الله ، سبحانه ، قدير على تصريف الأمور ، وأنه تعالى ، فى غير حاجة الى نصيحة منى، ولهذا فأنا أترك له تصريف أمورى بحكمته جل وعلا ، فعلام اذا يتولانى القلق ؟ » وعنـــدى ، أن أطباء النفس ليسوا الا وعاظا من نوع جديد . فهم لا يحرضوننا على الاستمساك بالدين توقيعا لعذاب الجحيم فى الدار الآخرة ، وانما يوصوننا بالدين توقيعا للجحيم المنصوص فى هذه الحياة الدنيا . جحيم قرحات المعـــدة ، والانهار العصبى ، والجنون . واذا شئت أمثلة على ما يعظ به علماء النفس وأطباؤها ، فالأفضل ان تقرأ مؤلف الدكتور « هنرى س . لنك » « العودة الى الدين » (١) .

أسلفت فيما سبق أن المحكمين الذين اخترتهم ليفصلوا فى القصص الواقعية التى روى فيها كاتبوها كيف قهروا القلق ، وجدوا عناء كبيرا فى المفاضلة بين قصتين رائعتين ، فقسمت الجائزة المخصصة لأحسن قصة بين هاتين القصتين مناصفة . أما القصة الأولى فقد سبق ذكرها ، واليك القصة الثانية .. انها « لا تستطيع العيش بغير الدين » . وسوف أطلق على هذه المرأة تروى تجربة عانتها امرأة لقيت الأمرين قبل أن تهتدى الى أنها اسم « مارى كوشمان » ولو أن هذا ليس اسمها الحقيقى ، فان لها أبناء وأحفادا قد يسوءهم أن يروا قصتها مذاعة على الناس .. واليك القصـــة :

---

(١) Henry S. Link. "The Return to Religion'.

« فى اشد أوقات الأزمة الاقتصادية حرجا ، كان زوجى يتقاضى ثمانية عشر دولارا فى الأسبوع . وكثيرا ما كنا نحرم من هذا المرتب على ضآلته لتغيب زوجى عن العمل بسبب مرضه . ولم نلبث أن فقدنا البيت الصغير الذى شيدناه بأيدينا ، واصبحنا ندين للبقال بمبلغ خمسين دولارا . وكان لنا خمسة أبناء ننفق على غذائهم وكسائهم ، فاشتغلت بغسل الثياب لجيراننا ، واعتدت أن اشترى الثياب المستعملة لأكسوا بها أبنائى . وانتابنى فى تلك الفترة المرض فضلا عن القلق . وفى ذات يوم ، اتهم البقال — الذى ندين له بخمسين دولارا — ابنى البالغ من العمر أحد عشر عاما بسرقة قلمين من الأقلام الرصاصية . وانهى الى ولدى خبر هذه التهمة وهو يبكى الما . وكنت أعلم أن ولدى أمين ، مرهف الاحساس ، وان التهمة أذلته أمام الناس وجرحت كبرياءه . فكانت تلك الحادثة بمثابة القشة التى قصمت ظهر الجمل ، ورحت افكر فى الشقاء المرير الذى نعانيه دون بارقة أمل فى تحسن الأحوال . ولا اشك فى اننى انتابنى من فرط القلق جنون مؤقت ، حدا بى الى فعل ما فعلت .. فقد قمت الى نوافذ غرفة النوم فأغلقتها ، وأحكمت شد أعقابها ، وسألتنى ابنتى الصغيرة وهى ترقبنى : « ماذا تفعلين يا أماه ؟ » فقلت لها : « هناك تيار هوائى أريد أن أمنعه » . ثم فتحت صنابير الغاز بالموقد .. واذ رقدت ، وارقدت جوارى ابنتى الطفلة — وكنا فى ضحى النهار — الفيتها تقول لى : « اليس هذا عجيبا يا أماه ؟ اننا لم نستيقظ من النوم الا من وقت قصير ! » فقلت لها : « لا بأس من اغفاءة قصيرة » . واغمضت عينى وأنا أسمع حفيف الغاز ينساب من صنبور الموقد ، واحسه يملأ خياشيمى . بالله ! . اننى لن انسى ما حييت رائحة الغاز ! . وفجأة احسست كأنى اسمع شيئا من الموسيقى ، وانصت لقد غاب عنى أن أطفىء « الراديو » الموضوع فى المطبخ . فقلت فى نفسى: لا بأس من ذلك ولا ضير . غير أنى لم البث أن سمعت صوتا ينبعث من جهاز « الراديو » يترنم بهذه الكلمات .

« يا له من صديق عيسى المسيح ،
« يمسح عنا حزننا وأسانا ،
« ما أجمل أن ننهي بلسان فصيح ،
« الى الله ، فى صلاتنا ، شكوانا ،
« لله كم من طريق ، تنكبناه ، صحيح ،
« لله كم من عذاب زاد بلوانا .
« لأننا لم ندع بلسان فصيح :
« اللهم يا ربنا سدد خطانا » .

واذ أنصت الى تلك الأنشودة ، أدركت أننى ارتكبت غلطة مروعة ، ودابت علي ارتكابها طيلة حياتى ! تلك هى أننى أخوض معارك الحياة جميعها وحدى ، دون أن أتخذ من الله سبحانه وتعالى ، سندا ومعينا ، ولم أبثه فى صلاتى همى وشكواى . وقفزت من فراشى ، وأغلقت صنبور الغاز ، وفتحت الأبواب والنوافذ على مصاريعها ، ورحت أنتحب واصلى . وابتهل الى الله طيلة ذلك اليوم . على اننى لم أطلب العون من الله ، بل رحت أزجى له الشكر مدرارا على ما وهبنى واختصنى : خمسة ابناء كلهم صحيح معافى جسدا وعقلا . وعاهدت الله الا اجحد نعمته من بعد ذلك . وقد حفظت عهدى . وحتى بعد أن بعنا منزلنا ، وانتقلنا الى مسكن حقير استأجرناه لقاء خمسة دولارات فى الشهر، حمدت الله على أن منحنا مأوى نأوى اليه . وأحسب أن الله اثابنى على حمدى وشكرى ، فقد تحسنت الأحوال ، لا فى يوم وليلة ، ولكن ما أن خفت وطأة الأزمة الاقتصادية حتى وسعنا أن نكتسب شيئا من المال ، فقد حصلت على عمل كبائعة للجوارب فى منتدى ليلى كبير ، وسعى أحد أبنائى الى العمل ليعين نفسه على متابعة الدراسة ، فاشتغل فى مزرعة ، يحلب ثلاث عشرة بقرة ليلا ونهارا ... واليوم ها هم أبنائى قد شبوا عن الطوق ، وتزوجوا ، واصبح لى ثلاثة أحفاد صغار . واذ أستعيد ذكرى ذلك اليوم الذى فتحت فيه صنبور الغاز أحمد الله واكرر الحمد ، على اننى أوقفت سريان الغاز فى الوقت المناسب ، فما كان أخلقنى أن أفقد كثيرا من متع

الحياة ، لو أننى مضيت فى تلك الفعلة الشنعاء الى نهايتها .. وما اكاد أسمع الآن عن شخص يبغى من فرط الشقاء ، أن يزهق روحه حتى أود أصيح به : « كلا . بربك لا تقدم .. فان أحلك لحظات حياتنا لا تعمر الا قليلا ، ثم يعقبها الضياء ! » .

* * *

تدل الاحصاءات فى أمريكا على انه فى كل خمس وثلاثين دقيقة يقع حادث انتحار ، وفى كل مائة وعشرين ثانية يصاب شخص بالجنون ، ومعظم حوادث الانتحار — وكثير من حالات الجنون على الأرجح — يمكن أن يقطع دابرها اذا أصاب هؤلاء الناس شيء من الأمان والاطمئنان ، وسكينة النفس التى يجلبها الدين ، وتجلبها الصلاة .

يقول الدكتور « كارل يونج » — أعظم الأطباء النفسيين فى هذا الجيل — فى كتابه : « الرجل العصرى يبحث عن روح » (١) .

« استشارنى فى خلال الأعوام الثلاثين الماضية ، أشخاص من مختلف شعوب العالم المتحضرة ، وعالجت مئات من المرضى فلم أجد مشكلة واحدة من مشكلات أولئك الذين بلغوا منتصف العمر .. اى الخامسة والثلاثين أو نحوها — لا ترجع فى أساسها الى افتقادهم الايمان ، وخروجهم على تعاليم الدين ، ويصبح القول بأن كل واحد من هؤلاء المرضى وقع فريسة المرض ، لأنه حرم سكينة النفس التى يجلبها الدين — اى دين — ولم يبرأ واحد من هؤلاء المرضى الا حين استعاد ايمانه ، واستعان بأوامر الدين ونواهيه على مواجهة الحياة » .

وقال وليم جيمس : « الايمان من القوى التى لا بد من توافرها لمعاونة المرء على العيش ، وفقدها نذير بالعجز عن معاناة الحياة» .

---

(1) Dr. Carl Jung. (Modern Man in Search of a Scul)

وكان خليقا بالمهما غاندى — أعظم قادة الهند منذ عهد بوذا أن يعجز عن معاناة الحياة لو لم تشدد أزره الصلاة . تسألنى كيف عرفت هذا ؟ نعم عرفته لأن المهاتما غاندى نفسه قال « بغير الصلاة كان يتحتم أن أغدو معتوها منذ أمد طويل » .

وآلاف من الناس يسعهم أن يقولوا مثل هذا القول عن أنفسهم، ومنهم أبى . الذى أسلفت انه حاول الانتحار غرقا فما منعه الا ايمانه بالله

ربما كان من المحتمل انقاذ آلاف الناس المعذبين الذين يتصايحون منذ هذه اللحظة فى مستشفيات الأمراض العقلية ، لو أنهم طلبوا العون من العناية الالهية ، بدلا من أن يخوضوا معارك الحيـــاة وحدهم بلا سند ولا نصير .

حين تستنفذ الخطوب كل قوانا أو تسلبنا الكوارث كل ارادة ، غالبا ما نتجه فى غمرة الياس ، الى الله . فلماذا بالله ننتظر حتى يتولانا الياس ؟ لماذا لا نجدد قوانا كل يوم بالصلوات ، والحمد ، والدعاء ؟ .

فى خلال الأعوام السبعة التى أمضيتها فى تأليف هذا الكتاب، جمعت مئات الأمثلة ، والقصص الواقعية ، التى تدور حول رجال ونساء وسعهم أن يقهروا القلق والمخاوف بالصلاة . ودعنى أقدم هنا قصة نموذجية ، أرسلها الى فتى يائس ، كسير القلب هو « جون أنطونى » الذى يشتغل الآن بالمحاماة فى مدينة «هوستون» بولاية تكساس . وهى :

« كنت أشتغل ببيع الكتب لحساب احدى المؤسسات . وكنت خبيرا بعملى ، مدربا عليه . فقبل أن أقصد الى عميل لأبيعه كتبى ، كنت أجمع المعلومات عن مركزه الاجتماعى ، وطبيعة عمله ، ونوع هواياته ، فاذا قابلته استخدمت المعلومات التى جمعتها بحنكة ومهارة ولكن شيئا ما كان يجرى على غير ما يرام ، فاننى نادرا ما أفلحت فى [illegible] ! .

« وتولانى اليأس ، وزدت جهدى ضعفا أو ضعفين ، ولكن مبيعاتى لم تكن تكفى لتغطية نفقاتى . واجتاحنى خوف داخلى واصبحت أخشى مقابلة العملاء ، فاذا حدث ان ذهبت الى مكتب عميل ، استبد بى هذا الخوف الداخلى حتى لأذرع المنطقة التى يسكن فيها العميل ، جيئة وذهابا افكر واتدبر قبل ان اقدم ، ماذا استنفذت معظم شجاعتى ، وارادتى فى هذا التجول ، عـــدت أدراجى الى مكتب العميل ، وطرقت بابه على وجل ، وانا أدعو الله الا يكون موجودا ! .

« وهددتنى المؤسسة التى اشتغل لحسابها بأنها ستكف عن توريد الكتب الى ما لم ازد مبيعاتى . وارسلت الى زوجتى التى تركتها ورائى حين ارتحلت عن بلدى ، تضرع الى ان أمدها بالمال لتسدد حساب البقال ، وتمسك رمقها ورمق أبنـــائى الثلاثة . وعصف بى القلق ، وازداد يأسى يوما بعد يوم ، ولم أدر ماذا أفعل .. كنت قبل ذلك قد أغلقت مكتب المحاماة فى بلدتى ، ثم رأيت أننى قد فشلت فى عملى الجديد ، ولم اعد اجد من المال ما أدفع به أجر الفندق الذى انزل فيه . بل لم اعد أجد أجر السفر لأعود ادراجى الى موطنى ، وحتى لو وجدت المال ، لمـــا أسعفتنى شجاعتى بالعودة الى بلدى ومواجهة اهلى بعد أن منيت بخسران مبين .

« وذات يوم من تلك الأيام السوداء ، عدت الى غرفتى بالفندق محطما ، كسير الفؤاد ، مكتئبا ، فلم اجد لدى ما اطعمه ســـوى زجاجة من اللبن الساخن . وأدركت فى تلك اللية لماذا يقدم بعض الناس على فتح نوافذ منازلهم ثم يقذفون بأنفسهم منها .. وكنت جديرا بأن احـــذو حـــذوهم فى تلك الليلة لو أننى أوتيت بعض الشجاعة ! .. ثم خطر لى ان اتجه الى الله ، وأبثه شكواى . فرحت أصلى ، وأضرع اليه ، سبحانه ، أن ينير بصيرتى ، ويسدد خطاى فى هذا الظلام الكثيف الذى يكتنفنى من كل جانب ، وأن يوفقنى فى عملى عسى ان أجد من المال ما يمسك رمق زوجتى واولادى .

« وما ان فرغت من صلاتى وضراعتى حتى حدثت معجزة ! .. فقد زال عنى توتر أعصابى ، وتلاشت مخاوفى ، وانقضى قلقى ، واستشعرت شجاعة ، وأملا ، وايمانا .

« وبرغم أنه لم يكن لدى من المـــال ما أسدد به أجر الفندق ، أو أسد رمقى ، فقد أحسست بالسعادة وآويت الى فراشى فنمت نوما هادئا عميقا لأول مرة منذ أعوام .

« وفى صباح اليوم التالى ، ألفيت نفسى أندفع اندفاعا الى مكاتب العملاء . ودنوت من مكتب العميل الأول وطرقت بابه بيد ثابتة لا ترتجف . واذ دلفت الى المكتب قلت للعميل وأنا رافع الرأس ،واضح النبرات مشرق الوجه : « أسعدت صباحا يا مستر سميث .. أنا « جون انتونى » مندوب « الشركة الأمريكية للكتب القانونية » . وأجاب العميل مبتسما بدوره وهو ينهض عن كرسيه مصافحا : « نعم . نعم . أنا مسرور برؤياك ، تفضل بالجلوس». وعقدت فى ذلك اليوم من الصفقات أكثر مما كنت أعقد فى أسبوع كامل ! وعدت أدراجى فى المساء فخورا مزهوا كالبطل الظافر . لقد أحسست كأننى خلقت من جديد ، والحق أننى كنت خلقا جديدا ، لأننى اتخذت اتجاها ذهنيا جديدا . ولم أطعم فى تلك الليلة زجاجة من اللبن الساخن ، بل تعشيت لحما محمرا ، وخضرا ، وفاكهة .. ومنذ ذلك اليوم اتخذت صفقاتى طريقها نحو القمة .

« لقد خلقت ، فى تلك الليلة الظلماء ـــ التى مضى عليها الآن واحد وعشرون عاما ـــ خلقا جديدا فى فندق صغير ببلدة «أماريللو» بولاية تكساس ، لأننى وعيت الرابطة التى تربطنى بالله ـــ سبحانه وتعالى . ـــ فما أسهل ان يهزم الرجل الذى يقاتل بمفرده ، أما الرجل الذى يتخذ من الله سندا ونصيرا فلن يهزم أبدا » .

وقد وعت هذا الدرس نفسه « مسز بيرو » من أهالى مدينة « هايلاند » بولاية « الينوى » ، حين واجهتها مأساة اليمة .. واليك قصتها كما روتها لى :

« فى ذات ليلة دق جرس التليفون فى منزلى ، ولبث يدق فترة من الزمن قبل أن تواتينى الشجاعة لأرفع المسماع ، وقد ملئت رعبا . كنت أخشى أن ينقل الى « التليفون » نبأ وفاة ولدى الطفل الذى كان مريضا فى المستشفى ، بالحمى الشوكية ، وصح ما توقعته ! فان المستشفى كان يطلب حضورنا على الفور .

ولن أستطيع وصف المحنة التى عانيتها وزوجى ، ونحن جالسين فى غرفة الانتظار بالمستشفى ، حتى يستدعينا الطبيب . فلما نودى علينا أخيرا وذهبنا الى غرفة الطبيب كان التعبير المرتسم على وجهه كافيا لخلع أفئدتنا رعبا ، وزادتنا كلماته رعبا على رعب . فقد قال لنا : ان فرصة النجاة أمام ولدنا ضئيلة ، وانه لا يمانع فى أن نستشير طبيبا آخر اذا ارتأينا ذلك .

« وفى طريق عودتنا انهارت أعصاب زوجى ، ورأيته يلوح بقبضته فى الهواء قائلا : « اننى وحق السماء لا أستطيع أن أسلم ولدى للموت ! » .. وهل رأيت رجلا يبكى ! انه منظر لا يسر!. واذ صادفتنا أول كنيسة فى الطريق ، أوقفنا السيارة ، ودلفنا اليها . وهناك ركعت ، والدموع تسيل على خدى مدرارا ، ولم أزد على قولى : « لتكن مشيئتك يا ربى » ولم أكد ألفظ هذه الكلمات ، حتى أحسست الهدوء يشملنى ، وشعرت بالسكينة تملأ نفسى : وفى خلال عودتنا الى البيت لم أفتأ أردد هذه الكلمات « لتكن مشيئتك يا ربى » ! ونمت تلك الليلة نوما عميقا . ولم تمض أيام حتى اتصل بنا الطبيب ، وقال ان صحة ولدنا تتحسن باطراد . ثم شفى وعوفى من بعد ذلك ، وهو الآن فى الرابعة من عمره » .

أعرف رجالا ينظرون الى الدين نظرتهم الى شىء مقصور على النساء ، والأطفال ، والوعاظ ، ويتباهون بأنهم « رجال » يسعهم أن يخوضوا المعارك بلا سند ولا معين .. فما أشد الدهشة التى تتولاهم حين يعلمون أن معظم « الرجال » — أى الأبطال المشاهير — يتضرعون الى الله كل يوم أن يساندهم ويؤازرهم .

خذ مثلا البطل « جاك دمبسى » .. لقد أخبرنى بأنه لا يأوى الى مضجعة قبل أن يتلو صلواته ، ولا يتناول طعاما حتى يحمد الله الذى وهبه اياه ، وانه لا يفتأ يردد الصلوات والدعوات اثناء تدريبه على الملاكمة ، وقبل كل جولة يخوضها .

وحدثنى ادوارد ستيتينيوس المدير الأعلى — سابقا — لشركة « جنرال موتورز » وزير خارجية امريكا السابق ، انه كان يصلى ويبتهل الى الله أن يهبه الحكمة والسداد ليلا ونهارا .

وعندما كان « البطل » ايزنهاور فى طريقه طائرا الى انجلترا ليتولى قيادة جيوش الحلفاء فى الحرب الأخيرة ، كان الشىء الوحيد الذى اصطحبه معه هو الكتاب المقدس .

وقال لى « البطل » الجنرال « مارك كلارك » انه كان يقرأ الكتاب المقدس ، خلال سنى الحرب كل يوم ، ثم يركع على ركبتيه ويصلى لله .

لقد أدرك هؤلاء « الأبطال » الحقيقة التى قالها « وليم جيمس»: « ان بيننا وبين الله رابطة لا تنفصم ، فاذا نحن أخضعنا أنفسنا لاشرافه — سبحانه وتعالى — تحققت كل أمنياتنا وآمالنا » .

وكثيرون من هؤلاء « الأبطال » قد تحققوا بأنفسهم من صدق قول الدكتور « الكسيس كاريل » ، مؤلف كتاب « الانسان ، ذلك المجهول » (١) وأحد الحائزين على جائزة نوبل .

« لعل الصلاة هى أعظم طاقة مولدة للنشاط عرفت الى يومنا هذا . وقد رأيت ، بوصفى طبيبا ، كثيرا من المرضى فشلت العقاقير فى علاجهم ، فلما رفع الطب يديه عجزا وتسليما ، تدخلت الصلاة فأبرأتهم من عللهم . ان الصلاة كمعدن « الراديوم » مصدر للاشعاع ، ومولد ذاتى للنشاط .. وبالصلاة يسعى الناس الى استزادة نشاطهم المحدود ، حين يخاطبون «القوة» التى تهيمن على

(1) Dr. Alexis Carrel, "Man the unknown"

الكون ، ويسألونها ضارعين أن تمنحهم قبسا منها يستعينون به على معاناة الحياة . بل ان الضراعة وحدها كفيلة بأن تزيد قوتنا ونشاطنا ، ولن تجد أحدا تضرع الى الله مرة الا عاد التضرع عليه بأحسن النتائج » .

وقد عرف الأمير بيرد معنى «ربط النفس بالقوة العظمى المهيمنة على الكون » ، ومعرفته تلك هى التى مكنت له سبيل الخروج من المحنة القاسية التى خاضها ، والتى روى قصتها فى كتابه «وحيد» .

فقد قضى فى عام ١٨٣٤ ، خمسة اشهر فى كوخ مطمور وسط الثلوج فى المنطقة المتجمدة الجنوبية ، وكان الشخص الوحيد على قيد الحياة جنوبى خط العرض الثامن والسبعين .. وكانت العواصف الثلجية الهوجاء تزار حواليه ، والظلام اللانهائى يضرب عليه نطاقا موحشا ، وقد وجد ، فضلا عن هذا ، أنه يتسمم تدريجيا بغاز « أول أكسيد الكربون » المتصاعد من موقده . فماذا عساه يفعل ؟ كان العون الذى ينشده على مبعدة ١٢٣ ميلا من موقعه ، ولن يتسنى لأحد ان يصل اليه قبل مضى اشهر طوال ، لقد حاول جهده ان يصلح موقد الغاز ، وجهاز التهوية ، ولكن الغاز الخانق ظل يتسرب ويملأ خياشيمه ، فاستلقى على الأرض فاقد الوعى ، لا يستطيع ان يأكل » او ينام ، واصابه من الوهن ما أعجزه عن الحركة ، ولطالما استشعر انه لن يأتى عليه اليوم التالى الا وهو فى عداد الأموات . ورسخ فى اعتقاده انه ملاق حتفه فى كوخة ذاك ، ولن يعرف أحد الى جثته سبيلا ، فما الذى انقذ حياته ؟ فى ذات يوم ، تحامل على نفسه — فى غمرة من اليأس الجاثم عليه — وتناول مذكراته ، وحاول ان يدون فلسفته فى الحياة فكتب : «ليس الجنس البشرى وحيدا فى هذا الكون » وكان وهو يكتب تلك العبارة يفكر فى النجوم المنبثة فى السماء ، وفى الكواكب والأجرام الدوارة فى افلاكها بدقة ونظام ، وفى الشمس التى لا تحرم شبرا من الأرض نورها ودفئها ، والتى لن تلبث — مهما يطل الغياب — أن تشرق على تلك البقعة النائية ، الموحشة ، فى اقصى جنوبى

الأرض .. ذلك الاحساس بأنه ليس وحيدا هو الذى أنقذ حياته !.

نرى لماذا يجلب الايمان بالله ، والاعتماد عليه ، سبحانه وتعالى ، الأمان ، والسلام ، والاطمئنان ؟ سادع وليم جيمس يجب على هذا السؤال : « ان أمواج المحيط المصطخبة المتقلبة لا تعكر قط هدوء القاع العميق ولا تقلق أمنه ، وكذلك المرء الذى عمق ايمانه بالله ، حقا ، عصى على القلق محتفظ أبدا باتزانه ، مستعد دائما لمواجهة ما عسى أن تأتى به الأيام من صروف » .

فلماذا لا نتجه الي الله اذا استشعرنا القلق ؟ ولماذا لا نؤمن بالله ونحن فى أشد الحاجة الى هذا الايمان ؟ ولماذا لا نربط أنفسنا بالقوة العظمى المهيمنة على هذا الكون ؟

ولا يقعد بك عن الصلاة والضراعة ، والابتهال ، أنك لست متدينا بطبعك ، أو بحكم نشأتك ، وثق بأن الصلاة سوف تسدى اليك عونا أكبر مما تقدر ، لأنها شيء « عملى » فعال ، تسألنى ماذا أعنى بقولى ؟ انها شيء عملى فعال ؟ أعنى بذلك أن الصلاة يسعها أن تحقق لك أمورا ثلاثة لا يستغنى عنها انسان سواء كان مؤمنا أو ملحدا .

١ — فالصلاة تغنيك على التعبير بأمانة ودقة عما يشغل نفسك، ويثقل عليها . وقد بينا فيما سلف أن من المحال مواجهة مشكلة ما دامت غامضة غير واضحة المعالم ، والصلاة ، أشبه بالكتابة التى يعبر بها الأديب عن همومه . فاذا كنا نريد حلا لمشكلاتنا ، وجب أن نجريها على السنتنا واضحة المعالم ، وهذا ما نفعله حين نبث شكوانا الى الله .

٢ — والصلاة تشعرك بأنك لست منفردا بحمل مشكلاتك وهمومك ، فما أقل من أن يسعهم احتمال أثقل الأحمال ، واعسر المشكلات ، منفردين ، وكثيرا ما تكون مشكلاتنا ماسة أشد المساس بذواتنا : فنأبى أن نذكرها لأقرب الناس الينا ، ولكننا يسعنا أن نذكرها للخالق عز وجل ، فى الصلاة . « الأطباء النفسيون يجمعون

على أن علاج التوتر العصبى ، والتأزم الروحى يتوقف الى حد كبير على الافضاء بمبعث التوتر ، ومنشأ الأزمة الى صديق قريب ، او ولى حميم . فاذا لم نجد من نفضى اليه بهمومنا كفانا بالله وليا.

٣ — والصلاة — بعد هذا — تحفزنا الى العمل ، والاقدام . بل الصلاة هى الخطوة الأولى نحو العمل ، واشك فى أن يوالى امرؤ الصلاة يوما بعد يوم دون أن يلمس فائدة أو جدوى ، او بمعنى آخر ، دون أن يتخذ خطوات مثمرة نحو تحسين حاله، وتفريج أزمته . وقد قال « الكسيس كاريل » : « الصلاة هى أعظم طاقة مولدة للنشاط عرفت حتى الآن » فلماذا لا ننتفع بها ، وسم الخالق الرب ، أوسمة الله ، أوسمه الروح ، فلا يهم اختلاف التعريف ولا التسمية ما دمنا نتفق على انه القوة الخالقة المهيمنة على الكون .

* * *

لماذا لا تغلق الكتاب عند هذا الحد ، وتذهب الى غرفة نومك وتركع لله ، وتفتح له مغاليق قلبك ؟ فاذا كنت قد فقدت ايمانك ، فاسأل الله أن يعيده اليك ، وقل : « اللهم انى لا أستطيع أن أخوض معارك الحياة وحيدا ، فاسألك يا رب المدد والعون ، اللهم اغفر لى أخطائى ، وطهر قلبى من الاثم ، وانر امامى السبيل الى السلام ، والايمان ، والعافية ، وعمر قلبى بحب الناس جميعا، لا استثنى منهم اعدائى ، انك ، يا رب ، سميع قريب مجيب الدعاء » .

الجزء السادس

كيف تتجنب القلق الذى يسببه لك النقد

الفصل العشرون

بقدر قيمتك يكون النقد الموجه اليك

فى عام ١٩٢٩ حدثت ظاهرة عجيبة اقامت دوائر التعليم واقعدتها فى طول البلاد وعرضها ، وتقاطر رجال التعليم من كل حدب وصوب ليشاهدوا هـذه الظاهرة ، . فقبل ذلك التاريخ ببضعة أعـوام ، وفد على مدينة « ييل » شاب شق طريقه الى المدينة بعرق جبينه ، فاشتغل أولا خادما فى مطعم ، ثم اشتغل بجمع الحطب ، وفى ثالث مرة اشتغل بائعا متجولا .. ثم لم تمض ثمانية أعوام على وصوله الى المدينة ، حتى كان يحتفل بتنصيبه رئيسا لاحدى الجامعات الكبرى فى أمريكا ـــ وهى جامعة شيكاغو ـــ وهو بعد فى الثلاثين من عمره ! وهز رجال التعليم رؤوسهم انكارا واستنكارا ، وانهال النقد على هذا « الفتى العجيب » كالسيل الجارف فوصف مرة بأنه حدث غر ، ورمى بأنه قليل الخبرة والتجربة ، واخيرا اتهم بأن له فى التعليم آراء خارجة شاذة . وقد ساهمت الصحف بنصيب وافر فى هذه الحملة وكالت له النقد جزافا .

ويوم الاحتفال بتنصيبه رئيسا للجامعة ، قال صـــديق لوالد « روبرت مايناردهتشينز » ـــ وهو اسم الشاب ـــ : « لقد روعت ، هذا الصباح ، حين قرات النقد الذى تكيله الجرائد لولدك » . فقال هتشينز الأب : نعم انه نقد مرير ، لكن تذكر انه بقدر قيمتك يكون النقد الموجه اليك ! » وقد ادرك هذه الحقيقة عينها « أمير ويلز » الذى أصبح فيما بعد الملك ادوارد الثامن ملك الانجليز (دوق وندسور) .

كان اذ ذاك طالبا فى كلية « دار تموث » البحرية ، وكان ولى العهد فى الرابعة عشرة من عمره حينئذ .. وفى ذات يوم وجده الضباط يبكى وينتحب فلما استطلعه عن سبب بكائه رفض أن يصرح به فى مبدأ الأمر ، وأخيرا قال ان بعض الطلبة ضربوه ! وجمع قائد الكلية الطلبة « المتهمين » وقال لهم ان الأمير فى الواقع لم يشكهم اليه ، ولكنه يود أن يقف على السبب الذى دفعهم الى ضربه .. وبعد همهمة ، وتمتمة ، ودمدمة ، وجد الطلاب الجراة للافضاء بالسبب ، فقالوا انهم ارادوا أن يتباهوا ، فى مستقبل أيامهم ، حين يصبحون ضباطا وقوادا فى بحرية جلالة الملك بأنهم ضربوا جلالة الملك ! .

فاعلم اذن انك حين يوجه اليك الضرب ، أو النقد ، أن فى ذلك اعترافا بقدرك واهميتك ، وان فيه اقرارا بأنك فعلت شيئا فذا لفت الأنظار اليك .

وكثيرا من الناس يجدون التشفى فى اتهام شخص يفوقهم ثقافة، أو مركزا ونجاحا . مثال ذلك ، أننى فى خلال تأليفى لهذا الكتاب. تسلمت رسالة من سيدة تصب فيها جام نقمتها على الجنرال «وليم بوث » مؤسس « جيش الخلاص » Salivation Army وكنت قبل ذلك قد اذعت حديثا بالراديو امتدحت فيه الجنرال بوث واثنى عليه . وقد كتبت الى هذه السيدة تقول ان الجنرال بوث اختلس ثمانية ملايين دولار من المال الذى جمعه لمساعدة الفقراء والمعوذين. والتهمة فى الواقع سخيفة ، ولكن هذه المراة لم تكن تستهدف الواقع، وانما كانت تبغى التشفى من رجل أرفع منها بمراحل . وقد القيت برسالتها فى سلة المهملات ، وحمدت الله على أننى لم اكن زوجا لها! فان هذه الرسالة لم تزدنى علما بالجنرال بوث — كما كانت تبغى كاتبتها ! — وانما زادتنى علما بكاتبتها ، فكما قال شوبنهور : « ذوو النفوس الدنيئة يجدون المتعة فى البحث عن اخطاء رجل عظيم » .

وقلما يصدق المرء أن رئيسا لجامعة كبرى يمكن أن يسلك فى عداد « ذوى النفوس الدنيئة » ، وبرغم ذلك فان رئيسا سابقا لجامعة ييل هو « تيموثى دوايت » ، وجد متعة عظمى فى اتهام رجل مرشح لرياسة الجمهورية الأمريكية ، كتب ذلك الرئيس محذرا الناس من انتخاب المرشح يقول : « لو أن هذا المرشح انتخب لراينا زوجاتنا عرضة لانتهاك اعراضهن ، ولالفينا شرفنا يوطأ بالاقدام ، ولأصبحنا طريدى الفضيلة ، وأعداء الله والانسانية » .

اولا يختلط عليك الأمر فتحسب أن هذا الاتهام موجه الى هتلر مثلا ؟ غير انه كان موجها الى « توماس جيفرسن » . وقد تسأل.. أى « توماس جيفرسن » تعنى ؟ ليس على التحقيق « توماس جيفرسن » الخالد ، محرر « وثيقة الاستقلال » ، وابو الديمقراطية الحانى عليها ؟ نعم ! انه هو بالذات ! .

ثم من تظنه الأمريكى الذى اتهم بأنه « منافق » ، « مدع » ، « لا يفترق عن القتلة والمجرمين فى شىء » ؟ وصورته ، فضلا عن هذا ، احدى الجرائد فى رسم هزلى يمثله واقفا على المقصلة ، ويوشك حدها أن يجتز عنقه ، والناس من حوله يتغامزون عليه ويتندرون به ؟ ذلك هو جورج واشنجتون !! .

لكن هذا حدث فى زمن مضى وانقضى ، فهل ترى أن الطبيعة البشرية قد ارتقت وتقدمت ؟ لنأخذ مثالا « الأدميرال بيرى » المستكشف الذى أذهل العالم بوصوله فى السادس من شهر ابريل عام ١٩٠٩ الى القطب الشمالى ذلك الهدف الذى قصرت دونه همم الرجال ، ولقى الكثيرون حتفهم دون أن يبلغوه .. ولقد أوشك « بيرى أن يموت قبل أن يصل الى هدفه ، من الجوع والبرد ، اذ تجمدت أصابع قدميه فاضطر الى بترها ، وناءت عليه المصائب والأحداث بكلكالها حتى أوشك على الجنون ! » .

لقد ثارت عليه ثائرة رؤسائه ، واشتعل غضبهم لأن الصحف والناس ، راحوا يدعون له بالتوفيق ، حتى ذاع اسمه واشتهر ،

ومن ثم حقد عليه رؤساؤه ، واتهموه بأنه جمع المال بقصد الاستكشاف العلمى . ولكنه بدده فى رحلة عقيمة الى القطب الشمالى ! والأرجح أن رؤساءه صدقوا التهمة التى الصقوها به ، فان من أصعب الأمور التحول عن تصديق ما تريد تصديقه ! وكان تصميم هؤلاء الرؤساء على اذلال « بيرى » واخضاع كبريائه قويا عاتيا ، حتى ان بيرى لم يستطع المضى فى رحلته الى القطب الشمالى الا بأمر من « ماكينلى » رئيس الجمهورية نفسه ! .

فهل تحسب أن بيرى كان يلقى من التهم ما لقى لو أنه لبث « موظفا » فى وزارة البحرية الأمريكية ؟ كلا على التحقيق ! فماذا تكون أهميته حينئذ حتى تثار حوله الأقاويل والأحاديث ؟ .

ولقد مر « الجنرال جرانت » بتجربة أسوأ من هذه بكثير . ففى عام ١٨٦٢ كسب الجنرال جرانت لجيوش الشمال — فى الحرب الأهلية الأمريكية — معركة حاسمة ، وبهذا غدا معبود الجماهير فى يوم وليلة ، وتجاوبت أصداء هذا النصر حتى فى أوربا . ثم لم تكد تمضى ستة أسابيع على هذا النصر المبين ، حتى قبض على « جرانت » ، وانتزع جيشه منه ، فبكى من فرط الاذلال واليأس كما يبكى الطفل !

فلماذا قبض على الجنرال جرانت ؟ لأنه أثار غيرة رؤسائه منه ، واستثار حفيظتهم عليه ! واذن ، فاذا انتابك القلق من جراء تهمة الصقت بك ، أو نقد وجه اليه ، فاليك القاعدة رقم ١ :

تذكر أن النقد الظالم انما هو اعتراف ضمنى بقدرتك وأنه بقدر أهميتك وقيمتك يكون النقد الموجه اليك .

الفصل الحادى والعشرون

كن عصيا على النقد

قابلت ذات يوم الميجور جنرال « سميدلى بتلر » ، الملقب « بشيطان الجحيم » والذى اثر عنه انه من اشد القواد الذين تعاقبوا على بحرية الولايات المتحدة حزما ، فأخبرنى بأنه فى صباه كان يتلهف على الشهرة الذائعة ، والجاه العريض ، والشخصية القوية . ولهذا كان يضيق بأقل النقد الموجه اليه ويثور لأنفه ما يمس الكرامة والكبرياء . غير أن الأعوام الثلاثين التى قضاها فى البحرية غيرت من طباعه ، وجعلته أمنع من أن ينال منه النقد . قال لى : « طالما ذقت صنوفا من الاهانة والاذلال ، وطالما رميت بأننى كلب عقور ، وحية رقطاء ، وثعلب مراوغ . وطالما لعنتى خبراء فى فن الشتم فلم يدعوا شيئا من أقذر الوان السباب الا رمونى به . فهل ترانى كنت ألقى الى كل ذلك بالا ؟ كلا ! ولو أننى اليوم سمعت واحدا يسبنى لما حولت نظرى اليه لأرى من عساه أن يكون ! » فاذا كان بتلر قد استعصى على النقد ، فانه والحق يقال ، على نقيض الكثيرين منا الذين يأخذون اللوم مأخذ الجد ، فيصيبهم من جراء ذلك الهم والكدر .

اذكر أن محررا فى جريدة «شمس نيويورك Newyork Sun حضر منذ سنوات احدى المحاضرات فى معهدى ، واذا به فى اليوم التالى يهاجمنى على صفحات جريدته ، وينتقد طريقتى فى التدريس .. فهل ترانى ثرت ثورة جارية لهذا الانتقاد العلنى ؟ نعم . الى حد ما . فقد أخذت هذه الجملة على أنها اهانة موجهة الى شخص ، وخاطبت « جيل هودجز » مدير تحرير الجريدة تليفونيا ، وطلبت اليه أن ينشر مقالا يضمنه الحقائق المجردة بدلا من أن يحشوه بالهزء والسخرية . وبرغم أننى كنت معتزما أن يكون القصاص على قدر الجرم لا اكثر ، الا أننى آسف اليوم على

ما فعلت .. فأنا ادرك اليوم أن نصف الذين قراوا الجريدة لم تقع انظارهم على المقال اطلاقا ، وأن نصف الذين قراوه اخذه على انه دعابة بريئة ، وأن نصف الذين حملوه محمل الجد قد نسوه تماما فى خلال اسابيع معدودة ! .

وانى لأعلم علم اليقين أن الناس لا يشغلهم التفكير فى زيد او عمرو من الناس أكثر من لحظات ، فهم مشغولون بالتفكير فى انفسهم منذ يفتحون أعينهم على اليوم الجديد ، حتى يأوون الى مضاجعهم، وأن صداعا خفيفا يلم بهم لهو كفيــل بأن يلهيهم عن خبر موتى او موتك ! .

وحتى لو نالنا من الناس كذب وافتراء ، وطعن يوجه الى ظهورنا جهرا أو فى الخفاء ، فلا ينبغى أن يحزننا هذا . أم هــل نحن أفضل من السيد المسيح عليه السلام ؟ لقد خانه واحد من حوارييه الاثنى عشر المقربين لقاء رشوة ، تقدر بعملتنا الحالية ، بنحو تسعة عشر دولارا ! وهجره آخر هجرا غير كريم حين احدق به الخطر واقسم ثلاثا بأنه لا يعرف المسيح ، فلماذا ننتظر نحن خيرا مما نال السيد المسيح ؟ ! .

لقد اكتشفت منذ سنوات اننى وان عجزت عن اعتقال السنة الناس حتى لا يطلقوها فى ظلما وعدوانا ، الا انه وسعنى أن افعل ما هو خير من هذا .. أن اتجاهل لوم الناس ونقدهم ! .

ودعنى أوضح لك ما أعنى : اننى لا أطلب اليك ان تتجــاهل النقد اطلاقا ، وانما اقصد النقد الظالم المغرض . سألت ذات يوم « اليانور روزفلت » كيف تواجه النقد ـــ والله يعلم كم لاقت منه ، فلعل من تهيأ لها من الأعداء اكثر مما تهيأ لامرأة سواها عاشت فى البيت الأبيض ــ فأجابتنى بأنها ، كانت فى صباها على قدر كبير من الحياة ، والخوف مما عسى أن يرميها به الناس ، وكانت تخشى النقد وتتقيه ، حتى انها قالت ذات مرة لعمتها ، شــقيقة ثيودور روزفلت : « اننى أحجم عن هذا العمل او ذاك خشية النقد ، فماذا تنصحيننى ؟ » وحدجتها عمتها بنظرة فاحصة ثم قالت : « لا تهتمى

بما يتقول به الناس عليك ما دمت تقبلين على عمل وانت واثقة من انك على صواب » وقد عملت مسز روزفلت بهذه النصيحة ، فكانت لها سندا قويا فى مستقبل حياتها .

عندما خاطب « تشارلس شواب » — صاحب مصانع الصلب الشهيرة — طلبة جامعة « برنستون » ، صرح لهم بأن أهم درس وعاه فى حياته ، تلقاه على يد رجل ألمانى عجوز كان يشتغل فى مصانعه ، فقد حدث أن اشتبك هذا الألمانى ، فى خلال الحرب الأخيرة ، مع طائفة من عمال المصنع فى جدل حاد حول الحرب ، والموقف السياسى ، فما كان من العمال فى فورة حماستهم ، الا أن طوحوا به فى النهر ! قال شواب : « وعندما اتانى هذا العجوز ملطخا بالوحل ، مبتلا بالماء ، سألته ماذا فعل للعمال الذين قذفوا به فى النهر ، فأجاب : « لا شىء . لقد ضحكت ! » . وقد صرح شواب بأنه اتخذ كلمة هذا الرجل الألمانى شعارا له منذ ذلك الحين!.

وتتجلى فائدة هذا الشعار حين تغدو هدفا لنقد ظالم مغرض. فأنت ولا ريب قدير على رد الصاع صاعين للرجل الذى يتصدى للرد على انتقادك له . ولكن ماذا عساك تفعل للرجل الذى يضحك من انتقادك له ؟ لقد كان لنكولن خليقا بأن ينهار تحت وطأة التوتر الذى ساير الحرب الأهلية الأمريكية ، ولو لم يدرك أن محاولة الرد على كل نقد يصيبه سخف وحماقة . قال لنكولن : « لو اننى حاولت ان اقرا — لا ان ارد وحسب — كل ما وجه الى من نقد لشغل هذا كل وقتى ،وعطلنى عن أعمالى . اننى ابذل جهدى فى أداء واجبى، فاذا أثمرت جهودى فلا شىء من النقد الذى وجه الى يهمنى من بعد ذلك . واذا خاب مسعاى ، فلو اقسمت الملائكة على حسن نواياى لما اجدى هذا فتيلا ، فحسبى اننى اديت واجبى وارضيت ضميرى» .

واذن ، فعندما يوجه اليك النقد ظلما وعدوانا ، تذكر القاعدة رقم ٢ :

ركز جهودك فى العمل الذى تشعر من اعماقك انه صواب وصم اذنيك بعد ذلك عن كل ما يصيبك من لوم اللائمين .

الفصل الثانى والعشرون

حماقات ارتكبتها

فى أحد أدراج مكتبى ملف خاص مكتوب عليه «حماقات ارتكبتها» وأنا أعتبر هذا الملف بمثابة سجل واف للأخطاء والحماقات التى ارتكبتها . وبعض هذه الأخطاء أمليته على سكرتيرتى فتولت هى كتابته ، وأما بعضها الآخر ، فقد خجلت من املائه ، فكتبته بنفسى!. ولو أننى كنت أمينا مع نفسى لكان الأرجح أن يمتلىء مكتبى بالملفات المكتوب عليها « حماقات ارتكبتها » ! .

وعندما استخرج سجل أخطائى ، واعيد قراءة الانتقادات التى وجهتها الى نفسى ، أحس أننى قادر ، مستعينا بعبر الماضى ، على مواجهة أقسى ، واشد المشكلات استعصاء .

لقد اعتدت فيما مضى أن ألقى على الناس مسئولية ما ألقاه من مشكلات ، لكنى وقد تقدمت بى السن — وازددت حنكة وتجربة فيما أحال — أدركت آخر الأمر ، أننى وحدى المسئول عما أصابنى من سوء ، وفى ظنى أن كثيرا من الناس يدركون ما أدركت ، ولقد قال نابليون وهو فى منفاه بجزيرة سانت هيلانة : « لا احد سواى مسئول عن هزيمتى . لقد كنت أنا أعظم عدو لنفسى » ! .

ودعنى أحدثك عن رجل برع فى « فن » مراجعة النفس ، ومناقشتها الحساب . ذلك هو « هـ . ب هاول » الذى عندما أعلن نبأ موته المفاجىء ، فى فندق « امباسادور » بنيويورك . فى الحادى والثلاثين من شهر يوليو عام ١٩٤٤ ، أصيب حى « وول ستريت » — حى رجال الأعمال والمال — بصدمة قاسية زلزلته . فقد كان الرجل ماليا كبيرا ، ورئيسا لمجلس ادارة المصرف التجارى الوطنى ، ومديرا لعدة شركات كبرى ، لم يتلق هذا الرجل قدرا يذكر من الثقافة ، وانما بدأ حياته العملية كاتبا بسيطا فى متجر ريفى ، وحين سألته أن يقص على قصة نجاحه فى الحياة ، قال : « اننى أحتفظ ،

منذ أمد بعيد بمفكرة صغيرة فى جيبى ادون فيها المقابلات التى يتعين على انجازها فى يومى،وتعلم اسرتى أننى اخصص مساء يوم السبت من كل اسبوع لمراجعة نفسى فيما كسبت واكتسبت طوال الأسبوع، فما ان اتناول عشائى حتى اخلو لمفكرتى الصغيرة ، واستعيد كل مقابلة تمت ، وكل نقاش دار ، وكل عمل انجز خلال الأسبوع منذ صباح الاثنين — بداية الأسبوع — ثم اسأل نفسى : « اى الأخطاء ارتكبتها هذا الأسبوع ؟ واى الاعمال صحبنى فيها التوفيق ؟ وكيف كنت أستطيع أن أستزيد من التوفيق ؟ واية دروس أعيها من تجارب هذا الأسبوع ؟ » وكثيرا ما أخرج من هذه المراجعة مغتما ، وقد أذهلنى عدد ما ارتكبت من أخطاء ! ولكن الشىء الذى كنت الحظه دواما هو ان أخصائى تقل تدريجا أسبوعا بعد أسبوع . وما زلت ملتزما هذه الخطة فى مراجعة النفس منذ سنين طويلة ، واحسب أنها قد قيضت لى من النجاح اكثر مما قيض لى اى شىء آخر !».

ولعل « هاول » قد استعار هذه الطريقة فى « مراجعة النفس » من « بنجامين فرانكلين » ، الا أن الفارق الوحيد بينهما أن فرانكلين لم يكن ينتظر حتى يحل نهاية الأسبوع ، بل كان ينصب لنفسه هذه المحاكمة العسيرة كل مساء .. وقد اكتشف فرانكلين ان هناك ثلاثة عشر خطأ خطيرا يقترفها على الدوام ، وهذه هى أهم ثلاثة منها : تضييع الوقت سدى ، والانشغال بالتوافه ، والجدال مع الناس على غير طائل يرجى ، ورسخ فى ذهن فرانكلين أنه ما لم يتخلص من هذه الأخطاء فلن يتقدم فى الحياة شيئا يذكر ، ومن ثم عمد الى تخصيص أسبوع لمحاربة كل نقيصة من نقائصه على التوالى ، وأفرد سجلا يدون فيه يوما بيوم أنباء انتصاره على نقائصه أو هزيمته . وقد لبث فرانكلين فى حرب ضد أخطائه أكثر من عامين ، فلا عجب أن غدا واحدا من أقرب المقربين الى قلوب الأمريكيين ! .

وانك لتجد الحمقى وحدهم هم الذين ينساقون وراء الغضب لأتفه ما يوجه اليهم من اللوم . أما العقلاء فيتلهفون على ادراك

ما ينطوى عليه اللوم من الحقيقة ليعملوا على تلافيه ، وفى هذا الصدد يقول « والت ويتمان » : « اتراك تعلمت دروس الحياة من اولئك الذين امتدحوك . وآزروك ، وحنوا عليك ؟ أم تعلمتها من اولئك الذين هاجموك ، وانتبذوك ، وقست قلوبهم عليك ؟ » .

ليت شعرى ، لماذا ننتظر حتى يلومنا الناس على عمل اقترفناه؟ افليس الأكرم لنا أن نكون نحن نقادا ولائمين لأنفسنا ؟ دعنا اذن نفتش عن أخطائنا ، ونجد لها الدواء الشافى قبل أن يفتح أعداؤنا افواههم بكلمة لوم ، أو بعبارة نقد . وهذا هو ما فعله العلامة « تشارلس داروين » ، فقد انفق خمسة عشر عاما ينتقد نفسه !. فانه حين فرغ من تسويد كتابه الخالدة « أصل الأنواع » (١) ، أدرك أن نشر هذا الكتاب الذى تضمن الثورة على نظرية « خلق الانسان» التقليدية ، خليق بأن يؤلب عليه رجال الفكر عامة ورجال الدين خاصة ، ومن ثم نصب نفسه ناقدا وأنفق خمسة عشر عاما أخرى، غير التى قضاها فى تأليف نظريته ، يراجع نظريته ، ويتحدى منطقه، وينتقد اكتشافاته .

افترض أن أحدا اتهمك بأنك غر أحمق ! فماذا عساك تفعل ؟ اتغضب ؟ أتثور ؟ لا تجب . . وانما أنظر الى ما فعله لنكولن فى مثل هذا الموقف . فقد وصفه « ادوارد ستانتون » ، وزير الحربية فى عهده ، بأنه « غر أحمق » ، وكان مبعث غضب ستانتون أن لنكولن لا يحس سياسة الأمور ! اذ انه — اى لنكولن — لكى يرضى أسرة أحد السياسيين ، وقع أمرا بنقل بعض فرق الجيش من مواقعها . ورفض ستانتون أن ينفذ هذا الأمر بل زاد على ذلك فوصف لنكولن بأنه « غر أحمق » لأنه وقع هذا الأمر . فلما تناهى قول ستانتون الى لنكولن ، قال الأخير : اذا كان ستانتون يقول اننى غر أحمق فلا بد أننى كذلك ، فانه يوشك أن يكون صائبا فى كل ما يقول . سأذهب اليه لأتحقق من الأمر بنفسى » .

---

(1) Charles Darwin, "The Origin of Species"

وذهب اليه لنكولن ، فأقنعه ستانتون بأن توقيع هذا الأمر كان فى غير محله ، فحسب لنكولن الأمر ! نعم ، هذا هو كل ما حدث ! فقد رحب لنكولن بالنقد حين عرف انه نقد نزيه ، قائم على الحقائق المجردة ، وهدفه وضع الأمور فى نصابها .

وأخلق بك وبى أن نرحب نحن أيضا بمثل هذا النقد ، فاننا على التحقيق « لا نأمل أن نكون على صواب ثلاث مرات من كل أربع » والعبارة الأخيرة من قول « ثيودور روزفلت » حين كان رئيسـا للولايات المتحدة . أما « اينيشتين » أعظم مفكرى العصر الحديث ، فقد صرح بأنه مخطىء فى آرائه تسعة وتسعين فى المائة من الوقت! .

يقول « لاروشفوكو » : « ان آراء أعدائنا فينا أدنى الى الصواب من آرائنا فى انفسنا » . وأنا اعلم أن هذا القول حق ، أو هو يصدق فى معظم الأحيان ، وبرغم ذلك ، فما ان يتصدى أحد لا نتقادى حتى انهيأ للدفاع حتى قبل أن يفرغ الناقد ما فى جعبته . اننا جميعـا ميالون الى دفع اللوم ، والى الترحيب بالمديح ، بما نحن بمنطقيين وانما نحن عبيد لعواطفنا ، ومثل منطقتنا كمثل قارب تتقاذفه أمواج بحر صاخب مضطرب .. هذا البحر الزاخر هو عواطفنا .

أعرف رجلا كان يشتغل بتوزيع الصابون لقاء عمولة . كان يذهب الى حد طلب النقد بلسانه ! فعندما بدأ بتوزيع الصابون لحساب شركة «كولجيت» لم يوفق كثيرا فى مهمته ، فكان اذا رده احد العملاء خائبا ، تحول فى الشارع متسائلا أى خطأ ارتكبه؟ اتراه لم يسهب فى شرح قيمة الصابون ؟ أتراه كانت تعوزه الحماسة؟ وفى أحيان كثيرة كان يعود أدراجه الى العميل ويقول له : «اننى لم أعد اليك لأحلف فى السؤال ، وانما اتيت أطلب النصح . فهلا تكرمت باطلاعى على الخطأ الذى اقترفته حين عرضت عليك بضاعتى منذ دقائق ؟ » وقد أكسبته هذه الطريقة كثيرا من الأصدقاء وكثيرا من النصائح التى لا تقوم بثمن . أتعرف أين هو الآن . انه مدير « شركة صابون كولجيت ، وبالموليف ، وبيت » أكبر الشركات العالمية لانتاج الصابون .. ذلك هو « ا . هـ . ليتل » . وفى خلال

العام الماضى كان ترتيبه الرابع عشر بين أوفر الرجال ربحـا فى امريكا .

فلكى تتقى القلق الذى يجلبه لك النقد اليك القاعدة رقم ٣ :

احتفظ بسجل تدون فيه الحماقات والأخطـاء التى ارتكبتهـا واستحققت النقد من أجلها ، وعد اليه بين حين وآخر لتستخلص منه العبر التى تفيدك فى مستقبلك ، واعلم أن من العسير أن تكون على صواب طول الوقت ، فلا تستنكف أن تفعل مثلما فعل «ا.هـ. لينتل» اسأل الناس النقد النزيه الصريح .

الجزء السادس فى سطور

كيف تتجنب القلق الذى يجلبه النقد

* * *

القاعدة رقم ١

النقد الظالم ينطوى غالبا على اطراء متنكر ، فمعناه — على الأرجح — انك أثرت الغيرة والحسد فى نفوس منتقديك .

القاعدة رقم ٢

ركز جهدك فى العمل الذى تشعر من أعماقك انه صواب، وصم أذنيك بعد ذلك عن كل ما يصيبك من لوم اللائمين .

القاعدة رقم ٣

احتفظ بسجل دون فيه الحماقات والأخطاء التى ترتكبها وتنتقد بسببها ، ولا تستنكف أن تسأل الناس النقد النزيه العف ، الأمين .

الجزء السابع

ست طرق تقيك الأعياء والقلق
وتحفظ لك نشاطك وحيويتك

الفصل الثالث والعشرون

كيف تضيف ساعة الى ساعات يقظتك

لماذا ترانى أكتب عن اتقاء الاعياء فى كتاب هدفه علاج القلق الجواب بسيط . فالقلق غالبا وليد الاعياء . أو هو أدنى الى الوقوع مع الاعياء . واى طالب يدرس الطب يسعه أن ينبئك بأن الاعياء يحد من قوة مقاومة الجسم لنزلات البرد ، ولعشرات الأمراض الأخرى . كما أن أى طبيب نفسانى يسعه أن ينبئك بأن الاعياء يقلل من قوة مقاومتك لعواطف الخوف والقلق ، ومن ثم ففى دفع الاعياء دفع للقلق كذلك ، هذه هى الحقيقة التى اكدها « الدكتور ادموند جاكوبسون » الذى الف كتابين فى « الاسترخاء » Relaxation « الاسترخاء المطرد » و « يجب أن تسترخى » (١) . وقد ظل جاكوبسون سنين عدة مديرا لمعامل « الفيسيولوجيا الاكلينيكية » بجامعة شيكاغو ، وانفق هذه السنين يبحث فى استخدام الاسترخاء كوسيلة من وسائل العلاج ، وقد صرح بقوله «ان اى مرض عصبى» أو خلل عاطفى ، لا يمكن أن يحدث مع الاسترخاء التام » .

ويمكننا أن نصوغ هذا القول صياغة أخرى فنقول : « لن يتسنى لك أن تواصل القلق اذا استرخيت » .

---

(1) Dr. Edmund Jackobson, "Progressivo Relaxation" "You Must Relax"

واذن ، فلكى تتقى الاعياء الذى ينجم عنه القلق ، التزم القاعدة الأولى :

اكثر من الراحة ، واسترح قبل أن يفاجئك التعب

وقد اكتشف الجيش الأمريكى ، بعد تجارب كثيرة : أن الجنود يسعهم أن يصمدوا للسير امدا اطول اذا هم القوا عتادهم واستراحوا عشر دقائق فى كل ساعة ، ومن ثم اصدرت قيادة الجيش امرا بأن يلتزم الجنود هذه القاعدة . والقلب ليس أكثر صلابة من الجيش الأمريكى . . فان القلب يدفع من الدماء فى الشرايين كل يوم ما يكفى لملء عربة من عربات قطار البضاعة ! كما انه يبذل من المجهود فى خلال أربع وعشرين ساعة ما يكفى لجعل عشرين طنا من الفحم فى كوم ارتفاعه عشر اقدام رمادا ! والقلب ، بعد هذا ، يقوم بهذه المهمة الشاقة التى لا يكاد يصدقها العقل لمدة خمسين ، أو سبعين ، وربما تسعين عاما . . فكيف يصمد القلب لهذا المجهود ؟ يجيبك عن هذا السؤال الدكتور « والتر كانون » ، فيقول : « يعتقد معظم الناس أن القلب دائب العمل بلا توقف ، والحقيقة غير هذا . . فان ثمة فترة استراحة بين كل نبضة واخرى . والقلب اذ ينبض بمعدل سبعين نبضة فى الدقيقة — وهو المعدل العادى — فانما يشتغل فى الواقع تسع ساعات فقط فى كل اربع وعشرين ساعة ، اى أن مجموع فترات الراحة التى يلتزمها القلب يبلغ خمس عشرة ساعة فى اليوم ! » .

وفى خلال الحرب العالمية الأخيرة ، استطاع «وينستون تشرشل» وكان يومئذ قد جاوز الستين من عمره ، أن يشتغل ست عشرة ساعة فى اليوم مضطلعا بأعباء الحرب التى تخوضها الامبراطورية البريطانية . . فهل تدرى كيف استطاع تشرشل أن يفعل هذا ؟ كان يعكف على العمل وهو فى فراشه حتى الساعة الحادية عشرة صباحا ، فيقرأ الأوراق ويصدر الأوامر ، ويجرى المحادثات تليفونية ، ويعقد الاجتماعات العاجلة . حتى اذا تناول غذاءه د الى الفراش مرة أخرى ليستريح ساعة . وفى المساء يعود الى

الفراش مرة ثالثة ليستريح ساعتين قبل ان يتناول عشاءه فى تمام الثامنة مساء . لهذا لم يثك تشرشل التعب .. ولأنه أكثر من الراحة وسعه ان يصمد للعمل ، وان يقبل عليه كل يوم فى نشاط متجـــدد .

لقد استطاع « جون د .. روكفلر » الأب أن يضرب رقمين قياسيين : الأول أنه جمع أكبر ثروة عرفها العالم فى عهده ، والثانى أنه عاش حتى سن الثامنة والتسعين . فكيف تأتى له ذلك ؟ أما طول عمره ، فلعل السبب الأول فيه هو الوراثة ، أما السبب الثانى فهو اعتياده الاغفاء نصف ساعة بعد ظهر كل يوم ، فى غرفة مكتبه، كان يستلقى على اريكته فى غرفة المكتب ، ويستسلم للراحة التامة، فلا يقوى حتى رئيس الجمهورية على ازعاجه بحديث تليفونى ! .

حدثنى « كونى ماك » لاعب « البيسبول » البارع القديم ، أنه لو فاته الاغفاء ولو لمدة خمس دقائق قبل بدء المباراة . لتولاه الاعياء، وتخلت عنه براعته بعد الجولة الخامسة على الأكثر » .

وسألت ذات مرة « اليانور روزفلت » كيف وسعها أن تصمد لاعبائها الجسام طوال السنوات الاثنتى عشرة التى قضتها فى البيت الأبيض ، فقالت : انها اعتادت قبل أن تقابل أحد الوفود أو تلقى احـــدى الخطب ، أن تجلس فى مقعد وثير ، وتغمض عينيهـــا ، وتسترخى لمدة عشرين دقيقة ، ومن ثم يدب فيها الانتعاش ويسرى النشاط فى أوصالها .

وقابلت أخيرا « جين أوترى » فى غرفته بملعب « ماديســـون سكوير » حيث كان يستعد للاشتراك فى المباراة الدولية لركوب الجياد الجامحة (روديو) ، فرأيت فى الغرفة سريرا من أسرة جنود الجيش ، فلما سألته عن علة وجوده قال . « اننى أستلقى عليه ظهر كل يوم ، لأستريح ساعة قبل أن انزل الى ساحة اللعب ، وحين اكون مضطلعا بالتمثيل فى أحد الأفلام ، كثيرا ما اغفو فى مقعد كبير لمدة عشر دقائق بين كل منظر وآخر . ان مثل هذه الاغفاءة ، على قصرها تجدينى كثيرا » .

ويعزو « اديسون » نشاطه الجبار ، وقوة احتماله الخارقة ، الى اعتياده الاغفاء أينما كان ووقتما شاء .

قابلت أخيرا « هنرى فورد » قبيل الاحتفال بعيد ميلاده الثمانين. فدهشت اذ رأيته فى أوج قوته وعنفوان نشاطه . وسألته عن السر فى هذا فقال : « اننى لا أظل واقفا حيث يمكننى الجلوس . ولا أظل جالسا حيث يمكننى الاستلقاء ! » .

وكذلك كان « هوراس مان » الملقب بأبى التربية الحديثة ، حين تقدمت به السن ، فمنذ اختير رئيسا لكلية انطاكية ، اعتاد أن يقابل طلبته لأى أمر من الأمور متمددا على أريكته .

ولعلك تتساءل الآن كيف يتسنى لك أن تفعل مثلما يفعل هؤلاء؟ فان كنت كاتبا على الآلة الكاتبة فلن يتسنى طبعا أن تغفو كما كان يفعل اديسون . وان كنت كاتب حسابات فانك لا تستطيع أن تتمدد على أريكة بينما أنت تحدث رئيسك . ولك العذر فى هذا التساؤل. ولكنك ان كنت تقطن قريبا من محل عملك ، بحيث تعود الى منزلك لتناول الغداء ، فانك على التحقيق يسعك أن تغفو ولو عشر دقائق بعد الغداء . . فهذا ما اعتاد الجنرال « جورج مارشال » أن يفعله. ابان قيادته لجيش الولايات المتحدة ، خلال الحرب الأخيرة . فاذا تعذر عليك أن تغفو ظهرا فليس بأقل من أنك تستطيع أن تستلقى على أريكة قبيل العشاء . فاذا نمت ساعة فى اليوم فانك بذلك تضيف ساعة الى ساعات يقظتك .

لماذا ؟ وكيف ؟ لأن ساعة تنامها فى خلال النهار مضافة الى ست ساعات تنامها ليلا أجدى عليك من ثمانى ساعات من النوم المتواصل ليلا فى حين أنها سبع ساعات .

والعامل يسعه أن يزيد فى انتاجه لو سلخ من النهار ساعة من ساعة نومه . وقد أثبت « فردريك تايلور » هذه الحقيقة حين كان مهندسا اداريا لاحدى شركات الصلب الشهيرة . فقد لاحظ أن الواحد من العمال ينقل ، فى المعدل ، نحو اثنى عشر طنا ونصف

طن فى اليوم ، ثم بعد هذا يدركه الاعياء . فأجرى دراسة علمية لأسباب التعب عامة ، صرح بعدها بأن العامل من هؤلاء يسعه أن ينقل سبعة واربعين طنا فى اليوم ، — أى يضاعف انتاجه أربع مرات — ومع ذلك لا يحس بالتعب . كيف ؟ لقد تخير تايلور احد العمال ليجرى عليه تجربته ، وأمسك بساعة فى يده وراح يقول للعامل وهو ينظر فى ساعته : « الآن اشتغل .. الآن استرح .. اشتغل .. استرح .. » فكانت النتيجة أن نقل العامل سبعة واربعين طنا من الحديد فى خلال ساعات العمل المقررة ! والسر فى ذلك أن العامل كان يؤمر بالراحة قبل أن يدركه التعب . وكان مجموع ما يشتغله فى كل ساعة هو ٢٦ دقيقة بينما يستريح ٣٤ دقيقة ، أى انه كان يستريح أكثر مما يشتغل ، ومع ذلك فقد أنجز من العمل أكثر مما اعتاد أن ينجز وهو يواصل العمل بلا راحة على الاطلاق ! .

دعنى أكرر ما أسلفت :

افعل كما يفعل الجيش : استرح فى فترات متقطعة . بل افعل كما يفعل قلبك قبل أن يدركك التعب ، وبذلك تضيف ساعة الى ساعات يقظتك .

الفصل الرابع والعشرون

كيف تتخلص من التعب

اليك حقيقة مدهشة : « ان العمل الذهنى وحده لا يفضى الى التعب » . قد يبدو لك هذا القول سخيفا ، ولكن طائفه من العلماء حاولوا منذ بضعة أعوام ، أن يتعرفوا مدى احتمال المخ الانسانى للعمل قبل أن يدركه الكلل ، ولشد ما كانت دهشة هؤلاء العلماء حين وجدوا ان الدماء المندفعة من المخ واليه وهو فى أوج نشاطه، خالية من كل أثر للتعب . فأنت اذا أخذت « عينة » من دماء عامل يشتغل بيديه بينما هو يزاول عمله تراها حافلة « بخمائر » التعب، وافرازاته ، اما اذا أخذت «عينة» من الدماء المارة بمخ عالم مثل « اينشتين » ، فلن تجد بها اثرا لخمائر التعب ، حتى فى نهاية يوم حافل بالنشاط الذهنى .

فالمخ يسعه ان يزاول النشاط عشر ساعات أو اثنتى عشرة بقوة لا تهن ويدركها الاجهاد . فاذا كان المخ الانسانى لا يعتريه التعب قط ، فما الذى يشعرنا بالتعب اذن ؟

يقول الأطباء النفسيون ان معظم التعب الذى نحسه ناشىء عن طبيعة اتجاهاتنا الذهنية والعاطفية . وفى ذلك يقول الدكتور «هادفيلد» العالم النفسى الانجليزى فى كتابه «سيكولوجية القوة»(١) ان الجانب الأكبر من التعب الذى نحسه ناشىء عن أصل ذهنى ، بل الحقيقة ان التعب الناشىء عن أصل جسمانى لهو غاية فى الندرة » .

ويذهب الطبيب النفسى الأمريكى « ا.ا. بريل » الى اكثر من هذا فيقول : « ان مائة فى المائة من التعب الذى يحسه العمال الذين

---

(1) J.A. Hadfield, "The Psychology of Power"

يتطلب عملهم الجلوس المتواصل راجع الى عوامل نفسية ، أى عاطفيـــة » .

ترى ماذا من العوامل العاطفية التى تشعر العمال «الجالسين» بالتعب . أهو السرور ؟ أم المرض ؟ كلا على التحقيق ! بل التبرم، والضيق ، والاحساس بعدم التقدير ، والقلق : .. تلك هى العوامل العاطفية التى تشـــعر الموظفين بالتعب ، الذى بدوره يضـــعف مقاومتهم الجسمانية ، لأبسط الأمراض . ويقلل من انتاجهم ، ويرسلهم آخر النهار الى بيوتهم وهم يمسكون أدمغتهم من الصداع « العصبى » — أى الذى ليس له أصل عضوى — نعم ! نحن نحس بالتعب لأن عواطفنا تشيع توترا عصبيا فى أجسامنا . وقد اشارت الى ذلك « شركة متروبوليتان للتأمين على الحياة » فى نشرة وزعتها . بعنوان « التعب » وقالت فيها : ان المجهود الشاق . فى حد ذاته قلما يسبب التعب — ونقصد ذلك النوع من التعب الذى لا يزول بعد نوم عميق . أو فترة معقولة من الراحة — وانما القلق ،والتوتر، والثورات العاطفية ، هى العوامل الثلاثة الأساسية فى ابتعاث التعب ، ولو بدا أن المجهود العقلى أو الجســـمانى هو الأصـــل والسبب ، فاعلم أن العضلة المتوترة هى عضلة « عاملة » — أردت أم لم ترد ! فارخها ، وادخر نشاطك لأعمال اهم وأجدى » .

كف الآن عن القراءة حيث تكون ، راجع الوضع الذى تتخذه : هل أنت منحن بجذعك على الكتاب ؟ هل تحس ألما فيما بين عينيك؟ هل أنت جالس فى استرخاء على المقعد ؟ هل ثمة عضلة من عضلات وجهك مشدودة ؟ فاذا لم يكن جسدك بأكمله مســـترخيا كدمية مصنوعة من الخرق ، فانك الآن . وفى هذه اللحظة ، تتسبب فى خلق توتر عصبى وعضلى ، أى أنك بمعنى آخر تتسبب فى خلق تعب «عصبى» .

فما الذى يحدوك الى خلق هذا التوتر الذى لا ضرورة له اثناء قيامك بعمل ذهنى ؟ يقول « جوسلين » : لقد وجدت أن السبب

الأصيل فى ذلك هو الاعتقاد السائد بين الناس بأن العمل الشاق يحتاج الى « احساس بالمجهود » مصاحب له ، والا خاب العمل، وفشل المجهود ! » ومن ثم فاننا ننحنى بجذوعنا ، أو نشد عضلاتنا، او نرجع بأكتافنا الى الوراء مستنجدين بعضلاتنا لكى تشعرنا « بالمجهود » الذى نبذله وهو شعور لا أهمية له اطلاقا ! .

اليك حقيقة مدهشة ، ومفجعة فى آن معا : ان ملايين الناس الذين يضنون بأموالهم ، ويحرصون عليها ، يبذلون حيويتهم عن طيب خاطر ، ويبذرون فيها تبذيرا ! فأيهما بالله اجدر بأن يحرص عليه ، المال ام الصحة ؟ .

فما علاج هذا التعب العصبى ؟ . ان علاجه هو الاسترخاء . تعود الاسترخاء حين تزاول عملك كائنا ما كان ، ولا تحسب ان هذا الأمر هين ، فقد يحتاج الى ان تغير العادات التى اكتسبتها طول حياتك ، يقول وليم جيمس : « ان ما يعانيه الأمريكيون من التوتر، وحدة المزاج منشؤه العادة لا اكثر ولا اقل » فالتوتر عادة ، والاسترخاء أيضا عادة ، والعادات السيئة يمكن التخلى عنها . والعادات النافعة يمكن اكتسابها .

وكيف تسترخى ؟ هل تبدأ بذهنك اولا ، أم تبدأ بأعصابك ؟ لا تبدأ بأيهما ، وانما ابدأ على الدوام بعضلاتك .

ولنقم هنا اولا بتجربة اولية ، لنرى كيف تؤتى ثمارها ، ولنتخذ عينك موضوعا للتجربة . اقرأ هذه الفقرة الى نهايتها . فاذا وصلت الى خاتمتها ، استند بظهرك الى ظهر مقعدك . وأغمض عينيك . وقل لعضلات عينيك فى صمت : استرخى .. استرخى .. كفى عن التوتر .. استرخى » وكرر فى خاطرك هذه الأوامر لمدة دقيقة واحدة .

والآن .. الم تر انه لم تمض ثوان حتى بدأت عضلات عينيك

تطيع أوامرك وتسترخى ؟ فها أنت فى دقيقة واحدة قد وقفت على السر الأكبر فى فن الاسترخاء .. ويسعك بعد هذا أن تكرر الأمر نفسه مع عضلات فكيك ، ووجهك ، وعنقك ، وكفيك ، وجسدك جميعا ، على أن العينين هما أهم أعضاء الجسم ، ويذهب الدكتور « ادمونت جاكبسون » ، مدير جامعة شيكاغو ، الى حد القول بأن ارخاء عضلات العينين كفيل وحده بأن يزيل توتر الجسد كله . ولعل مبعث أهمية العينين انهما وحدهما تستنفدان ربع النشاط العصبى الذى يستنفده الجسم كله . وهذا أيضا هو السبب فى أن الكثيرين من أصحاء النظر يعانون من الم فى أعينهم ، دون أن يعلموا أن السبب فى ذلك هو توتر عضلاتها .

* * *

تقول الروائية المشهورة « فيكى باوم » انها فى طفولتها ، صادفت رجلا عجوزا لقنها أهم درس فى حياتها . كانت قدمها قد زلت فسقطت على الأرض ، وجرحت ركبتاها ، ورسغها ، فأنهضها هذا الرجل العجوز ، الذى كان فى سابق أيامه « بهلوانا » فى «سيرك» وهو يقول لها . « ان السبب فى انك سقطت وآذيت نفسك هو أنك جاهلة بفن الاسترخاء . كان ينبغى لك أن ترخى عضلات جسمك كارتخاء الجورب العتيق ، تعالى معى لأريك كيف ؟ » .

واخذ العجوز يلقنها كيف تسقط دون أن يصيبها أذى لو انهــا ارخت عضلات جسمها كاسترخاء جورب معلق على حبل ! .

وان فى وسعك أن تسترخى أينما كنت ، وكل ما عليك هو الا تتكلف جهدا فى سبيل هذا الاسترخاء ، فالاسترخاء ليس مجهودا يبذل ، وانما امتناع تام عن كل مجهود . وابدأ الاسترخاء دائمــا بارخاء عضلات عينيك ووجهك .

واليك خمس نصائح تعينك على اتقان الاسترخاء :

١ — اقرأ أبدع كتاب أخرج فى فن الاسترخاء ، واقصد به كتاب

الدكتــور « دافيد هارولد فنك » وعنــوانه « تخلص من التوتر العصبى » .

٢ ــ استرخ أينما كنت . دع عضلات جسمك تتراخى كما يتراخى الجورب العتيق ، وأنا احتفظ فى مكتبى بجورب بنى اللون لأتعلم منه كيف ارخى عضلات جسدى . فاذا لم يكن لديك جورب تتعلم منه الاسترخاء ، اكتف بقطة ، هل التقيت مرة بقطة نائمة فى هــذه الشمس ؟ اذا كنت فعلت ، فلا شك انك لاحظت كيف ترخى جسدها حتى ليبدو اشبه بالخرقة المبتلة بالمــاء .

٣ ــ اشتغل ما شئت من الوقت ، على أن تراعى الاسترخاء فى جلســتك .

٤ ــ راجع نفسك اربع او خمس مرات فى اليوم ، وقل لنفسك: « اترانى اجعل عملى يبدو اصعب مما هو حقيقة ؟ اترانى أستخدم فى عملى عضلات من جسدى لا شأن لها بهذا العمل اطلاقا ! » فهذه المراجعة تعينك على تكوين عادة الاسترخاء .

٥ ــ اختبر نفسك مرة اخرى فى نهاية اليوم ،وسائلها : « هل أنا متعب ؟ » فاذا كنت متعبا فاعلم أن منشأ التعب ليس كمية المجهود الذى بذلته ، وانما « الطريقة » التى بذلت بهــا المجهود .

يقول دانيل جوسلين : « عندما احس بالتعب أو بتوتر فى الأعصاب ، فى نهاية يوم من الأيام ، أعلم يقينا ان مجهود ذلك اليوم عقيما من ناحية « الكم » وناحية « الكيف » على الســواء ولو أن كل شخص وعى هذا الدرس ، لقلت نسبة الوفيــات الناشــئة عن امــراض التوتر العصبى ، ولتوقفنــا عن تزويد المصحات والمستشفيات كل يوم بمرضى التعب والقلق .

الفصل الخامس والعشرون

أيتها الزوجات : تجنبن التعب لتحتفظن بشبابكن

فى خريف العام الماضى أوفدت سكرتيرتى الى « بوسطن » لتمضى دورة دراسية فى أعجب « مدرسة طبية » فى العالم كله. هل قلت « مدرسة طبية ؟ » ذلك لأن مقر الدراسة على اية حال هو « مستشفى بوسطن » . وتسير الدراسة على اية حال ، « حصة » واحدة كل أسبوع . والمدرسة بعد هذا ، تكاد تكون عيادة نفسية ، فى الواقع ، وان كان اسم المدرسة الرسمى هو « مدرسة علم النفس التطبيقى » ، ومهمتها الحقيقية هى علاج المرضى الذين نشأت أمراضهم نتيجة القلق . ومعظم طلاب هذه المدرسة من الزوجات ذوات العواطف الثائرة ، والأعصاب المتوترة .

كيف أنشئت هذه المدرسة ؟ فى عام ١٩٣٠ ، لاحظ الدكتور « جوزيف هـ . برات » — الذى كان تلميذا لسير وليم اوسلر — أن معظم المرضى الوافدين على مستشفى بوسطن لا يشكون فى الواقع علة عضوية معلومة ، وان كانت ظواهر مرضهم تشبه فى كثير ظواهر المرض العضوى . مثال ذلك أن احدى السيدات جاءت الى المستشفى تشكو من التهاب مفاصل يديها ، وتقول انها أبطلت استخدامها اطلاقا من وطأة الألم . وجاءت أخرى تشكو أعراض سرطان فى المعدة ، وجاءت أخريات يعانين الصداع وأوجاع الظهر وغيرها ، وكن حقا يشعرون بالألم ، لكن الفحص الطبى الدقيق ، أثبت الا علة عضوية البتة بهؤلاء النسوة . وكان ذ[illegible]تا بأطباء الجيل القديم أن يتولوا لمثل هؤلاء السيدات انهن واهمات ، وان عللهن لا وجود لها الا فى مخيلاتهن .. ولكن الدكتور « برات » أدرك الا فائدة ترجى من ازجاء النصح لهؤلاء الواهمات .. كان يعلم أن معظم هؤلاء السيدات لسن

راغبات فى المرض ، فلو كان تناسى اوجاعهن امرا هينا لفعلته دون حاجة الى نصح .. فماذا عساه فاعل لهن ؟ .

لقد افتتح هذه المدرسة — رغم ما احاط بها من شكوك المتشككين واستهزاء رجال الطب المتحذلقين — فأتت هذه المدرسة بالعجب العجاب ، واستطاعت ، فى الأعوام الثمانية عشر الماضية ، أن « تشفى » آلاف المرضى الذين لجأوا اليها .

وتقول الدكتورة « روز هلفردنج » المستشارة الطبية لهذه المدرسة : ان من الأدوية الشافية للقلق ، افضاء الشاكى بمتاعبه الى شخص يثق به . وحين جاء المرضى الى هذه المدرسة ، ووسعهم أن يتحدثوا عن متاعبهم باسهاب وتفصيل ، زال القلق من أذهانهم فان مجرد اجترار الشىء واختزانها فى الذهن واستئثار المرء بها ، كفيل بخلق التوتر العصبى » .

وقد شاهدت سكرتيرتى هذا القول الذى قالته الدكتورة « روز » يوضع موضع التجربة . فقد نهضت احدى طالبات المدرسة تتحدث عما يقلقها .. وكانت هذه الطالبة تعانى مشكلات عائلية ، فلما بدأت تتكلم عناه كانت كلماتها تخرج كأنات الجريح المتقطع الأنفاس ، ومن ثم أخذ صوتها ينجلى ، ونبراتها تتضح وانفاسها تنتظم شيئا فشيئا واخذت الراحة تسرى فى كيانها وترتسم على وجهها ، حتى اذا اختتمت حديثها كانت تبتسم ابتسامة مشرقة .. فهل تراها حلت مشكلتها ؟ كلا ! فحل المشكلة لا يتأتى بهذه السهولة ، وانما الذى احدث فيها هذا التحول ، هو مجرد « حديثها » الى شخص يسمع ويفهم ، ويحنو وينصح . نعم ! ان الذى أحدث هذاا لتحول هو القوة الشفائية العظيمة التى تكمن فى ... الكلمات ؟ .

والتحليل النفسى يعتمد ، الى حد كبير ، على هذه القوة الشفائية التى تكمن فى الكلمات . فقد آمن المحللون النفسيون ، بأن المريض يسعه الخلاص من أزماته النفسية اذا دأب على الحديث عنها . فلماذا كان ذلك كذلك ؟ ربما لأننا عن طريق

الحديث يسعنا ان نكتسب نظرة أعمق الى مشكلاتنا او ربما لأننا ننفس بالحديث ، عن المشكلة الجاثمة على صدورنا .

واذن ، ففى المرة القادمة التى ينتابنا فيها القلق ، دعنا نبحث عن شخص نثق به ، لنفضى اليه بجلية متاعبنا . ولست أعنى بهذا أن نجعل من أنفسنا عبئا على الناس ، وان نثقل على كل من « هب ودب » بمشكلاتنا ، بل دعنا نتخير شخصا نثق به ، ثم نضرب له موعدا لزيارته . وقد يكون هذا الشخص طبيبا وقد يكون محاميا ، او من رجال الدين . فاذا جلست اليه قل له : « لقد اتيت لأسألك النصح . ان لدى مشكلة أرجو أن تنصت لها ، عسى أن تستطيع توجيهى الى ما ينبغى لى أن افعله . فاذا وسعك أن تعيننى طوقت عنقى بجميل . واذا لم يسعك ففى مجرد اصغائك لمشكلتى أكبر العون لى » .

فاذا رايت انه ليس أمامك من تثق به ، فدعنى أحدثك عن « رابطة انقاذ الحياة » ، اغرب مؤسسة فى العالم . لقد انشئت هذه « الرابطة » أول ما أنشئت لانقاذ حياة الذين يحاولون التخلص من حياتهم بالانتحار . ولكنها مع الزمن اتسع نطاق اختصاصها ، فأصبحت تزجى النصح لكل من يطلبه من التعساء وقد تحدثت أخيرا الى الآنسة « لوناب بوتل » Miss Lona B. Bonnel وهى الموكلة بمقابلة القاصدين الى الرابطة للحصول على النصح ، فعرضت على — مشكورة — أن تجيب على اى خطاب يصلها من قراء هذا الكتاب . ومن ثم . فانك ان كتبت الى « رابطة انقاذ الحياة » (١) فثق أن أسرار مشكلتك ستكون فى الحفظ والصون ، كما انك ستجاب عن مشكلتك على يد ناصح امين .

---

(١) اسم الرابطة وعنوانها كما يلى :
(1) The "Save-a-Life League" 505 Fifth avenue New York City N. Y. U. S. A.

على أننى ، صراحة ، أعتقد أن من الأفضل الافضاء بالمشكلة الى شخص يجلس اليك ويسمع لك . فاذا تعذر هذا ، فلا بأس من أن تكتب الى هذه الزابطة .

واذن فالأفضاء بالمشكلة ، من الوسائل العلاجية المعمول بها فى مدرسة بوسطن ، وهأنذا اقدم الى الزوجات ، فضلا عن هذا الدواء بضع وسائل أخرى تنصح باستخدامها مدرسة بوسطن للتخلص من القلق والتوتر الناشئين عن المشكلات العائلية :

١ — احتفظى بمذكرة . ودونى فيها كل راى سديد ، ملهم ، تقعين عليه فى كتاب ، ضمنى هذه المذكرة — مثلا — القصائد ، والاقتباسات والكلمات المأثورة التى تعينك على التخلص من متاعبك . فاذا أحسست يوما أن قواك المعنوية تخذلك ، فتصفحى ما كتبته فى هذه المذكرة عساك تخرجين منها «بوصفة» تعيد اليك انشراحك ، وتزيل قلقك .

٢ — لا تكترثى بعيوب الآخرين . فمن المحقق ان ازوجك عيوبا ، ولو أنه كان ملاكا لما تزوجك ! ألا ترين ان هذا صحيح؟ وقد سئلت احدى الزوجات من طالبات مدرسة بوسطن ، أثر عنها أنها تختلق النكد لزوجها ولا تكف عن لومه وانتقاده : «ماذا تفعلين لو مات زوجك ؟ » فصدمتها هذه الفكرة لتوها ، وجلست فى مكانها تدون محاسن زوجها الى جانب عيوبه ، وشد مادهشت حين فاقت المحاسن العيوب بمراحل ! فلماذا لا تصنعين مثل هذا عندما يخيل اليك أنك تزوجت من رجل انانى طاغية متسلط ؟ فقد تجدين لفرط دهشتك ، أنه من طراز الرجال الذين يهفو قلبك اليهم

٣ — وثقى صلاتك بجيرانك : نصح لاحدى الطالبات ، وكانت تشكو الوحدة ، بأن تكتب قصة بطلها اول شخص يصادفها عقب خروجها من الفصل فراحت فى خلال ركوبها « الاتوبيس » تتصور فى خيالها النسيج الذى تكون منه حياة هؤلاء الناس الذين

يركبون معها وكان أول ما فعلته انها راحت تتحـــدث الى الناس وتتودد اليهم ، عسى ان تأتى القصـــة ادنى الى الواقع . وهى الآن امرأة سعيدة تجيد الحديث ، وتحسن معاشرة النـــاس . وجيرانك ، ايتها الزوجـــة ، اقرب الناس اليـــك ، فهم جديرون بأن تحسنى معاشرتهم وتوثقى صلاتك بهم ، منعا للوحدة التى تجر القلق فى اذيالها .

٤ ــ ضعى برنامجا للغد قبل أن تأوى الليلة الى فراشك . لقد اتضح للمدرســـة أن كثيرات من الزوجات يشــــعرن كأنهن مدفوعات الى الدوران فى حلقة مفرغة من الأعمال المنزلية التى يتحتم انجازها ، دون أن ينجزن عملا يذكر . ذلك لأنهن يتعجلن ويسابقن الوقت . ومن ثم اقترحت المدرسة علاجا لهذه العجلة، وما يأتى فى ركابها من القلق ، أن ترسم الزوجات كل يوم برنامج اليوم التالى فماذا كانت النتيجة انجزت الزوجات عملا أكثر من ذى قبل وقل تعبهن أيضا عن ذى قبل ، واحسسن بالراحة لأن الوقت انفسح امامهن لانجاز اعمالهن ولنيل قسط من الراحة ، والاهتمام بمنظرهن . ان كل سيدة ينبغى أن تخصص من يومها جانبا للتزين ، والعنـــاية بمنظرها . ورايى الخاص أن اطمئنان السيدة الى جمال منظرها . واناقة ثيابها ، يتناسب عكسيا مع القلق ، اى كلما زاد هذا قل ذاك .

٥ ــ واخيرا .. تجنبى التعب . استرخى .. فلا شىء يعجل بذبول شبابك وحيويتك مثل التعب . لقد ظلت سكرتيرتى ساعة فى مدرسة بوسطن ، تستمع الى الأســـتاذ « بول جونسون » مدير المدرسة ، وهو يشرح مبادىء الاســـترخاء ــ التى اسلفنا ذكرها ــ ويدرب الطالبات عليها فلم تمض عشر دقائق على بدء تجارب الاسترخاء حتى كانت سكرتيرتى أشبه بالنائمة فى جلستها ! فلماذا تهتم المدرسة بتعويد طلبتها الاسترخاء ؟ لأنها تعلم ــ كما يعلم الأطباء ــ أن الاسترخاء من العوامل الرئيسية لمحو القلق.

نعم ، انك بوصفك زوجة ، ينبغى لك ان تسترخى ، وأن لك

مزية يحسن بك أن تستغليها ، تلك أنه يمكنك أن تستلقى متى شئت ، بل أكثر من هذا أنه يمكنك أن تستلقى على الأرض . نعم . فمهما يبدو هـذا القول عجبا الا أن الارض — الارض الصـلبة الجامـدة — هى أنسب للاسترخاء من مخدع مكسو بالحرير .

واليك بضعة تمرينات تستطيعين ممارستها فى البيت.مارسيها مدة أسبوع ، ثم انظرى أية نتيجة سـوف تجديها على منظرك ورشاقتك :

(أ) استلقي على الأرض كلمـا أحسست بالتعب ، وارخى العنان لجسمك ليملأ أطول حيز ممكن ، وتقلبى حول نفسك اذا أردت — كما يفعل الأطفال — افعلى هذا مرتين فى اليوم .

(ب) اغمضي عينيك وأنت فى ضجعتك تلك — وقولى فىنفسك همسا ، شيئا كهذا الذى يقترحه الأستاذ جونسون : « السماء زرقاء صـافية ، والشمس مشرقة سـاطعة ، والطبيعة هادئة ساكنة ، وأنا — ابنة الطبيعة — كأنى والطبيعة أنشودة واحدة» أو اذا شئت ، ابتهلى الى الله واضرعى همسـا وانت مغمضة العـين .

(جـ) اذا لم يسـعك أن تسـتلقى على الأرض لأنك تركت اللحم على النار — مثلا — ففى وسعك ، على الأقل أن تجلسى برهة على كرسى ويحسن أن يكون خشبيا ، مستوى القاعدة — اجلسى على هذا المقعد كتماثيل الفراعنة ، وضعى راحتى يديك على ركبتيك .

(د) والآن .. اشـددى أصابع قدميـك الى أعلى بأقصى ما تستطيعين ثم ارخيها .. وكررى هـذه العملية مع سـائر أعضـاء جسمك : اشـددى عضـلاتها الى الاعـلى ، بأقصى ما تستطيعين ، ثم ارخيها حتى اذا وصلت الىعنقك أديرىرأسك دورة كاملة ببطء وقوة ، ثم دعيه يسترخى .

(هـ) هدئى أعصـــابك باجتذاب أنفاس عميقة منتظمة . ان رجال « اليوجا» الهنود كانوا على حق حين قالوا : « ان التنفس المنتظم هو أعظم اكتشاف لتهدئة الأعصاب » .

(و) تخيلى التجاعيد المرتسمة على وجهك ، ثم اعمدى الى ازالتها .. تخيلى التجعيدة المرتسمة بين حاجبيك ، ثم امحيها من مخيلتك وكذلك افعلى بالتجاعيد المرتسمة حول فمك . افعلى هذا مرتين فى اليوم ، فربما اتى عليك وقت تستطيعين فيه الذهاب الى « صالون » للتجميل او التدليك وربما استطاع الانشراح الداخلى أن يزيل آثار الانقباض الخارجى ويمحوها محوا .

الفصل السادس والعشرون

التزم فى عملك هذه العادات الأربع

تتق الاعياء والقلق

١ ــ اخل مكتبك مما عليه من أوراق خلا ما كان منها متعلقا بالمسألة التى بين يديك .

يقول « رولاند وليمز » رئيس « شركة سكك حديد شيكاغو والشمال الغربى » : « سوف يلمس الرجل الذى يكدس الأوراق فوق مكتبه أكواما ، الفرق الشاسع بين انتاجه الراهن ، وانتاجه فيما لو أخلى مكتبه مما يغطيه من الأوراق والملفات باستثناء ما هو متعلق بالمسألة التى بين يديه » .

ولو أنك زرت مكتبة « الكونجرس » فى واشنجتون . لرايت خمس كلمات للشاعر « بوب » منقوشة على سقفها . وهى « النظام هو القانون الالهى الأول » . وأولى بالنظام أن يكون القانون الأول فى «العمل» ، فهل هو كذلك ؟ كلا مع الأسف : فمكتب الموظف العادى مغطى بأكداس من الأوراق لعله لم يلق نظرة على احداها منذ أسابيع . وقد حدثنى صاحب جريدة تصدر فى « نيوأورليانز » بأن سكرتيره عمد يوما الى تنظيف مكتبه ، فعثر على « آلة كاتبة » كان افتقدها منذ سنين ، مغمورة بين أكوام الأوراق التى تغطى سطح مكتبه ! ان مجرد التطلع الى مكتب يموج سطحه بالرسائل ، والملفات ، والتقارير ، والمذكرات ، لكفيل ببث التوتر والانقباض ، والقلق فى النفس . بل انه كفيل بأكثر من هذا ، فان مواصلة الانشغال بمائة مسألة ومسألة فى آن معا ، لخليق بأن يجر عليك ضغط الدم المرتفع ، واضطراب القلب وقرحة المعدة أيضا ، فضلا عن التعب والقلق .

٢ ــ افعل الأهم فالمهم :

يقول « هنرى دوفترى » مؤسس « شركة خدمات المدن »

citiesserv'cecompauy : « ان ثمة شيئين لا يشتريان بالمال: القدرة على التفكير ، والقدرة على انجاز الأشياء بحسب ترتيبها فى الأهمية » .

وصرح « تشارلى لكمان » — الذى نشأ بسيطة . ثم وصل فى مدى اثنتى عشرة سنة الى منصب مدير شركة «ببسودنت » ، وأصبح يتقاضى مرتبا قدره مائة ألف دولار فى العام — بأنه مدين بنجاحه الباهر الى هاتين المقدرتين اللتين قال عنهما « دوفرتى » انهما لا تشتريان بالمال ، فقد كان يستيقظ فى الخامسة صباحا ويرسم لنفسه برنامج يومه مقدما الأهم على المهم .

وأنا أعلم من تجاربى ، أن المرء عاجز فى أغلب الأحيان ، عن انجاز الأشياء بحسب درجتها فى الأهمية ، ولكنى أعلم كذلك أن وضع برنامج مرتب بقدر الامكان — من حيث درجة الأهمية — أفضل بكثير من مواجهة الأعمال ارتجالا .

ولو أن «جورج برناردشو» لم يرسم لنفسه برنامجا قدم فيه الأهم من الأشياء على المهم ، لكان الأرجح الا يذيع صيته ككاتب، وان يقضى طوال عمره كما كان صرافا فى « بنك » . وكان أول ما يتضمنه برنامجه اليومى كتابة خمس صفحات .. وقد أوصله دأبه على تنفيذ هذا البرنامج الى الغاية التى ينشدها .

٣ — اذا ظهرت لك مشكلة ، فاعمد الى حسمها فور ظهورها. **لا تؤجل قرارا تستطيعه اليوم الى غد .**

حدثنى « هـ . ب هاول » أحد طلبتى السابقين ، انه حين كان عضوا فى مجلس ادارة « شركة الولايات المتحدة للصلب » رأى أن القرارات التى تتخذ فى المجلس قلة ضئيلة بالقياس الى المسائل المعروضة للبحث ، وكان من جراء ذلك أن أصبح كل عضو يصطحب معه فى نهاية الاجتماع حزمة من الأوراق والتقارير ليعكف على دراستها فى البيت . وعندئذ اقترح « هاول » على

المجلس أن تطرح المسائل على المجلس واحدة فواحدة ، بشرط أن لا تطرح مسألة حتى يتخذ قرار حاسم فى المسألة التى تسبقها . واخذ المجلس براى « هاول » فكانت النتيجة أن انجز اكثر المسائل التى طال بحثها وتأجيلها ، ولم يعد العضو يضطر الى حمل حزمة من المستندات ليفحصها فى بيته ، وتلاشى القلق الناشىء عن تراكم المسائل بعضها فوق بعض .

٤ — تعود النظام ، والركون الى الغير ، والاشراف :

كثيرون من رجـــال الأعمال يحفرون قبورهم بأظافرهم لأنهم يقضون حياتهم دون أن يتعلموا الركون الى غيرهم ، ولأنهم يصرون على أن يتموا كل شىء بأنفسهم . نعم ، أن من الصعب القـــاء المسئوليات على عاتق الغير ، وخصوصا اذا كان هذا « الغير » غير كفء لها ، لكن الركون الى الغير لاغناء عنه لرجل الأعمـــال اذا أراد أن يتفادى الاعياء والتوتر والقلق . فالرجل الذى يؤسس عملا ، ثم لا يتعلم كيف ينظمه ، ويوزع أعباءه على الغير ، بينما يشرف هو على ادارته ، غالبا ما تراه فى الحلقة الخامسة من عمره أشبه بشيخ فان ، من فرط ما ركبه من القلق والتوتر .

الفصل السابع والعشرون

كيف تتخلص من السـأم

السأم من العوامل الأساسية المسببة للقلق . وللدلالة على ذلك خذ « اليس » مثلا .. و « أليس » هذه فتاة عاملة — أية فتاة عاملة — تسكن في الشارع الذى تسكن أنت فيه .. انها تشتغل كاتبة على الآلة الكاتبة ، فاذا ذهبت الى بيتها مع غروب الشمس ألفيتها متعبة مرهقة ، يبدو عليها التخاذل والاعياء فى مشيتها ، وعلى قسمات وجهها . ولا يكاد يحتويها المنزل حتى تعلن لذويها أنها ذاهبة الى فراشها دون أن تنتظر العشاء ، وتتوسل اليها أمها أن تطعم شيئا ، فترجع عن عزمها بعد الحاح وتجلس الى المائدة وما زال الاعياء واضحا على محياها . وفجأة يدق جرس التليفون: واذا المتكلم فتاها الحبيب يدعوها لقضاء السهرة فى المرقص . وعندئذ تلمع عيناها ، ويدب النشاط فى أوصالها وتثب وثبا الى غرفتها فترتدى رداءها الأزرق الأنيق ، وتمرق كالسهم خارجة من البيت، وتظل خارج البيت الى الثالثة صباحا ، ترقص ، وتمرح ، وتلهو .. فاذا عادت الى البيت أنكرتها . انها ليست تلك الفتاة التى عهدتها قبل ساعات ، متعبة ، مرهقة تغالب النوم وتعزف عن الطعام . انها فى هذه اللحظة ، وقد أوشك الصبح أن يتنفس ، تتوسلُ الى النوم ، فتقصيه عن أجفانها فرحة تعمر القلب ، ونشوة تملأ النفس ! .

أكانت « أليس » حقا ، منذ ثمان ساعات ليس الا ، متعبة ، مرهقة ، كما خلتها ؟ نعم . وكان مبعث تعبها تبرمها بعملها ، وربما تبرمها بالحياة اطلاقا . ولهذه الفتاة « أليس » فى الحياة نظائر وأشباه ، من الجنسين ، يعدون بالملايين . وقد تكون أنت واحداً منهم .

ان من الحقائق المعروفة أن اتجاهك الذهنى أفعل فى جلب

الاعياء من المجهود الجسمانى الذى تبذله . ومنذ بضع سنوات كتب الدكتور « جوزيف بارمال » فى مجلة « أرشيف علم النفس(١)» مقالا ضمنه وصفا لبعض تجارب اجراها لمعرفة اثر السأم فى اجتلاب الاعياء . فقد عقد الدكتور بارمال لبعض طلبته سلسلة من الامتحانات فى مواد تثقل عليهم ، ولا تحبها نفوسهم فماذا كانت النتيجة ؟ لقد أحس الطلاب وهم يقراون تلك الامتحانات بالتعب، وغالبهم النعاس ، وشكا فريق منهم صداعا الم به ، وشكا فريق آخر الما فى عينيه ، بل شكا فريق ثالث اضطرابا فى معدته . فهل كان كل ما شكا منه هؤلاء الطلاب مجرد أوهام ؟ كلا . فقد أخذت عينات من دماء هؤلاء الطلاب وهم يؤدون تلك الامتحانات . فدل فحصها على أن ضغط الدم فى الجسم ، وامتصاص الأكسجين به يقلان فعلا عندما يحل السأم فى نفس انسان ، فان زال السأم عادت عمليات الجسم الى سيرتها الطبيعية .

ونحن قلما نحس بالضجر حين ننشغل بأمر يلذ لنا : ومن امثلة ذلك أننى ذهبت فى اجازة ، الى آجام كندا المنتشرة حول « بحيرة لويز » ، وامضيت هناك بضعة أيام اتمتع بالصيد على شاطىء « خليج كورال » واشق طريقى وسط الأحراش ، وأتسلق جذوع الأشجار التى تسد الطريق . ولكننى ، بعد مضى ثمانية أيام على تلك الحال ، لم أحس بالتعب قط .. لماذا ؟ لأننى كنت مبتهجا منشرحا . ولكن ، هب أننى تبرمت بالصيد ، فترى كيف يكون احساسى ؟ كنت ولا شك استشعر التعب مما بذلته من مجهود شاق على ارتفاع سبعة آلاف قدم من سطح البحر .

وحينما كان الدكتور « ادوارد ثوروندايك » ، الاستاذ بجامعة كولومبيا ، يجرى تجاربه على القلق ، كان يغرى الشاب بالبقاء مستيقظين اسبوعا كاملا تقريبا ، وذلك بأن يعهد اليهم بمزاولة اعمال تلذ لهم . فلما انتهى من تجاربه صرح بقوله : « ان السبب

---

(1) Archies of Psychology

الأصيل فى نقص انتاج المرء هو احساسه بالسأم من العمل الذى يزاوله » فحيث تكون اللذة فى العمل ، يكون النشاط ، وتكون القدرة على بذل الجهد . وقد يثقل عليك ويرهقك أن تسير عشرة امتار بصحبة زوجة « مشاكسة » تصطنع لك النكد صباح ومساء، فى حين يخف عليك ان تسير أميالا برفقة من تبادلك الحب والوداد!.

فماذا يتعين عليك أن تفعل اذن ؟ انظر الى ما فعلته فتاة كانت تعمل على الآلة الكاتبة فى احدى شركات البترول بمدينة «تلسا» بولاية أوكلاهوما .. كان يتعين على هذه الفتاة أن تعكف أياما من كل شهر على ملء استمارات مطبوعة بالأرقام والاحصاءات. وكان هذا العمل يثقل عليها ويضجرها ولكنها اعتزمت يوما — كوسيلة للدفاع عن النفس ! — ان تحيل هذا العمل البغيض الى عمل ممتع مسل . كيف ؟ راحت تعقد لنفسها مسابقة كل يوم . كانت تحصى . « الاستمارات » التى ملأتها فى اليوم السابق وتعتزم أن « تحطم » الذى ضربته بالأمس ! وهكذا كانت فى كل يوم تتفوق على نفسها ، وتبذل مجهودا يفوق بكثير مجهود اليوم السابق . وكانت النتيجة أن انجزت من هذه « الاستمارات » البغيضة اكثر مما فى وسع اى زميلة لها أن تنجزه ، فماذا اجدى عليها هذا ؟ اطراء ؟ كلا ! .. شكر ؟ كلا ! . ترقية ؟ كلا .. وانما وقاها القلق الناشىء عن الضجر والسأم ، ومنحها راحة ذهنية . واقبالا على العمل وقد تسألنى انت أيها القارىء كيف عرفت القصة وأقول لك ان السبب بسيط .. لقد تزوجت أنا هذه الفتاة ! .

فاذا كان عملك بغيضا اليك ، ولا يسعك ان تجعله مسليا حقا، او ممتعا فعلا ، فأقبل عليه « كما لو كان » ممتعا ، وسوف ترى انه ، مع الوقت ، سيلذ لك حقيقة لازعما .

وفلسفة « كما لو كان » ، فلسفة يقرها علم النفس الحديث، ويؤمن بها ، فقد نصحنا العالم النفسانى « وليم جيمس » بأن نبدو « كما لو كنا » شجعانا ، فتواتينا الشجاعة ، أن نتصرف « كما لو كنا » سعداء ، فتغمرنا السعادة ، وهلم جر .

اقبل على عملك اذن « كما لو كنت » تلقى فيه متعة ولذة . وسوف يحقق لك تكلف المتعة ، واصطناع اللذة ، متعة حقيقية ، ولذة واقعية .

روى لى « ه . ف . كالتنبورن » — المعقب الشهير على الأخبار — كيف أحال عملا بغيضا الى نفسه الى عمل ممتع مسل. فحين كان فى العشرين من عمره ، عبر الأطلنطى على ظهر سفينة لشحن الماشية ، اشتغل فيها مشرفا على اطعام الماشية وسقيها، فلما هبط الى انجلترا ، طاف بأرجائها وبلدانها على دراجة ، ثم وصل الى باريس وهو فى غاية الفاقة والبؤس . وهنالك «رهن» آلة تصوير كانت معه لقاء خمسة دولارات ، دفعها اجرا لاعلان نشره فى الطبعة الفرنسية من جريدة « نيويورك هيرالد » يطلب عملا . واثمر الاعلان فاشتغل موزعا « بالعمولة » لدى الأطفال. وبدأ كالتنبورن يطرق بيوت أهل باريس وهو لا يعرف حرفا من اللغة الفرنسية . وبرغم ذلك ، فقد بلغت « عمولته » فى العام الأول خمسة آلاف دولار ، واصبح واحدا من أكثر البائعين نجاحا فى فرنسا جميعا ! .

فكيف تسنى له أن يصبح بائعا ناجحا على جهله باللغة الفرنسية؟ لقد كان يسأل رئيسه أن يكتب له باللغة الفرنسية كل العبارات التى سوف يحتاج اليها فى مهمته كبائع ، ومن ثم أخذ يحفظها عن ظهر قلب . ثم كان يقصد الى بيت أحد الفرنسيين ، ويطرق الباب، فتخرج له الزوجة ، وهنالك تنساب من فم « كالتنبورن » العبارات المحفوظة فى لهجة غريبة مضحكة ، فيعرض عليها بضاعته من اللعب ، فاذا وجهت اليه سؤالا هز كتفيه وقال : أنا أمريكى .. ولا أعرف الفرنسية » ثم ينزع قبعته ويشير الى السيدة والى ورقة داخلها العبارات المحفوظة التى اسمعها لها .. وهنالك تضحك السيدة ملء شدقيها ، فيضحك هو بدوره ، ويعرض عليها المزيد من اللعب ! .

ولقد صرح لى كالتنبورن بأن ذلك العمل لم يكن سهلا ولا

ميسورا ، ولكن شيئا واحدا شجعه على المضى فيه ، ذلك هو عزمه على أن يجعل من هذا العمل تسلية ممتعة . كان يقف تجاه المرآة كل صباح ، ويحدث نفسه قائلا : « اسمع كالتنبورن ، لا بد لك من مزاولة هذا العمل اذا أردت أن تعيش . فاذا كان لا بد من مزاولته ، فلماذا لا تجعل منه شيئا مسليا ؟ لماذا لا تتخيل نفسك فى كل مرة تطرق فيها باب واحد من العملاء كأنك ممثل على خشبة المسرح ، وكأن سكان البيت هم المتفرجون ؟ لماذا لا تستجمع فى هذا العمل اقصى حماسة ممكنة ؟ » .

وعندما سألت مستر كالتنبورن هل من نصيحة يقدمها للشباب المتلهف على النجاح ؟ قال : « نعم . قل لهم أن يتحدثوا كل يوم الى انفسهم — كما كنت افعل — ففى هذا تدريب ذهنى يحفز على العمل ويشحذ الهمم » .

اترى أن حديث الانسان لنفسه عمل سخيف اليق بالأطفال؟ كلا . على العكس . انه متفق تماما مع أصول علم النفس الحديث. فأن « حياتنا من نسج أفكارنا وخواطرنا » وانت بحديثك الى نفسك كل صباح ، تستطيع أن تزود نفسك بخواطر الشجاعة، والسعادة ، والقوة ، والسلام . بحديثك الى نفسك عن الأشياء التى تستحق أن تشكر الله عليها ، تملأ ذهنك بخواطر البهجة والانشراح .

فاذا ملأت ذهنك بالأفكار الصحيحة ، وسعك أن تستمتع بأى عمل مهما كان ثقيلا عليك ، نعم . ان رئيسك يريدك أن تستمتع بعملك فتقبل عليه ليجنى هو منه الأرباح الكثيرة ، ولكن دعك مما يريده رئيسك ، فكر تماما فيما يجديه عليك الاستمتاع بعملك من ثمرات . وذكر نفسك بأن المتعة التى تلقاها فى عملك قد تضاعف حظك من السعادة فى الحياة ، بل تجديك بمرور الأيام، رقيا فى المركز الذى تشغله . وجزالة فى الربح .

الفصل الثامن والعشرون

كيف تتجنب القلق الناشيء عن الأرق

هل يجتاحك القلق اذا أصابك الأرق واستعصى عليك النوم؟ اذن فقد يدهشك ان تعلم ان « صمويل انرماير » — المحامى الذائع الصيت — لم يحظ فى حياته بنومة هادئة واحدة ! فحين التحق صمويل بالجامعة كان يشكو علتين : الربو . الأرق . ولم يكن يلوح له على ان هاتين العلتين انهما ستفارقانه . من أجل ذلك حول صمويل على استخلاص ما عساه يكمن من الخير فى علته، لقد كان اذا أراد النوم فاستعصى عليه لم يلحف فى الطلب ، بل يقوم الى مكتبه وينكب على الدراسة . فماذا كانت النتيجة ؟ لقد تخرج حائزا على مرتبة الشرف ، وأصبح مفخرة جامعة نيويورك.

ولازمه الأرق ، حتى بعد ان تخرج فى الجامعة ، ومارس المحاماة، ولكنه لم يمتثل للقلق مطلقا . وعلى الرغم من ضآلة حظه من النوم كان محتفظا بصحته ، وظل قادرا على بذل الجهد ، بل انـــه كان يبذل مجهودا يفوق ما يبذله اقرانه من المحامين . ولا عجب فقد كان يعمل بينما زملاؤه نيام ! .

فلما بلغ صمويل الحادية والعشرين من عمره كان دخله السنوى يقدر بخمسة وسبعين الفـــا من الدولارات . وفى عـــام ١٩٣١ ، تقاضى فى قضية واحدة مليونا كاملا من الدولارات ! وقد عمر هذا الرجل حتى بلغ الحادية والثمانين .. ولكن الأرجح انه لو استجاب للقلق واستسلم للهواجس لحطم حياته مبكرا .

ورغم أننا نقضى ثلث حياتنا نياما ، الا أن احدا منا لا يعرف ما هو النـــوم ، وما حقيقة . كل ما نعمله ان النوم « عادة » اعتدنـــاها ووسيلة ابتدعتها الطبيعة لاراحة اجسامنا ، ولكننا لانعلم هل يتحتم علينا أن ننام على الاطلاق ، فقد حدث فى خلال الحرب العالمية

الأولى أن أصيب «بول كيرن » ، وهو جندى مجرى ، برصاصة اخترقت مقدم مخه . وشفى الجندى من اصابته ، ولكنه . لفرط العجب . لم يعد ينام ! وجرب الأطباء معه كل ما عرف من عقاقير منومة ، بل جربوا المخدرات ، والتنويم المغناطيسى ، فلم يجدهم هذا كله فتيلا ؛ وقال الأطباء انه لن يعمر طويلا ، ولكنه عمر . . فقد التحق بعمل ، وواصل حياة صحيحة معافاة مدى سنوات طوال . فكأن « بول كيرن » كان لغزا طبيا قلب معتقداتنا رأسا على عقب .

ولعل القلق الذى يصـــاحب الأرق هو اخطر بكثير من الأرق ذاته .

فلقد اجرى الدكتور « ناتـــانيل كليتمان » . الأستـــاذ بجامعة شيكاغو ، تجارب تفوق الحصر على النوم ، صرح بعدها بأنه لم يرقط انسانا مات أرقا . نعم يستطيع المرء أن ينشغل بالأرق ، ويستميت للقلق حتى يفقد صحته ويصبح فريسة سهلة للأمراض ، ولكن القلق فى هذه الحالة ، هو المسئول لا الأرق ! ويقول الدكتور « كليتمان » كذلـــك ان معظم القلقين على الأرق ينامون فى الواقع ، أكثر مما يظنون . ومن الأمثلة على ذلك أن واحدا من أفذاذ المفكرين فى القرن التاسع عشر ، هو « هربرت سبنسر » وكان أعزب ، عجوزا ، يعيش وحيداً فى غرفة بأحد الفنادق — كان لا يفتأ يشكو الى كل من يلقاه بأنه لا ينام من الليل شيئا ، وأن الأرق يأخذ بخناقه فلا يفلته ساعة من الليل . وكان يعمد أحيانا الى سد أذنيه ، حتى لا يسمع صوتا ، أو يتعاطى الأفيون ليجلب له النوم . . وفى ذات ليلة قضى هو والأستاذ سايس — بجامعة اكسفورد — ليلتهما فى غرفة واحدة بأحد الفنادق ، وفى الصباح التالى شكا « سبنسر » كعادته ، من أنه لم يغمض له جفن طوال الليل ، والواقع أن الأستاذ « سايس » كان هو الذى لم تغمض له عين . فقد حال شخير « سبنسر » المتواصل بينه وبين النوم ! .

وأول متطلبات النوم المريح ، الاحساس بالسلام والطمأنينة ، وفى ذلك يقول الدكتور « توماس هايسلوب » : « ان من أهم مقومات

النوم التى عرفتها فى خلال سنين طويلة قضيتها فى الخبرة والتجارب ، هو الصلاة ، وأنا القى هذا القول بوصفى طبيبا ، فان الصلاة أهم أداة عرفت الى الآن لبث الطمأنينة فى النفوس ، وبث الهدوء فى الأعصاب .

فاذا لم تكن رجلا متدينا ، فتعلم الاسترخاء بالوسائل الطبيعية .

ويقترح الدكتور فنك أن نضع وسادة تحت ركبتينا لتخفيف التوتر على عضلات الساقين ، وأن نضع وسادتين تحت الذراعين لهذا السبب عينه ، ثم نبدأ فنأمر الفكين ، فالعينين ، فالذراعين فالساقين ، على التوالى بالاسترخاء فلا نلبث أن نستغرق فى النوم دون أن ندرى سبب ذلك ، ولقد جربت ذلك بنفسى ، ولهذا اشهد بصحته .

ومن الوسائل المفضلة لعلاج الأرق ، الاجهاد البدنى بمزاولة رياضة كالسباحة أو « التنس » أو « الجولف » أو الانزلاق ، أو بمزاولة تمرينات رياضية أيا كانت ، تحس بعدها بالتعب . . . فاذا كنت على قدر من التعب يوجب الراحة ، فثق أن الطبيعة سترغمك على النوم ، حتى لو كنت يقظا . نعم ، فان المتعبين ينامون على صوت الرعد بل على دوى القنابل ، وعلى مرأى ومسمع من الخطر الذى يداهمهم ، حدثنى الدكتور « فوستر كينيدى » اخصائى الأعصاب الشهير ، أنه رأى فى خلال انسحاب الجيش الخامس الانجليزى ، جنودا نال منهم التعب كل منال ، حتى سقطوا على الأرض فى شبه غيبوبة ، ولم يستيقظوا رغم ما بذله معهم من جهود .

اننا لم نسمع حتى الآن عن شخص « انتحر أرقا » ولا نظننا سنسمع عن مثل هذا الشخص فى المستقبل ، فالأرق لا يقتل ، والطبيعة ترغم كل انسان على النوم متى أدركه التعب .

والحديث عن الانتحار يذكرنى « بحالة » وصفها الطبيب النفسانى الدكتور « هنرى لنك » فى كتابه «الانسان يكتشف من جديد» فقد أورد الدكتور لنك فى الفصل الذى عنوانه « التغلب على المخاوف والقلق »

قصة مريض كان يبغى الانتحار ، وأدرك الطبيب أن الجدال معه لن يجدى ، بل ربما زاد الجدال الطين بله ، فقال للرجل : « اذ كنت معتزما الانتحار ، على اية حال ، فالأخلق بك أن تموت كمـــا يموت الأبطال . اجر حول الحى الذى تقطنه ، وواصل الجرى حتى تسقط ميتا » .

وفعل الرجل ما نصحه به الطبيب ، لا مرة واحـــدة . بل جملة مرات ، وفى كل مره كـــان يشعر بالتحسن لا فى حالته الذهنيـــة وحسب ، بل فى حالته الصحية أيضا ، وفى الليلة الثالثة ، بعد عدة محاولات من هذا القبيل ، القى بنفسه من الاجهاد بحيث وقع فى نوم عميق ، وقد التحق هذا المريض ، بعد ذلك بأحـــد الأندية الرياضية ، وبدأ يدخل مباريات الجرى ، ولم يلبث أن وجد الحياة التى كان افتقدها ! .

اذن ، لكى تتفادى القلق الناشىء عن الأرق ، اليك خمس قواعد :

١ — اذا استعصى عليك النوم ، فافعل كما كان يفعل « صمويل ارتماير » : قم الى مكتبك واكتب ، أو اقرأ ، حتى يتسلل النعاس الى عينيك .

٢ — تذكر ألا أحد مطلقا مات أرقا ، وانما القلق الذى يلازم الأرق هو مبعث الضرر .

٣ — جرب الصلاة قبل النوم فانهـــا خير أداة لبث الأمن فى النفوس ، والراحة فى الأعصاب .

٤ — أرح جسدك ، وحدث كل عضلة من عضلاتك بالاسترخاء حتى تسترخى .

٥ — زاول أحد أنواع الرياضة البدنية ، فاذا شعرت بالتعب فثق أنك ستنام .

الجزء السابع فى سطور

ست طرق تقيك الاعياء والقلق وتحفظ لك نشاطك وحيويتك

القاعدة رقم ١ :

استرخ قبل أن يدركك التعب .

القاعدة رقم ٢ :

تعلم كيف تسترخي وانت تزاول عملك .

القاعدة رقم ٣ :

اذا كنت زوجة ، فتعهدى صحتك وجمال مظهرك بالاسترخاء فى منزلك .

القاعدة رقم ٤ :

اكتب هذه العادات الأربع :

(ا) اخل مكتبك مما عليه من الأوراق باستثناء ما يخص المسألة التى بين يديك .

(ب) افعل الأهم فالمهم .

(جـ) حين تعترضك مشكلة احسمها فور ظهورها .

(د) تعود النظام والركون الى الغير ، والاشراف .

القاعدة رقم ٥ :

لتتقى القلق والاعياء أضف الى عملك ما يزيد استمتاعك به .

القاعدة رقم ٦ :

تذكر أن أحدا لم يمت أرقا ، وانما القلق الذى يلازم الأرق هو مبعث الخطر .

الجزء الثامن

كيف تحصل على العمل الذى يلائمك

الفصل التاسع والعشرون

القرار الحاسم فى حياتك

(فى هذا الفصل اتحدث الى الشباب — من الجنسين — الذين لم يوفقوا الى العمل الذى يلائمهم . فان كنت من هـذه الفئة ، فقد تجد فى هـذا الفصل عونا كبيرا .)

اذا كنت دون الثامنة عشرة من عمرك ، فالأرجح أنك تقترب حثيثا من اللحظة التى يتعين عليك فيها أن تتخذ قرارين حاسمين من أخطر القرارات فى حياتك . . قرارين يتوقف عليهما مجرى حياتك ، وتتوقف عليهما ، فوق ذلك سعادتك وصحتك ونجاحك .

الأول : كيف تكسب عيشك ؟

هل تصبح مزارعا ، أم مهندسا ، أم كيمائيا ، أم كاتبا على الآلة الكاتبة ، أم طبيبا ، أم استاذا فى الجامعة ؟ .

والثانى : من تختارها لتكون أما (أو من تختارينه ليكون أبا) لأطفالك ؟ .

وحسم هاتين المشكلتين ، فى اغلب الأحيان ، لايعدو أن يكون ضربا من المقامرة ، وفى ذلك يقول « هارى ايمرسون فوزديك » : « كل شاب ينقلب مقامرا حين يختار لنفسه عملا يرتزق منه . . انه فى هذه الحالة يقامر بحياته ! » .

فهل من سبيل للحد من هذه المقامرة ؟ .

اولا — حاول ما امكنك ان تجد عملا يلذ لك : ولقد سألت ذات

مرة « دافيد جودريتش » ، رئيس مجلس ادارة « شركة جودريتش لاطارات السيارات » ما أهم عوامل النجاح فى العمل ؟ فأجاب « أن يجد المرء لذة فى عمله ، فاذا استمتع بعمله فانه يقضى الساعات المقررة للعمل دون أن يحس بمرورها ، ويكون احساسه وهو يؤدى عمله كاحساس من يلهو » .

وقد كان « أديسون » نموذجا رائعا ينطبق عليه هذا القول ، اديسون ، بائع الجرائد ، الذى حرم التعليم فى صباه ، واستطاع ، برغم ذلك ، أن يحدث انقلابا فى تاريخ الصناعة الأمريكية . فقد قال يوما : « اننى لم أعمل يوما واحدا فى حياتى ، بل كنت ألهو » ! .

ولكن كيف لك اللذة فى العمل وانت لاتدرى اى انواع العمل يلائمك ويوافق مزاجك ؟ لقد حدثتنى « مسز ادناكير » ، التى كانت يوما مديرة المستخدمين فى شركة «ديبونت » قائلة : « ان اكبر مأساة يواجهها الشباب ، فى رايى ، هى أن الكثيرين منهم لا يعرفون اى أنواع العمل يبتغون » . وقالت « مسز كير » انها لاحظت تلك الظاهرة حتى فى خريجى الجامعات . فقد كان الواحد منهم يقصد اليها ويقول لها : اننى أحمل « البكالوريوس » من جامعة دار تموث (أو درجة أستاذ من جامعة كورنل) فهل لديك عمل لى ؟ » انه يطلب عملا — اى عمل — دون أن يدرى أى أنواع العمل هو كفء لأدائه ! .

ولعلك تجد شيئا من الغرابة فى ادماج فصل كهذا فى كتاب يعالج القلق ، والحق انه لامجال للغرابة على الاطلاق ، ومتى ادركت كم من القلق ، والضجر ، والارهاق ، يجره علينا عمل نجد الغضاضة فى مزاولته ، ونفتقد فيه المتعة واللذة . واسأل من جرب . اسأل اباك ، أو جارك ، او رئيسك .

فنصيحتى الى كل شاب اذن هى : لاتقبل عملا ترى أنك « مرغم » على قبوله ، ولو كان هذا على حساب رغبة والديك واسرتك . لاتقبل عملا مالم تشعر فى قرارتك انك ميال اليه . ولا باس ، مع هذا ، أن تقدر مشورتهما حق قدرها . فهما قد عاشا ضعف ما عشت

او اكثر ، واجتمع لهما من الحكمة مالا تهيئه لك الا التجــارب الطويلة ، ولكن أعلم ان القرار الحاسم ، آخر الأمر ، بين يديك انت . فأنت هو الشخص الذى سوف يهبه العمل السعادة ، أو يرديه فى هوة الشقاء .

واحب بعد هذا ان اقترح عليك الاقتراحات الآتية — وبعضها ليس مجرد اقتراحات بل انذارات — كى تستعين بها على اختيار العمل الملائم :

١ — تستطيع أن تلجأ الى ما يسمى بالارشاد المهنى .

Vocational Gmidance

ولا اجزم بأن هذا الالتجاء سيفيدك ، فالأمر كله متوقف على الشخص الذى تسأله النصح ومدى كفايته . فضلا عن أن هذا الارشاد المهنى لم يبلغ أشده بعد ، وان كان ينتظر له مستقبل باهر . فاذا شئت الالتجاء اليه ، فابحث عن اقرب مركز للارشاد المهنى واقصد اليه على انك ينبغى أن تعلم سلفا أن كل ما سوف تحصل عليه هو مجرد « اقتراحات » ، أما اتخاذ القرار الحاسم فمن شأنك وحدك .

٢ — امتنع عن الوظائف والأعمال التى غصت بالعاملين حتى فاضت .

ان هناك آلاف الطرق المختلفة للحصول على الرزق ، ولكن اتدرى ما الذى يحدث غالبا ؟ خذ طلبة جامعة واحدة مثلا . لقــد اختار ثلثا هؤلاء الطلبة خمس وظائف وحسب . . خمس وظائف من عشرين الف وظيفة عرضت عليهم للاختيـــار ! وفعلت أربعة أخماس الطالبات بالجامعة الشىء نفسه . فلا عجب اذن أن قليلا من الأعمال والوظائف تغص بالعاملين فيها .

ولا عجب أن يتــكاثر القلق وتتفشى الأمراض النفسية ، فى

طائفة ذوى « الياقات البيضاء » (١) . فحاذر أن تدلى بدلوك فى الميادين الخاصة بمرتاديها ، كالمحاماة ، والصحافة ، والاذاعة ، والسينما .

٣ ـ تجنب الأعمال التى ترى أن فرص النجاح فيها ضئيلة وانفق الأسابيع بل الأشهر ، اذا لزم الأمر فى التحرى والاستعلام ودراسة كل ما يتعلق باحدى الوظائف قبل أن تكرس لها حياتك .

تستطيع ، مثلا ، أن تقابل بعض الرجال الذين أنفقوا فى تلك الوظيفة عشرين أو أربعين عاما من أعمـــارهم ، فقد يكون لهذه المقابلات أثر عميق فى تكوين مستقبلك . وكيف يتسنى لك أن تتم هذه المقابلات ؟ سأضرب لك مثلا . افترض أنك تفكر فى أن تصبح مهندسا معماريا ، فقبل أن تتخذ قرارك الحاسم ، عليك أن تنفق أسبوعين فى مقابلة المهندسين المعماريين فى بلدتك والبلدان المجاورة . وفى استطاعتك أن تقصد اليهم فى مكاتبهم ، بعد أن تضرب لهم موعدا فاكتب لهم شيئا كهذا : « أكون شاكرا لو تفضلتم باسداء يد لن أنساها لكم . اننى أطلب النصح . فأنا شاب فى الثامنة عشرة ، وأفكر جيدا فى أن أدرس لكى أصبح مهندسا معماريا ، وأود قبل أن أتخذ قرارا حاسما أن أسألكم النصح ، فاذا كان العمل يملأ كل وقتكم فى المكتب، فاننى أكون جد شاكر لو أوليتمونى شرف مقابلتكم فى البيت ، وهذه هى الاسئلة التى أرجو أن تجيبونى عليها :

« ا ـ لو أنك تبدأ حياتك من جديد . أكنت تشتغل مهندســـا معماريا مرة أخرى ؟ .

« ب ـ هل مهنة الهندسة المعمارية مكتظة بالعاملين فيها ؟ .

« جـ ـ لو أننى درست الهندسة المعمارية أترى يصعب على أن أجد عملا ؟ .

---

(١) ذوو الياقات البيضاء (White Collar) تعبير أمريكى يطلق على أولئك الذين يزاولون عملا رتيبا لا يختلف يوما عن يوم ويتطلب منهم الجلوس الى مكاتبهم زمنا معينا كل يوم .

« د ــ اذا كنت ذا مقدرة متوسطة ، فكم ترى يكون دخلى فى السنوات الخمس الاولى من اشتغالى ؟ .

« هـ ــ هل من مميزات ، وهل من عيـــوب ، فى مهنة الهندسة؟.

« و ــ لو اننى كنت ولدك ، اكنت تختار لى أن أكون مهندســـا معماريا ؟ » .

فاذا كنت خجولا ، وترددت فى مقابلة « شخصية شهيرة » فاليك اقتراحين يساعدانك على اتمام هذه المهمة :

الأول ــ اصطحب معك شابا من سنك . فسوف يشجع أحدكم الآخر على مواجهة الموقف ، فاذا لم تجد صاحبا من سنك ، فاطلب الى والدك ان يصحبك .

الثانى ــ تذكر أنك بسؤالك رجـــلا عظيما النصيحة . انك تعترف ضمنا بقيمته وقدره ، والأرجح انه سيتولاه الزهو حين تسأله النصح ، واذكر كذلك أن الرجال يحبون دائما أن يوجهوا النصح الى الشبان والأحداث .

فاذا ترددت فى كتابة خطاب تضرب فيه موعدا لرجل فاقصـــد الى مكتبه فى غير موعد ، وقل له انك تكون شاكرا لو تفضل واسدى لك نصيحة سوف تذكرها دائما .

وافترض انك اتصلت بخمسة من المهندسين فألقيتهم جميعا فى شاغل عن مقابلتك (وهو أمر بعيد الاحتمال) فاتصل بخمسة غيرهم، فلن تعدم واحدا منهم يرضى بمقابلتك ، واذكر دائما انك تتخـــذ أحد قرارين حاسمين فى حياتك ، فاعط نفسك ما شئت من الوقت لتقصى الحقائق قبل أن تتخذ القـــرار الفاصل ، وقبل أن يتولاك الندم حيث لا ينفع النـــدم .

فكل شخص عادى يسعه أن ينجح فى جملة أعمال ، وكل شخص عادى يمكن ان يخفق فى كثير من الأعمال ، فهناك انا ..

فاننى أعتقد أن فى وسعى ادراك النجاح ، وادراك المتعة فى العمل أيضا ، لو اننى زاولت الأعمال الآتية : الزراعة ، الطب ، الاعلان ، تحرير صحيفة اقليمية ، التعليم ، كما أعتقد ، من ناحية أخرى ، اننى كنت أقضى العمر تعسا شقيا ، فاشلا لو زاولت هذه الأعمال : امساك الدفاتر ، الهندسة ، ادارة فندق او مصنع ، الهندسة المعمارية فضلا عن جميع الأعمال الآلية ، ومئات اخرى من أوجه النشاط الأخرى ! .

الجزء التاسع

كيف تزيل متاعبك المالية

الفصل الثلاثون

٧٠٪ من القلق تسببها المتاعب المالية

لو اننى أعرف كيف أحل لكل فرد مشكلته المالية لما كتبت هذا الكتاب ، ولكان الأرجح أن يكون مكانى فى البيت الأبيض ، الى جوار رئيس الجمهورية مباشرة ! ولكن شيئا واحدا يمكننى أن افعله ذلك أنى أستطيع أن احيلك الى مراجع موثوق بها فى هذا الموضوع، أقدم اليك جملة اقتراحات عملية .

فقد جاء فى احصائية نشرتها مجلة « ليديزهوم » اليومية أن « سبعين فى المائة من القلق الذى نعانيه مرجعه الى المـــال »

كما جاء فى تلك الاحصائية أن معظم الناس يعتقدون أن متاعبهم تنتهى متى ازداد دخلهم بمقدار عشرة فى المائة . وقد يصدق هذا فى كثير من الأحيان ، ولكنه فى أكثر الأحيان لا يصدق .

مثال ذلك : أننى استطلعت رأى أحصائية فى الميزانيات ، هى « مسز الزى ستابلتون » اشتغلت سنوات طويلة مستشارة مالية لعملاء ومستخدمى متجر « واناميكر بنيويورك » وأمضت فوق هذا سنوات أخرى مستشارة مالية خاصة . تعيين القاصدين اليها على حل معضلاتهم المالية ، فقالت لى : « ان ازدياد الدخل لا يحـــل المشكلات المالية ، فقد رأيت أن ازدياد الدخل ــ فى كثير من الأحيان ــ يقابله ازدياد فى الانفاق ، وازدياد فى المتاعب . أما السبب الحقيقى

الذى يشكو منه القلقون على ضآلة مواردهم ، فهو أنهم لا يعرفون كيف ينفقون ما يحصلون عليه من المــال » .

وسوف يقول كثير من القراء : « كم اتمنى لو كان هذا الحكيم « كارنيجى » فى مكانى ، لأرى كيف يسدد « الفواتير » المتأخرة ، والديون التى لم توف ، بهذا المرتب الضئيل الذى أتقاضاه .. ولقد كنت اشتغل فى احدى مزارع ميسورى عشر ساعات فى اليوم ، وكنت أتقاضى على هذا العمل الشاق .. كم تظن ؟ دولارا ؟ خمسين سنتا ؟ كلا . بل خمسة سنتات (اى نحو قرشين) وانا أتصــور كيف يقضى المرء عشرين عاما من حياته فى بيت بلا حمام ، ولا ماء جار ! واتخيل كيف ينام فى حجرات درجة حرارتها خمسين تحت الصفر ! واعرف كيف يسير المرء اميالا ليوفر اجر « الأوتوبيس » على ضآلته واعلم كيف يدخل مطعما ويطلب أرخص صنف من الطعام ، ثم يذهب الى بيته ويضع سراويله بين « مراتب » السرير لانه لا يملك اجر الكواء ! اعرف كل هذا وأتصوره لأننى قاسيته.. ولكنى حتى فى تلك الأيام العصيبة وسعنى ان أوفر بضعة دراهم من دخلى المتواضع . فقد علمنى ما مر بى من تجارب ، أن الوسيلة المثلى لتجنب الديون ، والمتاعب المالية هى وضع برنامج ننفق المال بمقتضــــاه .

اعتبر نفسك مديرا مسئولا عن عملك فى كل آن ومكان تنفق فيه من مالك الخاص .

ولكن .. اى القواعد تلتزم فى شئونك المــالية ؟ وكيف تنظم ميزانيتك ؟ اليك احدى عشرة قاعدة :

١ — دون اوجه الانفاق جميعها :

حين شرع الأديب الانجليزى « ارنولد بنيت » يمارس عمله فى لندن ككاتب روائى ، منذ خمسين عاما ، كان يحتفظ بسجل يضمنه كل ما انفقه ، والأوجه التى أنفق فيها . اتراه كان يعجب أين ذهبت نقوده ؟ كلا . بل كان يعلم اين ذهبت . وقد راقت له تلك

الفكرة ، حتى انه داب على الاحتفاظ بمثل هذا السجل ، بعد أن غدا كاتبا ذائع الصيت ، وثريا أمثل ، وابتاع « يختا » لنزهاته الخاصة . وكان « جون روكفلر » (الأب) يحتفظ بدوره بدفتر يدور فيه نفقاته الخاصة ، فاذا أوى الى مخدعه حسب على التحديد كم انفق ، وفى اى الوجوه أنفقه .

فالأجدر بك أن تحتفظ بدفتر تسجل فيه نفقاتك وأوجه انفاقها. تقول : الى آخر حياتنا ؟ كلا ليس من المحتم ، فان خبراء الميزانيات ينصحون بالاحتفاظ بمثل هذا السجل مدة شهرين على الأقل ، أو ثلاثة ان استطعنا ، فمثل هذا السجل الشامل الدقيق ، انما يطلعنا على الأوجه التى ننفق فيها مالنا ، وعلى أساسه يمكننا أن نقيم ميزانيتنا .

تقول انك تعلم فى أى الوجوه تنفق مالك ؟ حسنا . قد يكون الأمر كذلك ، ولكنك لست الا واحدا فى كل الف . لقد حدثتنى مسز ستابلتون بقولها ان القاصدين اليها كثيرا ما يجهدون أفكارهم فى محاولة تذكر الأوجه التى ينفقون فيها أموالهم . فاذا دونت هذه الأوجه التى يذكرونها على ورقة ثم أطلعتهم عليها ، هتفوا مدهوشين: « أهذه هى الوجوه التى ننفق فيها مالنا ؟ » ولا يصدقون ! .

٢ — اجعل لنفسك ميزانية تتضمن كل احتياجاتك :

حدثتنى « مسز ستابلتون » بقولها : انك قد ترى عائلتين تعيشان جنبا الى جنب ، وفى بيتين متشابهين . ولهما من الأطفال عدد متماثل ، وايرادهما واحد لا يختلف ، ومع ذلك فان احتياجات الواحدة منها تختلف اختلافا جوهريا عن احتياجات الأخرى . لماذا؟ لأن الناس مختلفون أصلا ، ومن ثم ينبغى أن تكون الميزانية « شخصية » تلائم صاحبها دون سواه » .

وليس المقصود من وراء الميزانية ان تحرم من متع الحياة ، وتروض نفسك على نبذها . كلا . بل الميزانية هى أفضل ما يحيطك

بسياج من الاستقرار المالى الذى يتوقف عليه فى كثير من الأحيان الاستقرار النفسى .

ولكن كيف تنسق ميزانيتك ؟ أو وقبل كل شىء احص نفقاتك واعرف أوجه الانفاق . فلذا عجزت عن الملاءمة بين « الدخل » و « المنصرف » فاسأل غيرك النصيحة .

٣ ــ تحر الحكمة فى الانفاق :

واعنى بهذا أن تتعلم كيف تحصل على أفضل ما يمكن بأقل ما يمكن من المال . واعلم أن للشركات الكبرى خبراء مختصين فى فن « الشراء » يبتاعون لشركاتهم افضل ما يمكن من البضائع لقاء المال المخصص للشراء . وانت بوصفك مديرا لأعمالك لماذا لاتتبع خطاهم ؟ .

٤ ــ لا تصدع رأسك فى التفكير فى دخلك :

قالت لى « مسز ستابلتون » انها لا تخشى شيئا بقدر ما تخشى أن يطلب اليها تنسيق ميزانية أسرة دخلها السنوى خمسة آلاف دولار. ولما استفسرتها السبب ، قالت : « ان دخلا قدره خمسة آلاف دولار لهو الأمل الذى يداعب معظم الأسرات . وقد تسير هذه الأسر سنوات طويلة متحرية الحكمة ، والاتزان فى الانفاق ، حتى اذا بلغ دخلها خمسة آلاف دولار سنويا ، ظنت أنها وصلت الى شاطىء الأمان حيث لا مبرر لحكمة أو اتزان ! فتراها تبتاع لنفسها بيتا وسيارة ، وتجدد الأثاث وتقتنى الثياب ، ولكنها لا تلبث أن تنقلب شقية تعسة ، حين تدرك أنها عولت أكثر مما ينبغى على ازدياد الدخل » .

وهذا مما يتفق مع الطبيعة البشرية . فكلنا يبغى أن يزيد حظه من الاستمتاع بالحياة ، ولكن أيهما ، بالله أكثر اجتلابا للسعادة: العيش فى حدود ميزانية معلومة ؟ أم توالى الرسائل علينا كل يوم بالبريد ، يطالبنا فيها الدائنون بمالهم فى اعناقنا من ديون ؟ .

٥ — اجعل لنفسك رصيدا ينفعك وقت الشدة :

اذا اعترضك طارىء والفيت نفسك مضطرا الى الاستدانة لمواجهته ، فان عقود شركات التأمين والسندات المالية . واسهم شركات الادخار .. كل هذه بمثابة مال بين يديك .. ولكن تأكد أولا وقبل أن تبتاع شيئا من هذه السندات ، أن من الممكن الاقتراض فى مقابلها وقت الشدة .

وهب انك لا تملك « بوليصة تأمين » ، ولا أسهم ، ولا سندات، ولكنك تملك بيتا ، أو سيارة أو ما شبههما من الممتلكات ، فالى من تذهب للاقتراض ؟ الى المصرف بالطبع .

ثم هب ، انك لا تملك ما تقترض فى مقابلة اللهم الا أجرك أو راتبك ، فماذا تفعل ؟ هناك جمعيات متخصصة فى الاقتراض مقابل ضامن ، أو مقابل مرتبك أو اجرك ، ولما كانت هذه الجمعيات فى الواقع تخاطر بأموالها مقابل ضمان غير كاف ، فانها تتقاضى ربحا أكبر من الربح القانونى الذى يتقاضاه المصرف ، وقد تزيد هذه الأرباح اذا توانيت فى السداد ، ومن ثم تحقق قبل الاستدانة ، انك ستسارع بالسداد .

٦ — أمن نفسك ضد المرض ، والحريق ، والطوارىء :

ان التأمين ضد كافة أنواع الحوادث أمر ميسور لكل راغب ، لقاء أقساط زهيدة نسبيا . ولست أقترح عليك أن تؤمن نفسك ضد كافة الحوادث ابتداء من زلة قدمك فى أرض الحمام ، الى اصابتك بالحصبة . كلا وانما اقترح عليك ان تؤمن نفسك ضد الحوادث الجليلة التى تعلم أنها تكلفك فوق طاقتك ، وبالتالى تقتضيك كثيرا من القلق والمتاعب .

٧ — اشترط ألا يدفع مبلغ التأمين الى أرملتك نقدا :

اذا شئت أن تؤمن على حياتك بقصد تأمين حياة أسرتك بعد موتك ، فلا تنص على تسليم مبلغ التأمين جملة واحدة الى أسرتك

بعد الوفاة . وقد ضربت « مسز ماريون ايبر » ـــ رئيسه « قسم المرأة » بمعهد التأمين على الحياة بنيويورك ـــ مثل بأرملة سلمت ولدها عشرين ألف دولار هى قيمة تأمين زوجها على حياته ، ليبدأ بها مصنعا لقطع الغيار الخاصة بالسيارات ، ولكن المشروع حاقت به الخيبة ، فكانت النتيجة أن شردت الأرملة ، وما زالت مشردة الى الآن . . . وضربت مثل ارملة أخرى اقنعها أحد السماسرة بشراء طائفة من السندات ، بعد أن أكد لها أن سعرها سيتضاعف فى أمد قصير . فاضطرت الأرملة بعد ثلاث سنوات أن تبيع السندات بأقل من عشر المبلغ الذى اشترتها به .

فاذا كنت جادا حقا فى حماية أرملتك وأولادك بعد موتك ، فلماذا لا تفعل مثلما فعل « ج مورجان » ، وهو واحد من أكثر الاقتصاديين الذين عرفهم العالم حكمة ؟ فقد أوصى بثروته لستة عشر شخصا ، منهم اثنتا عشرة سيدة ، فهل تراه أوصى للسيدات بمال نقدى ؟ كلا . بل اوصى لهن بسندات واسهم مضمونة تؤتى لهن دخلا ثابتا مكفولا .

٨ ـــ علم أبناءك كيف يكونون مسئولين عن المـــال :

لن أنسى ما حييت مقالا قرأته فى مجلة « يور لايف » لكاتبة تدعى « ستيلا وستون نثل » . فقد وصفت فى ذلك المقـــال كيف كانت تعلم ابنتها الصغيرة أن تكون مسئولة عما تملك من مال ، فجاءت « بدفتر شيكات » من المصرف الذى تعاملة ، وأعطتـــه لابنتها التى لاتزيد سنها على تسعة أعوام ، وكانت الطفلة اذا تسلمت « ايرادها » الشهرى « أودعته » لدى أمها باعتبارها المصرف : ثم اذا احتاجت الى شىء فى خلال الأسبوع ، كانت تحرر « شيكا » بالمبلغ الذى تريده ، ولا تفتأ بين الحين والحين تراجع « رصيدها » فى « المصرف » لتضمئن على كفايته . ولم تستخلص الطفلة من هذه العملية مجرد المتعة وحسب ،وانما تعلمت أيضا كيف تحافظ على مالها ، وكيف تكون مسئولة عنه .

٩ ــ تستطيعين يا سيدتى ، أن تستخرجى المال من موقدك :

اذا فرغت ، يا سيدتى ، من عمل الميزانية ، ورأيت أن «ايرادك» لا يمكن ملاءمته مع نفقاتك ، فعليك أن تختارى أحد امرين : اما أن تمتثلى للقلق ، والهم ، والشكوك ... واما أن تشرعى فى اكتساب المزيد من المـــال لاضافته الى دخلك . وكيف ؟ ســـأدع مسز « نيللى سبير » تحدثك عما فعلته . ففى عام ١٩٣٢ الفت « مسز سبير » نفسها تعيش وحدها بلا معين ، فى شقة ذات ثلاث غرف ، بعد أن توفى زوجها ، وتزوج كلا ولديها . وفى ذات يوم كانت تتناول بعض المرطبات فى حانوت للحلوى ، فرأت الى جانب المرطبات بعض الفطائر التى ينقصها الاتقان ، فسألت صـــاحب الدكان ، هل لديه مانع من أن تزوده ببعض الفطائر المتقنة ، فطلب الرجل اليها فطيرتين بمثابة « عينة » . قالت « مسز سبير » : « وبرغم أننى طاهية ماهرة الا اننا كنا نستخدم على الدوام طاهية ، ولا يزيد عدد ما طهوته من الفطائر فى حياتى على اثنتى عشرة فطيرة ، فلما طلب الى الرجل أن أصنع له فطيرتين ، لجأت الى جارة لى وطلبت اليها أن تصف لى كيف تعمل الفطائر ، ثم صنعت للرجل الفطيرتين بعد أن بذلت جهدى فى اتقانهما ، واعجب الرجل ــ أو أعجب زبائنه ــ بهما ، وفى اليوم التالى كنت اعد له خمس فطـــائر جديدة ، وما انقضى عامان حتى كنت أعد خمسة آلاف فطيرة فى العام ، أصنعها كلها بيدى ، وفوق موقدى ، وكنت أربح من وراء هذا العمل الف دولار فى العام » . ثم تزايدت الطلبات على « مسز سبير » فاضطرت أن تفتح محلا خاصا . استخدمت فيه فتاتين يعاونانها على صنع الفطائر ، وحين سألت « مسز سبير » هل تعتقد أن غيرها من النساء يسعهن أن يفعلن مثلما فعلت ، فوق مواقدهن ، ودون أن يتكلفن شيئا . قالت بالتأكيد يستطعن » ! .

والهدف الذى اسعى اليه من سرد هذه القصـــة هو أن « مسز سبير » هذه ، بدلا من أن تمتثل للقلق على مشكلاتها المـــالية ، اقدمت على امر ايجابى جنبها القلق ، ومدها بالمال فى آن واحـــد

والآن تلفتى حواليك ، فسوف تجدين ميادين كثيرة تستطيعين اقتحامها دون أن تتكلفى شيئا . فاذا وسعك أن تدربى نفسك على الطهو الجيد ، فان فى استطاعتك أن تنشىء مدرسة للطهو للفتيات فى مطبخ بيتك .

١٠ — لا تقامر :

لا يثير عجبى شىء بقدر ما يثيره أولئك الذين يأملون فى جنى المال من وراء المقامرة على خيول السباق ، أو بورق اللعب ، أو بآلات المقامرة الاخرى ، أعرف رجلا يكسب عيشه من ادارة ناد للمقامرة، ولكنى ما عهدته الا مزدريا لأولئك الحمقى الواهمين الذين بلغت بهم الغفلة الى حد الاقتناع بامكان جنى المال من وراء المقامرة .

ولقد حدثنى رجل شهير من سماسرة المراهنات على سباق الخيل بأنه برغم وقوفه على دخائل سباق الخيل وأسراره ، لم يستطيع قط أن يجنى مالا من وراء المراهنة ، ومع هذا ، فمما يدعو الى الدهشة والأسف معا أن مجموع ما ينفقه المراهنون على سباق الخيل يبلغ ستة ملايين من الدولارات سنويا .

١١ — اذا لم نستطع أن نحل مشكلاتنا المالية فالأفضل الا نقتل انفسنا حسرة على ما ليس منه بد :

اذا لم تكن ثمة وسيلة لتحسين أحوالنا المالية ، فلا أقل من ان نعدل اتجاهنا الذهنى ، ونظرتنا الى المشكلة . دعنا نذكر ان كثيرين غيرنا يرزحون تحت أعباء مالية متنوعة فقد يسوءنا أننا لسنا فى مستوى زيد من الناس ، ولكن « زيدا » قد تكون له متاعبه ، وهمومه لأنه لم يبلغ مبلغ « عبيد » من الناس ، و « عبيد » فى آخر الأمر ، غير راض بدوره ، بل يطلب المزيد ! .

وكثيرا من المشاهير الذين عرفهم تاريخ أمريكا ، كانت لهم همومهم ومتاعبهم المالية ، فقد استدان لنكولن ، واستدان من بعده واشنجتون ، لينفقا على حملاتهما الانتخابية . فاذا لم يسعنا أن نحصل على كل ما ينبغى أو نريد ، فلا ينبغى أن نسمم حياتنا ،

ونعكر مزاجنا ، من فرط القلق والهم . دعنا نواجه الأمر بحكمة الفلاسفة . قال « سينيكا » أحد فلاسفة الرومان العظام : « اذا بدا لك كل ما لديك قليلا ، فاعلم أنك لو امتلكت الدنيا لقلت أن ما لديك قليـــل » .

وتذكر هذا : لو أنك امتلكت الولايات المتحدة الأمريكية بأجمعها، لمـــا وسعك الا أن تتناول ثلاث وجبات فى اليوم ، والا أن تنـــام فى فراش واحد فى وقت واحد ! .

الجزء العاشر

قصص واقعية يروى أبطالها كيف قهروا القلق

هاجمتنى المصائب مجتمعة

بقلم س . ا . بلاكورد

مدير مدرسة « بلاكورد وديفيز للأعمال » بمدينة أوكلاهوما

* * *

فى صيف عام ١٩٤٣ ، خيل الى أن نصف القلق الموزع على البشر جميعا قد حط على كاهلى . وكنت قد أمضيت من عمرى اكثر من أربعين سنة فى حياة طبيعية لا تعتريها المنغصات أو المشكلات ، اللهم الا مالا ينحو منه زوج ، وأب ، ورجل أعمال مثلى . وكنت قد تعودت مجابهة كل ما يتصدى لى من المشكلات فى سهولة ويسر ، ثم انقضت على رأسى فجأة ست مشكلات كبرى تجر بعضها بعضا . وهذه هى المشكلات الست :

١ ـ أوشكت المدرسة التى املكها على الافلاس . اذ انفض عنها طلابها ليلتحقوا بالجيش ، وهجرتها معظم طالباتها قبل اتمام دراستهن ليلتحقن بالوظائف الادارية فى هيئات الجيش المختلفة بأجور مغرية .

٢ ـ انخرط ابنى الاكبر فى صفوف الجيش فحاق بى من القلق ما يعرفه كل أب له ابن او ابناء فى صفوف الجيش .

٣ ـ شرعت بلدية « أوكلاهوما » فى اخلاء مساحة كبيرة من الأرض من المساكن القائمة عليها لتحيلها الى مطار . وكان مسكنى ـ الذى ورثته عن أبى ـ يدخل فى نطاق هذه المساحة . وكنت اعرف أننى لن اعوض عنه الا بمقدار عشر قيمته الحقيقية ، فضلا عن أننى سأفقد منزلى فى الوقت الذى اشتدت فيه ازمة المساكن ، وانا رب عائلة مكونة من ستة اشخاص .

٤ — جفت البئر القائمة وسط مزرعتى والتى تمدنا بمياه الشرب ، بعد أن حفرت بالقرب من بيتى ترعة لتصريف مياه الرى . وكان حفر بئر أخرى معناه تبديد خمسمائة دولار هباء ، نظرا لأن المزرعة عرضة لاستيلاء السلطات عليها فى اى وقت لانشاء المطار ، ومن ثم لبثت أنقل ماء الشرب الى بيتى فى صفائح مدى شهرين ، وخشيت أن تستمر الحال على هذا المنوال حتى نهاية الحرب .

٥ — كنت أقطن على بعد خمسة أميال من المدرسة التى اديرها ، ولم يكن فى وسعى ، نظرا للقيود المفروضة على اطارات السيارات أن اجدد اطارات لسيارتى ، ومن ثم ركبنى القلق خوفا من أن اضطر الى الانقطاع عن عملى اذا انفجر احد اطارات سيارتى القديمة .

٦ — تخرجت كبرى بناتى فى المدرسة الثانوية قبل الموعد المحدد . . وكانت تطمع فى الذهاب الى الجامعة . ولكنى لم اكن امتلك ما أنفق منه على تعليمها العالى ، وتوقعت ان يدركها الهم ان انا صارحتها بهذه الحقيقة .

وفى ذات مساء ، بينما انا فى مكتبى استعيد قلقى وهمومى ، قررت أن أدون مشكلاتى جميعا ، اذ خطر لى ان احدا لم يسبق له ان عانى اكثر مما أعانى ، ولم يكن من عادتى أن ابالى بالمشكلات التى أرى الى حلها سبيلا ، ولكن خيل الى أن مشكلاتى الحاضرة دون حلها خرق القتاد . ومن ثم رحت أدون هذه المشكلات التى اسلفتها ، ثم نسيت بمرور الزمن ، أننى دونتها . وانقضى على ذلك ثمانية عشر شهرا . ثم فى ذات يوم . بينما انا أقلب أوراقى عثرت على قائمة المشكلات الست التى هددت صحتى يوما بالبوار . فقرأتها فى كثير من الشغف والاهتمام ، ذلك لأن شيئا منها لم يتحقق قط ! . . . واليك ما حدث .

١ — رأيت أن القلق الذى انتابنى خشية افلاس المدرسة لا محل له ولا داع ، فقد عمدت الحكومة الى مد مدارس الأعمال باعانات كبيرة لتدريب جرحى الحرب ، ومشوهيها على مختلف الأعمال ، وما لبثت مدرستى أن ضاقت على رحبها بالطلبة .

٢ — كما وجدت أنه ليس ثمـــة ما يدعو الى القلق على نجلى الملتحق بالجيش ، فقد كان فى طريق عودته الى سالما .

٣ — ورأيت أن الخوف من ضياع مزرعتى فى سبيل انشاء مطار لم يعد هناك ما يبرره ، اذ انبثق البترول على بعد ميل واحد منها ، ومن ثم صرف النظر عن الاستيلاء على هذه الأرض .

٤ — ورأيت أيضا أنه لامحل للقلق على البئر التى جف ماؤها فى أرضى ، فما ان علمت أن السلطات لن تستولى على أرضى حتى بادرت الى حفر بئر أخرى .

٥ — وكذلك وجدت أن خشيتى من انفجار اطارات سيارتى كلها أو أحدها ، لم يعد ما يبرره . اذا أنا أحكمت قيادة سيارتى فبوسع اطاراتها أن تبقى سليمة من كل سوء .

٦ — كما رأيت أن اشفاقى من مواجهة ابنتى بعجزى عن اتمام تعليمها لم يعد ما يدعو اليه ، فقبل موعد دخول المدارس بستين يوما أسند الى عمل اضافى ، وبهذا تهيأ لى المال اللازم للانفـــاق على تعليم ابنتى .

وكثيرا ما سمعت الناس يقولون : ان تسعة وتسعين فى المائة مما تشفق منه ، ويتولانا القلق بسببه لا يحدث اطلاقا ، ولكن لم أكن أعير هذا القول اعتبارا حتى لمسته بنفسى .

وانى اليوم لشاكر لهذه التجربة التى مرت بى أجزل الشكر ، فقد علمتنى درسا لا أنساه . . علمتنى عقم الاشفاق من شىء لا سيطرة لنا عليه ، وقد لا يحدث اطلاقا .

تذكر أن اليوم هو « الأمس » الذى أشفقت من مواجهته واسأل نفسك على الدوام : كيف أعلم أن ما أشفق منه سوف يحدث ؟ .

استطيع أن أتحول الى رجل سعيد

بقلم روجر بابسوق

الاقتصادى الشهير

* * *

حين انظر فأجد نفسى فى غمرة من الانقباض ، وخضم من المنغصات ، أستطيع أن اقصى القلق عن نفسى ، وان اتحول فى ساعة واحدة الى رجل متفائل سعيد . واليك الطريقة التى اتبعها :

ادلف الى مكتبى ، واغمض عينى ، ثم اقصد هكذا الى أرفف معينة لاتحمل الا كتب التاريخ ، وانتقى منها ، وانا مغمض العينين ، كتابا لا أدرى أهو « غزو المكسيك » لمؤلفة « برسكوت » أم حياة القياصرة الاثنا عشر لمؤلفة « سوتوثيوس » ثم أفتح الكتاب الذى التقطه ، وانا مغمض العينين أيضا ، حيثما اتفق ... وهنالك أفتح عينى واقرأ مدى ساعة . وكلما أوغلت فى القراءة ازداد احساسى بأن العالم منذ خلقه ، ما فتىء يرزخ تحت الكارثة تتلوها الكارثة ، وما برحت المدنية منذ قيامها تتلظى بالمحنة بعد المحنة ، فان صحف التاريخ ملأى بكل ما تقشعر له الأبدان من الأهوال ، ولا تكاد تخلو صفحة من ذكر الحرب ، أو مجاعة ، أو وباء ، أو ضر ينزله الانسان بأخيه الانسان فما ان أنتهى من المطالعة حتى أحس أن الظروف المحيطة بى مهما تكن سيئة فى رايى ، سوداء حالكة فى نظرى ، فهى على التحقيق أفضل مما لقيه العالم فى عصوره الغابرة وحقبه السالفة . وهناك يسعنى أن أجابه مشكلاتى التافهة وجها لوجه .

هذه طريقة كان ينبغى أن يفرد لها فصل بذاته . أقرأ التاريخ . وانظر أى المشكلات كان يرزح تحتها العالم منذ عشرة آلاف سنة ، وقس مشكلاتك « التافهة » اليها بمقياس الخلود !

كيف تخلصت من مركب النقص

بقلم المستر توماس

عضو مجلس الشيوخ الأمريكى عن ولاية اوكلاهوما

* * *

حينما كنت فى الخامسة عشرة من عمرى ، وكانت تتنـازعنى المخاوف ، والقلق والخجل ، فقد كنت منذ حداثتى ، طويلا مفرط الطول ، ونحيفا غاية النحافة ، وبرغم ارتفاع قامتى ، كنت ضعيفا واهنا .

وكنت خلقيا بأن أمنى فى حياتى باخفاق ذريع ، لو اننى امتثلت لما اجتاحنى من قلق وخوف ، فقد كنت لا افتأ فى كل يوم من ايام الأسبوع ، بل فى كل ساعة من ساعات اليوم اجتر همى على طولى ، ونحافتى ، وضعفى ، وعرفت والدتى ما يدور بخلدى — وكانت مدرسة فى احدى المدارس — فقالت لى يوما : « يا بنى عليك ان تستزيد من العلم والمعرفة ، وعليك ان تجاهد لكسب عيشك ، اما طولك وضعف بنيتك ، ونحافتك ، فلا سبيل الى تلافيها ، وستظل هكذا على الدوام فتقبلها على علاتها ، وانسها » .

ولما كان والدى من الفقر بحيث عجزا عن ارسالى الى الجامعة ، فقد تحتم على أن أشق بنفسى طريقى الى التعليم العالى ، فعمدت الى اصطياد طائفة من حيوان « النمس » فى الشتاء ، وبعتها فى الربيع لقاء أربعة دولارات ، وابتعت بهذه الدولارات الأربعـة خنزيرين صغيرين مازلت اتعهدهما بالغذاء والرعاية حتى سمنا فبعتهما فى الشتاء التالى بمبلغ اربعين دولارا . ووسعنى بهذا المبلغ أن التحق بالقسم الداخلى بكلية « سنترال نورمال » الواقعة فى « دانفيل » بولاية « انديانا » وكنت أرتدى فى الكلية قميصا بنى اللون صنعته لى والدتى (ولا شك انها اختارت اللون البنى حتى لا يظهر فيه ما يقع عليه من غبار !) . وبدلة كانت فيما مضى ملكا لوالدى ، فلم تكن البدلةتنسجم على ،ولا كان حذاء ابى العتيق يناسب تدمى ،

بل كان يوشك فى كل خطوة اخطوها ان يطير فى الهواء ، وعاقنى حيائى واحساسي بفوضى هندامى عن الاختلاط بالطلبة ، فكنت أمكث فى غرفتى واكب على الاستذكار . ولعل أقوى الرغبات جميعا التى راودتنى فى ذلك الحين هى رغبتى فى شراء ثياب تنسجم على جسمى . ثياب لا اخجل من الظهور بها أمام اقرانى ! .

وبعد ذلك بقليل ، وقعت لى اربعة حوادث ساعدتنى علىالقلق ومركب النقص ، ومدنى أحدها بالأمل وزودنى بالثقة ، وبدل حياتى تبديلا ، واليك وصف هذه الحوادث الأربعة :

اولا — عقب مضى ثمانية اسابيع على التحاقى بالكلية . أديت امتحانا كان من نتيجته أن حصلت على شهادة تخولنى حق التدريس فى المدارس الريفية العامة .

ثانيا — تعاقدت معى مدرسة ريفية فى قرية « هابى هولو » على التدريس فيها لقاء مرتب قدره دولاران فى اليوم . فبث فى هذا الحادث احساسا بأن هناك من يثق بى ويعتمد على ! .

ثالثا — بمجرد أن حصلت على أول مرتب ابتعت ثيابا جديدة انيقة . ولو ان أحدا اليوم نقدنى مليون دولار لما اثار فى ذلك مثل الفرحة التى تملكتنى حين ارتديت أول بذلة جديدة رغم انها لم تكلفنى سوى بضعة دولارات .

رابعا — حدثت نقطة التحول الحقيقية فى حياتى فى قاعة بلدية « برتنام » بولاية انديانا . فقد حضتنى أمى على ان اتقدم الى مسابقة فى الخطابة العامة تجرى فى قاعة البلدية . وهالتنى هذه الفكرة وروعتنى فلم تكن لى الشجاعة على مخاطبة شخص واحد فضلا عن حشد من الناس . ولكن ايمان أمى بى لم يكن يعرف حدودا . فشجعتنى ثقتها بى على التقدم الى المسابقة ، وتخيرت موضوعا لخطبتى لعله آخر موضوع تؤهلنى معلوماتى للخوض فيه وهو «الفنون الجميلة والحرة فى امريكا» والحق أقول اننى حين عكفت على اعداد الخطبة لم اكن اعرف ما هى « الفنون الحرة » .

ولكن هـــذا لم يهمنى كثـــيرا . لثقتى من أن اكثر المستمعين لايعرفونها مثلى ! وحفظت خطبتى المنمقة عن ظهر قلب ، والقيتها ، على سبيل التجربة ، عشرات المرات ، على الأشجار والأبقار : كنت معتزما أن اكون عند حسن ظن أمى . وأن اودع خطابى فيضا من العاطفة وأنفخ فيه روحا قوية . ولا أطيل القول فقـــد ربحت الجائزة الأولى . ولقـــد ذهلت لما حـــدث . فقد تعالى هتاف القوم ، حتى أولئك الذين سبق لهم أن هزئوا بى وسخروا منى ، ربتوا على ظهرى وقالوا : « لقد كنا على ثقة من فوزك يا المر » واحاطتنى أمى بذراعيها وانهمرت دموع الفرح من عينيها مدرارا .

واذ ارجع بالفكر الى الماضى ، أجد أن هذا النصر كان نقطة التحول الحقيقى فى حياتى . فقد وهبنى مركزا أدبيا لم أحلم به ، ووهبنى اكثر من هذا ، الثقة بنفسى . والأهم من هذا كله أن الجائزة المخصصة لتلك المسابقة كانت دراسة مجانية لمـــدة عام فى كلية « سنترال نورمال » :

وفيما بين عامى ١٨٩٦ و ١٩٠٠ ، كنت أقسم وقتى بالعـــدل والقسطاس بين الدراسة والتدريس . . ولكى أسدد نفقـــات تعليمى فى جامعة « ديبو » التى التحقت بها بعدئذ ، عمدت الى الاشتغال تارة « جرسونا » فى مطعم الجامعة ، واخرى ملاحظا للفرن فى المطبخ ، وعمدت فى الصيف الى الاشتغال بحصاد القمح ، ورصف الطريق .

وفى عام ١٨٩٦ ، وكنت أزال فى التاسعة عشرة من عمرى ، القيت ثمانية عشر خطـــابا أحث النـــاس فيها على أنتخاب وليم جيننجز بريان رئيسا للجمهورية وكأنما اثارت دعايتى السياسية لوليم بريان الرغبة فى نفسى الى نزول المعترك السياسى ، فلما التحقت بجامعة ديبو عمدت الى دراسة القانون والخطابة العامة .

وعقب حصولى على درجة البكالوريوس من جامعة ديبو . قصدت الى ولاية أوكلاهوما ، وافتتحت مكتبا للمحاماة فى مدينة

« لوتون » وخدمت فى مجلس الشيوخ التابع لولاية أوكلاهوما أربعة أعوام وفى سن الخمسين ، حققت الأمل الذى داعبنى عمرا بأكمله ، اذ انتخبت عضوا بمجلس الشيوخ الأمريكى عن ولاية أوكلاهوما . ومازلت أتبوأ ذلك المركز منذ ٤ مارس عام ١٩٢٧ . ومنذ اليوم الذى ضمت فيه مدينة أوكلاهوما الى أراضى الهنود واصبحت كلها تعرف بولاية أوكلاهوما — اى منذ ١٦ نوفمبر عام ١٩٠٧ — وأنا أتمتع بثقة الحزب الديمراطى الذى شرفنى بترشيحى أولا لعضوية مجلس شيوخ ولاية أوكلاهوما ، وثانيـــا لعضوية الكونجرس . وأخيرا لعضوية مجلس الشيوخ الأمريكى .

ولست أسرد هذه القصة مباهاة بما صنعت فالذى صنعته لا يهم أحدا وانما أسردها مؤملا ان يجد فيها غلام مغمورا حافزا وملهما يبث فيه الشجاعة ، ويدعوه الى الاقدام ، ويخلصـــه من القلق والمخاوف ، وينجيه من مركب النقص الذى أوشك ان يحطم حياتى فى تلك الأيام الخالية ، التى كنت فيها ارتدى بذلة أبى ، وانتعل حذاءه ! .

تعقيب من طريف ما يذكر أن المر توماس ، الذى كان يخجل من الظهور بين أقرانه بهندامه غير اللائق ، قد اتفق بالاجماع على انه اكثر اعضاء مجلس الشيوخ اناقة واحكمهم هنداما .

عشت فى جنة الله

بقلم ر . ن . س . بودلى

مؤلف كتابى « رياح على الصحراء » (١) و « الرسول »
وأربعة عشر كتابا اخرى

* * *

فى عام ١٩١٨ وليت ظهرى العالم الذى عرفته طيلة حياتى ، ويممت شطر أفريقيا الشمالية الغربية ، حيث عشت بين الأعراب فى الصحراء وقضيت هناك سبعة أعوام ، أتقنت خلالها لغة البدو ، وكنت أرتدى زيهم ، وآكل من طعامهم ، واتخذ مظاهرهم فى الحياة وغدوت مثلهم أمتلك أغناما وأنام كما ينامون فى الخيام ، وقد تعمقت فى دراسة الاسلام ، حتى اننى ألفت كتابا عن محمد (صلى الله عليه وسلم) عنوانه « الرسول » ، وقد كانت تلك الأعوام السبعة التى قضيتها مع هؤلاء البدو الرحل من أمتع سنى حياتى وأحفلها بالسلام ، والاطمئنان ، والرضا بالحياة .

وقد تعلمت من عرب الصحراء كيف أتغلب على القلق . فهم بوصفهم مسلمين يؤمنون بالقضاء والقدر ، وقد ساعدهم هذا الايمان على العيش فى أمان ، وأخذ الحياة مأخذا سهلا هينا . فهم لايتعجلون أمرا ، ولا يلقون بأنفسهم بين براثن الهم قلقا على أمر . انهم يؤمنون بأن « ما قدر يكون » ، وأن الفرد منهم « لن يصيبه الا ما كتب الله له » . وليس معنى هذا أنهم يتواكلون أو يقفون فى وجه الكارثة مكتوفى الأيدى ، كلا ؟ .

ودعنى أضرب لك مثلا لما أعنيه : هبت ذات يوم عاصفة عاتية حملت رمال الصحراء وعبرت بها البحر الأبيض المتوسط ، ورمت

R. V. C, Bodly. «Wind in the sahara»— «The Messenger».

بها وادى « الرون » فى فرنسا . وكانت العاصفة حارة شديدة الحرارة ، حتى احسست كأن شعر راسى يتزعزع من منابته لفرط وطأة الحر ، واحسست من فرط القيظ كأننى مدفوع الى الجنون ولكن العرب لم يشكوا اطلاقا فقد هزوا اكتافهم ، وقالوا كلمتهم المأثورة « قضاء مكتوب » .

لكنهم ما ان مرت العاصفة ، حتى اندفعوا الى العمل بنشاط كبير ، فذبحو صغار الخراف قبل ان يؤدى القيظ بحياتها ، ثم ساقوا الماشية الى الجنوب نحو الماء ، فعلو هذا كله فى صمت وهدوء دون ان تبدو من احدهم شكوى ، قال رئيس القبيلة الشيخ : « لم نفقد الشيء الكثير ، فقد كنا خليقين بأن نفقد كل شيء ، ولكن حمدا لله وشكرا ، فان لدينا نحو اربعين فى المائة من ماشيتنا ، وفى استطاعتنا أن نبدأ بها عملنا من جديد » .

وثمة حادثة اخرى . . فقد كنا نقطع الصحراء بالسيارة يوما فانفجر احد الاطارات ، وكان السائق قد نسى استحضار اطار الاحتياطى ، وتولانى الغضب ، وانتابنى القلق والهم ، وسألت صحبى من الأعراب « ماذا وعسى أن نفعل ؟ » فذكرونى بأن الاندفاع الى الغضب لن يجدى فتيلا ، بل هو خليق ان يدفع الانسان الى الطيش والحمق ، ومن ثم درجت بنا السيارة وهى تجرى على ثلاث اطارات ليس الا ، لكنها مالبثت أن كفت عن السير وعلمت أن البنزين قد نفذ . وهنالك ايضا لم تثر ثائرة أحد من رفاقى الاعراب . ولافارقهم هدوءهم ، بل مضوا يذرعون الطريق سيرا على الأقدام وهم يترنمون بالغناء ! .

قد اقنعتنى الأعـــوام السبعة التى قضيتهـــا فى الصحراء بين الأعراب الرحل ، أن الملتاثين ، ومرضى النفوس ، والسكيرين . الذين تحفل بهم امريكا واوروبا . ماهم الا ضحايا المدنية التى تتخذ السرعة أساسا لها .

اننى لم اعان شيئا من القلق قط ، وانا اعيش فى الصحراء ، بل هنالك فى ، جنة الله ، وجدت السكينة ، والقناعة ، والرضا ، وكثيرون

من الناس يهزءون بالجبرية التي يؤمن بها الأعراب ، ويسخرون من امتثالهم للقضاء والقدر .

ولكن من يدرى ؟ فلعل الاعراب أصابوا كبد الحقيقة فانى اذ أعود بذاكرتى الى الوراء . . . واستعرض حياتى ، أرى جليا انها كانت تتشكل فى فترات متباعدة تبعا لحوادث تطرأ عليها ، ولم تكن قط فى الحسبان ، أو مما استطيع له دفعا ، والعرب يطلقون على هذا اللون من الحوادث اسم « قدر » أو « قسمة » أو « قضاء الله » ، وسمه أنت ماشئت .

وخلاصة القول اننى بعد انقضاء سبعة عشر عاما على مغادرتى الصحراء ، مازلت أتخذ موقف العرب حيال قضاء الله ، فأقابل الحوادث التى لاحيلة لى فيها بالهدوء والامتثال ، والسكينة ، ولقد أفلحت هذه الطباع التى اكتسبتها من العرب فى تهدئة أعصابى اكثر مما تفلح آلاف المسكنات والعقاقير ! .

المؤلف : ولست الزمك — ايها القارىء — ان تكون جبريا مؤمنا بالقضاء والقدر ، ولكن : الا ترى من الأفضل انه حين تجتاح حياتنا عاصفة هو جاء لانستطيع لها دفعا ، ان نمتثل لما ليس منه بد ؟ .

كما احتملت بالأمس احتمل اليوم

بقلم دوروثى ديكس

الكاتبة المعروفة

لقد عانيت الكثير من اهوال الفاقة والمرض ، ومن ثم فانني حين يسألنى الناس كيف أواجه المصاعب اجيبهم على الفور : « كما احتملت بالأمس استطيع ان أحتمل اليوم ، ولست اسمح لنفسى بالتفكير فيما « عساه » يحمله الغد بين طياته ! » .

لقد ذقت ذل الحاجة ، ومرارة الكفاح والم القلق ، واذ أنظر اليوم الى حياتى الماضية أخالها كميدان قتال ملىء بالقتلى والجرحى من أحلامى ، وآمالى ، واوهامى ! ولكنى برغم ذلك كله ، لا أرثى لنفسى ، ولا أذرف الدموع على ما ادبر من حياتى . ولست أحسد واحدة من بنات جنسى ممن اغنتهن الظروف عن مواجهة ما واجهت ومعاناة ما عانيت ، فاننى على خلاف بنات جنسى ، قد تجرعت كأس الحياة المملؤ بالألم حتى الثمالة اما لداتى فقد ارتشفن ماعلا الكأس من حبب ، ولم يصلن قط الى القرار . . ومن ثم فأنا أعلم مالا يعلمن ، وارى مالا يرين ، فانك تجد أقرب النساء الى فهم الحياة وادراك حقائقها ، وارتياد آفاقها ، امراة اقرحت الدموع عينيها ، والتهم الأسى فؤادها ! .

ولقد تعلمت فى مدرسة الحياة فلسفة لاتتيسر لامراة جرت حياتها سهلة لينة . تعلمت كيف اعيش اليوم فى حدود اليوم دون ان افترض المتاعب فى الغد الذى اجهله . وتعلمت الا اتوقع من الناس اكثر مما ينبغى ، وان أتكلف المرح على الدوام . فهناك أشياء عليك حيالها اما أن تبكى واما ان تضحك ، فاذا وسع المراة أن تضحك وتمرح بدلا من أن تلقى بنفسها بين براثن « الهستريا » فلن يكون هناك شىء يؤذيها او ينال منها . اننى لا احزن على ما سلف من حياتى الحافلة بالمتاعب والصعاب ، لأننى عرفت من خلال هـذه الحياة . . ومعرفة الحياة يهون فى سبيلها كل ثمن .

كنت واحدا من اكبر المغفلين ؟

بقلم برسى هوايتنج

مدير شركة « ديل كارنيجى » بنيويورك

لقد مت ، او اوشكت على الموت ، عشرات المرات ! كان أبى يمتلك صيدلية ، ومن ثم كنت دائم الاتصال بالأطباء والمرضين . وقد ألمت من خلال أحاديثى مع الأطباء بأسماء واعراض اكثر الأمراض . ولكثرة خوضى فى احـــاديث الأمراض أصبت بـــداء « الوسوسة » فكنت اذا قضيت ساعة أو ساعتين اتحدث عن أحد الأمراض اشعر بعد قليل باعراضه ، ثم البث ان احس بآلامه وأوجاعه ! وقد حدث ان اجتاح وباء الدفتريا البلدة التى نقطنها فى ولاية « ماساشوستتش » وكنت فى ذلـــك الوقت أعاون أبى فى الصيدلية على بيع الأدوية والعقاقير لآل المرضى . ثم حدث ما كنت أخشاه وأتقى وقوعه : فقد مرضت بالدفتريا ، أو هكذا اعتقدت ! وذهبت الى الفراش وأنا أتمثل فى مخيلتى أعراض المرض التى اعرفها ، وأرسلت أستدعى الطبيب ، فلما انتهى من فحصى قال : « نعم ابرسى ، لقد أصبت بالدفتريا » وقد خفف هذا بعض العناء الذى استشعره ، ومن ثم استسلمت لنوم عميق فى تلك الليلة . وفى يوم التالى استيقظت وأنا مكتمل الصحة والعافية ! ! .

لقد كنت أتخير من الأمراض أخبثها وأمرها ، ثم ادعى أننى مصاب به . مثال أننى « تخصصت » فى الخوف من « السل » ، و « السرطان » وكنت لا افتأ أتخيل أننى مصاب بهما ! .

ويسعدنى الآن ان اضحك وأنا أذكر هذا ، ولكن ما أضحك منه الآن كان فى حينه أليما مريرا . بل لقد بلغت بى « الوسوسة » الى حد أننى كلما خطر لى ان ابتاع بذلة جديدة بمناسبة حلول فصل الربيع كنت اسأل نفسى : «أينبغى لى ان انفق المال فى شراء بذلة لن اعيش حتى ارتديها ؟ ! » .

على أننى اليوم سعيد بما عرانى من تحسن ملموس ، ففى خلال

الأعوام العشرة الماضية لم امت مرة واحدة ! فكيف منعت نفسي من الموت ؟ باستهزاء من غفلتي وسذاجتي ، كنت اقول لنفسي كلما داهمني القلق ، وتوهمت ان اعراض مرض خطير قد تملكتني « اسمع يابرسي : لقد مضى عليك عشرون عـاما وانت تموت في غرفتك . المرة تلي المرة من مرضا خطيرا مثله . وها انت أحسن ما تكون صحة وعافية ! وقد رضيت اخيرا احدى شركات التأمين عن طيب خاطر ان تؤمن على حياتك ! الم يحن الوقت بعد لكي تضحك ملء شدقيك من ذلك الشخص « المغفل » الساذج الذى كنته فيما مضى ! » .

وقد وجدت ، بعد هذا بقليل ، أن من المحال الجمع بين القلق من امراض وهمية ، والضحك من هذه الأمراض الوهمية في الوقت ذاته . . ومن ثم فضلت الضحك ومازلت ملتزما اياه حتى الآن ! .

احتفظت بطريق « التموين » مفتوحا

بقلم : جين اوترى

النجم السينمائى ، والمغنى المعروف

احسب ان معظم القلق منصب على مشكلات الأسرة ، ومسائل المال . وقد كان من حسن حظى أن تزوجت من فتاة نشأت مثل النشأة التى نشأتها ، ومن ثم فهى تتفق معى فى معظم آرائى ونظراتى الى الحياة . اما المشكلات ، فقد استعنت فى حلها بطريقتين :

الأولى : اننى اتبعت طريقة الجملة لا القطاعى فى معالجة مسائلى المالية ، فاذا استدنت مثلا ، سددت دينى « جملة »حتى لا يبقى هناك ما ينتابنى القلق من اجله .

والثانية : اننى تشبهت بالعسكريين فى ابقاء طريق التموين مفتوحا على الدوام ، وباى ثمن !

فحين كنت صبيا ذقت مرارة الفاقة والاملاق ، فقد اصيبت الأرض التى نعول عليها فى معاشنا بالجفاف ، وعز علينا ان نجد لقمة العيش . ولم ترضنى هذه الحال ، فاعتزمت أن أبحث عن مورد ثابت للرزق ، والتحقت بعمل فى احدى محطات السكك الحديدية كنت أتقاضى منه ١٥٠ دولارا فى الشهر . وعندما شرعت بعد ذلك ، فى تحسين حالتى المادية ، وضعت نصب عينى أن المبلغ الذى أتقاضاه من محطة السكك الحديدية . أمان لى من الحاجة ومن ثم احتفظت بالطريق اليه مفتوحا ، فلم أتخل عنهحتى رسخت قدمى فى عمل افضل منه . مثال ذلك اننى عندما كنت اشتغل فى محطة السكك الحديدية عام ١٩٢٧ ، دلف الى فناءالمحطة شخص غريب عن البلدة ليرسل برقية . وتصادف أن سمعنى الرجل الغريب وانا اعزف على « الجيتار » وانشد اغانى رعاة البقر ، فاثنى على أدائى ، وأبدى اعجابه بعزفى وغنائى ، وقال لى ان امامى مستقبلا باهرا فى السينما ومحطات الاذاعة . ثم

لم يكد الرجل يقدم لى بطاقتـــه حتى احتبست انفاسى ، فلم يكن سوى « ويل روجرز » المنتج السينمائى الشهير . ولكنى بدلا من أن اندفع الى نيويورك ، واتخلى عن عملى دفعـــة واحدة ، رحت اقلب الأمر على جميع وجوهه حتى اقتنعت اخيرا بأننى لم اخسر شـــيئا ان انا ارتحلت الى نيويورك . وكان لدى تصريح مجانى يبيح لى السفر على خطوط السكك الحديدية ، ومن ثم ســـافرت الى نيويورك ، ولبثت عشرة اسابيع أذرع نيويورك طولا وعرضا دون ان اوفق الى عمل . وكنت خليقا بأن ينتابنى قلق يهدد صحتى ويقوض سعادتى لو لم اكن قد استدركت فاحتفظت بعملى لأعود اليـــه متى شئت . فقـــد خدمت فى السكك الحديدية مدى خمس سنوات ؛ وهذه المـــدة تخولنى الحق فى التغيب عن عملى مـــدة لا تزيد على تسعين يوما . ومن ثم عدت ادراجى الى أوكلاهوما حيث مقر عملى ، وزاولت عملى فى المحطة شهرين ادخرت خلالهما شيئا من المال ثم عدت الى نيويورك اجرب حظى من جديد . وفى هذه المرة حصلت على عمل . ففى ذا تيوم ، بينما انا انتظر فى احد استديوهات الاذاعة ، لأقابل المدير ، اذ خطر لى ان اقطـــع الوقت بالعزف على « الجيتار » والترنم باحدى أغنياتى المفضلة ، وهى « جانى .. انى أحلم بلياليا الخوالى » وبينما انا أغنى اذا بمؤلف هذه الأغنيـــة « نات شيلد كروت » يدلف الى الغرفة . وطبيعى انه سر اذ رآنى اترنم بأغنيته . ومن ثم تطوع فأعطانى توصية ، وارســـلنى بها الى شركة فيكتور للتسجيل ، وهنـــاك أجريت لى تجربة فى تسجيل الصـــوت فأخفقت التجربة ، ومن ثم عدت ادراجى الى عمـــلى فى محطة السكك الحديدية ، وواصلت العمل تســـعة اشهر وتصادف فى خلال هـــذه المـــدة ، أن كتبت بالاشتراك مع « جيمس لونج » اغنية عنوانها « فتاتى ذات الشعر الفضى » ، واذاعت الأغنيـــة من محطة الاذاعة فى « تلسا » ، فاذا بى فى اليوم التالى ، اتلقى خطابا من « آرثر شاترلر » مدير « شركة التسجيل الأمريكيـــة » يطلب الى فيه ان أجـــرى تجربة لتسجيل صوتى ، وافلحت التجربة هذه المرة ، وسجلت لى عدة

« اسطونات » لقاء خمسين دولارا لكل « اسطوانة » واخيرا وفقت الى الاتفاق مع احدى محطات الاذاعة بشيكاغو على أن أغنى لحسابها اغانى رعاة البقر ، لقاء اربعين دولارا فى الاسبوع .

وبعد ان امضيت اربع سنوات فى خدمة تلك المحطة رفع راتبى الأسبوعى الى تسعين دولارا ووسعنى فضلا عن هذا ، أن اجمع مبلغ ثلاثمائة دولار ، نظير اشتراكى فى بعض البرامج المسرحية ، ثم فى عام ١٩٣٤ . تفتقت لى آفاق الحياة على رحبها فقد تألفت لجنة فى هوليود مهمتها اعادة النظر فيما تخرجه هوليود من روايات سينمائية، واقترحت اللجنة أن تكثر هوليود من روايات رعاة البقر . وتلفت مخرجو هوليود يبحثون عن شخص يستطيع أن يغنى اغانى رعاة البقر فضلا عن تمثيل أدوارهم ؛ وشاءت المصادفة أن يكون مدير شركة التسجيل الأمريكية شريكا فى شركة أفلام « ريبابلك » ومن ثم وقع اختياره على ، وكان ذلك بداية اشتغالى بالسينما .

وقد تجاوز نجاحى فى التمثيل كل ما توقعت ، وانا الآن احصل على مرتب قدره مائة الف دولار سنويا ، يضاف اليه نصف الأرباح التى تجنيها الشركة فى كل رواية من رواياتى ! .

عندما طرق « العمدة » باب بيتى

بقلم : هومر كورى

الكاتب الروائى

كانت اشد لحظات حياتى مرارة ، حين طرق « العمدة » باب بيتى ذات يوم من عام ١٩٢٣ ، فوليت هاربا من البـــاب الخلفى للدار وكنت قبـــل اثنتى عشرة ســـنة من ذلك التاريخ . احسب اننى اتربع على قمة العلم . فقد بعت احـــدى رواياتى وعنوانها « غرب البرج المائى West of The water Tower» لشركة سينمائية لقاء مبلغ ضخم ، مكننى من ان اقضى مع عائلتى سنتين متجولين فى اوربا كما يفعل اصحاب الملايين .

وامضيت ستة اشهر فى باريس كتبت خلالها رواية سينمائية اخرى عنوانها « كان عليهم أن يشاهدوا باريس » They Had to See Paris فابتاعها منى المنتج السينمائى « ويل روجرز » واخرجها ، فكانت أولى رواياته السينمائية الناطقة . وعرضت على عروض سخية لكى ابقى فى هوليود واتفرغ للتاليف السينمائى لحساب « أفلام ويل روجرز » ولكننى لم اقبل ، وقفلت عائدا الى نيويورك . وهناك بدات متاعبى فقد خطر لى ان لى مواهب كامنة لم احاول الاستفادة منها ، وخيل الى اننى « رجل اعمال » بارع قدير دون ان ادرى! وحدثنى بعض معارفى أن « جاكوب آستور» قد كسب ملايين الدولارات من الاتجار بالأراضى فى نيويورك . ومن هو آستور هـــذا ؟ انه ليس اكثر من مهاجر شريد تشوب لغته الانجليزية لكنة اجنبية ! فاذا كان الأجنبى الشريد وســـعه ان يكسب الملايين فلماذا لا يسعنى أنا ؟! ومن ثم عولت على أن اكون ثريا أمثل ! .

وكنت — على جهـــلى — مقـــدما . فخطر لى ، لكى ابدا مشروعاتى المالية الضخمة ، أن ارهن منزلى ، ففعلت واشتريت اراضى البناء فى « فورست هيلز » ، واعتزمت أن أحتفظ بها حتى

يدب العمران فى تلك الأنحاء . ويرتفع سعر أراضيها ، فأبيعها . . نعم . . انا الذى لم يبيع فى حياته شبرا واحدا من الأرض ! .

ونجأة انقضت الأزمة الاقتصادية كالصاعقة ، فزعزعتنى كما تزعزع العاصفة الهوجاء غصنا طريا ! وكان لزاما على انفق شهريا ٢٢٠ دولارا على « الأرض الطيبة » التى اقتنيها ، فضلا عن دفع اقساط الرهن المفروض على منزلى ، واجتاحنى القلق ، وحاولت دفعه بكتابة المقالات والقصص الفكاهية للمجلات ، وعبثا كانت محاولاتى فاننى لم استطع ان ابيع شيئا من مؤلفاتى ، فقد فشلت الرواية التى كتبتها فى تلك الأثناء ، ولم يقدر لها الرواج واحسست بالحاجة الى المال ، ولم يعد لدى ما استطيع ان احصل على المال فى مقابله سوى « الآلة الكاتبة » واغطية ذهبية لبعض أسنانى .

وثقل على القلق حتى حرمنى النوم ، وكثيرا ماكنت أستيقظ فى هداة الليل ، فأخرج الى الطريق واسير على قدمى ساعات طويلة لعلى أشعر بالاعياء فأستطيع النوم . وعبثا كانت محاولتى! فقد انتهى الأمر بأن فقدت الأرض الفضاء التى علقت عليها احلامى واستولى المصرف الذى رهنت منزلى لديه على المنزل ، واوفد الى العمدة ليطردنى وعائلتى منه الى عرض الطريق ! ووسعنى بطريقة ما ، أن احصل على بضعة دولارات ، استأجرت بها « شقة » متواضعة ، انتقلنا اليها فى آخر يوم من أيام عام ١٩٣٣ وهناك جلست على احدى الحقائب أتلفت حولى . . فرن فى أذنى قول كثيرا ما رددته أمى على مسمعى « لاتبك على اللبن المراق » ولكن ما أريق — فى حالتى هذه — لم يكن لبنا ، بل كان دما ! .

وبعد أن استسلمت ساعة لخواطرى ، فى جلستى تلك . قلت لنفسى : « ها انت قد غصت الى القاع ، ونجوت ، لم يبق اذن الا أن تطفو على السطح ، فلم يعد هناك أسفل من القاع » .

وظللت افكر فى الأشياء التى سلمت من الرهن أو الضياع ، فرايت أننى مازلت املك صحتى ، واصـــدقائى فعولت أن على ان أبدأ من جديد ، ولا ابكى على الماضى . وحولت طاقة النشاط التى كنت أبددها بالقلق ، الى العمل المجدى ، وانى اليوم لشاكر لله ما ابتلانى به من نوازل فقد اولتنى قوة ، واحتمالا ، وثقة ، وحين يتسلل الى القلق الآن استطيع أن اقصيه بتذكير نفسى فى الوقت الذى غصت فيه القاع ونجوت .

كل بدوره أيها السادة ؟

بقلم : هومر ميللر

مؤلف كتاب « الق نظرة على نفسك »

اكتشفت منذ سنوات اننى لا استطيع التغلب على القلق بالهروب منه ، وانما بتحويل اتجاهى الذهنى الى اسبابه ودواعيه فما يسبب لى القلق ليس شيئا غريبا عنى ، وانما هو بداخل نفسى وقد وجدت بمضى الزمن . ان تعاقب الليل والنهار كفيل من تلقاء ذاته ، بمحو القلق ، ومن ثم آليت على نفسى الا افكر فى مشكلة تطرأ لى وتستحثنى على القلق ، حتى ينقضى عليها اسبوع ، وبديهى أننى لا أستطيع ان أكف تماما عن التفكير فى مشكلتى مدى اسبوع ، ولكنى على الأقل لا أسمح لها بأن تستحوذ على تفكيرى كله حتى يمر الأسبوع . وهناك اما ان أجد المشكلة قد حلت من تلقاء نفسها ، واما أن أكون قد غيرت اتجاهى الذهنى بحيث يستعصى على هذه المشكلة ان تقلقنى ! .

وقد ساعدتنى على التزام هذه الخطة فلسفة « سير وليم اوسلر » الرجل الذى لم يكن فذا فى الطب وحده ! بل كان عبقريا فى « معالجة » الحياة كذلك : وقد وجدت فى احدى عباراته حافزا قويا على طرد القلق : قال سيروليم فى مأدبة عشاء اقيمت لتكريمه: « اننى أعزو ما نلته من نجاح الى قاعدة انتهجتها ، وهى تقضى بأن أتفرغ فى يومى هـذا لمشكلات اليوم وحده تاركا المستقبل ليتكفل بنفسه » .

وفى ابان كفاحى ضد القلق ، اتخذت لنفسى شعارا ، عبارة كان يرددها ببغاء حدثنى ابى بقصته ، كان هذا الببغاء موضوعا فى قفص معلق فى داخل نوادى الصيد فى بنسلفانيا ، فاذا توافد الأعضاء على باب النادى ، انطلق الببغاء يردد عبارته المحفوظة هذه « كل بدوره ايها السادة ! » ولقد وجدت اننى متى اخذت مشكلاتى كل مشكلة بدورها ، أجدانى هذا راحة وصفاء ذهنيا ومقدرة على الحسم والفصل .

كيف عاش « جون روكفلر »

سنوات فوق عمره

جمع جون روكفلر « الأب » اول مليون من ثروته وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره ، وفى الثالثة والأربعين كان قد انشأ اضخم شركة احتكار عرفها العالم وهى « شركة استاندارد اويل » فماذا صنع فى سن الثالثة والخمسين ؟ لقد اسلم زمامه للقلق الذى حطم صحته ، حتى لقد « كان يبدو كالدمية » — على حد قول « جون وينكلر » . احد كتاب سيرته .

لقد أصيب فى هذه السن بسوء الهضم ، وتساقط شعر راسه ، وتقصفت أهدابه ، ولم يبق فى حاجبيه الا خط شاحب رفيع .

قال وينكلر : « وقد بلغت حالته الصحية حدا بالغا من الخطورة حتى أن الأطباء نصحوا له بأن يعيش على اللبن ولا شيء سواه » وقد عزا الأطباء صلعه الى اضطراب عصبى . وكان منظره فى الصلع غاية فى القبح ، حتى انه كان يرتدى « طاقية » على الدوام ، ثم عمد فيما بعد الى وضع شعر أشهب مستعار كان يجدده بين حين وآخر لقاء ٥٠٠ دولار !

وكان روكفلر فى شبابه متين البنيان ، منتصب القامة ، عريض المنكبين ، قوى البنية ، ولكنه ما ان بلغ الثالثة والخمسين — السن التى تكتمل فيها القوة والصحة — حتى انحنت قامته ، وناءت رجلاه بحمله ! .

كان روكفلر ، فى تلك السن ، أغنى رجل فى العالم ، وبرغم ذلك فقد كان يعيش على طعام لا يقيم أود طفل ! كان دخله يبلغ مليون دولار فى الأسبوع . ومع هذا فان ما ينفقه على غذائه لم يكن يزيد على دولارين فى الأسبوع ، فقد كان يعيش — كما أسلفنا — على اللبن وقطع البسكويت ! .

واستحال روكفلر الى هيكل عظمى مكسو بالجلد الأصفر

الباهت ولم ينقذه من الموت فى تلك السن الا الرعاية الطبية التى بذل فى سبيلها الأمــوال الطائلة . فما الذى وصل بروكفلر الى تلك الحال ؟ القلق .. والصدمات .. والضغط المتواصل على أعصابه .. والتوتر المستمر !

كان روكفلر يعبد المال .. ولم يكن شىء يلهب حماسته ، ويبث فيه القوة ، ويدخل على قلبه السعادة — حتى وهو فى مطلع شبابه ! — أكثر من سماعه بنجاح صفقة عقدها ! كان اذ ذاك يلقى بقبعته على الأرض ، ويروح يرقص من فرط السرور ، اما اذا سمع بنبأ خسارة حاقت به ، فانه يمض فى التو واللحظة ! .

حدث ذات مرة أن شحن ما قيمته أربعون الف دولار من الغلال ، عن طريق « البحيرات العظمى » دون أن يؤمن عليها ؛ فى حين ان التــأمين عليها لم يكن ليكلفه أكثر من ١٥٠ دولارا ؛ وفى الليلة التى أبحرت فيها السفينة التى تحمــل الغلال ، هبت عاصفة عاتية على بحيرة « ايرى » — احدى البحيرات العظمى — فتولى روكفلر القلق الممض خشية أن يصيب الحمولة مكروه . وحين ذهب شريكه « جورج جاردنر » الى المكتب فى الصــباح التالى ، وجده يزرع الأرض جيئة وذهابا من فرط القلق ! واستقبله روكفلر صائحا : « بربك أسرع واستعلم هل يمكننا أن نؤمن على الحمولة الآن أم أن الوقت قد فات ! » واندفع جاردنر الى شركة التأمين . ودفع المبلغ ، فلما عاد الى روكفلر يحمل النبأ المطمئن ، وجده أسوأ حالا مما تركه. ذلك انه تسلم برقية تنبئه بأن الحمولة وصــلت الى وجهتها ســالمة ، فحز فى نفسه أنه بدد — ١٥٠ دولارا — قيمة التأمين هباء ! .

ولقد مرض روكفلر فى ذلك اليوم ، وقصــد توا الى بيته حيث لزم فراشه ! .. وكان روكفلر يربح فى ذلك الوقت نصف مليون دولار فى السنة ! .

ولم يكن روكفلر يجد وقتا للــهو أو للترفيه . حدث أن ابتاع

شريكه جورج جاردنر « يختا » ثمنه ٢٠٠٠ دولار — بالاشتراك مع ثلاثة من الأصدقاء ، ليتنزهوا عليه فى أوقات الفراغ — فلما علم روكفلر بهذا النبأ كاد يصعق — ولقيه جاردنر بعد ظهر يوم السبت — وهو وقت عطلة — ! مكبا على العمل فى المكتب فتوسل اليه قائلا : « بربك ياجون دعك من العمل الآن ، وهيا معى الى نزهة بحرية على ظهر اليخت . ان هذه النزهة ستفيد صحتك » ، فتجهم وجه روكفلر وقال : « أسمع يا جاردنر .. انك أعظم مسرف متلاف عرفته فى حياتى ! ان مركزك المالى يتزعزع ، وكذلك مركزى . فان انت دابت على هذه الحال فستنتهى الأمر الى انهيار شركتنا اننى لن اذهب معك الى نزهة، ولا أريد أن أرى هذا « اليخت » الذى « ابتعته » وانصرف الى عمله حتى ساعة متأخرة من الليل ! .

ولم يعرف جون روكفلر ، طوال حياته ، المرح ولا الدعابة، وقد أثر عنه أنه قال يوما : « لم اكن اتوسد فراشى ليلة قبل أن اذكر نفسى بأن هذا النجاح الذى نلته قد يكون موقوتا ! ».

وكان موظفو روكفلر ومساعدوه يعيشون فى خوف منه مقيم ! ومن الشائعات العجيبة انه كان بدوره يخافهم ! كان يخاف أن يكشفوا فى احاديثهم — خارج العمل — اسرار العمل فيفيد منها منافسوه ! .

وعندما بلغ روكفلر اوج مجده ، وصار الذهب يتدفق عليه كما يتدفق الحمم الوهاج على جوانب بركان « فيتزوف » . اذا بعالمه الذى بناه لنفسه ينهار فجاة ! فقد صنفت الكتب ، ودبجت المقالات فى الصحف ، تفيض بالسخط والنقمة على « البارون » المحتال صاحب « شركة ستاندارد اويل » الذى لا يتورع عن سحق كل من تحدثه نفسه بمنافسته ! .

لقد مقته عمال حقول البترول فى بنسلفانيا اكثر مما مقتوا انسانا آخر فى الوجود ، وود كثيرون منهم لو استطاعوا ان يلفوا حول عنقه حبلا غليظا يشدونه الى فرع شجرة ، ويتركون جسمه مدلى فى الهواء عبرة لمن يعتبر ! .

وتدفقت على روكفلر خطابات السباب والتهديد ؛ حتى انه استاجر حراسا أشداء وكل اليهم المحافظة على حياته . وحاول أن يتجاهل تيار السخط المنصب عليه ، ولكن عبثا ! فانه لم يقو على احتمال القلق والمقت معا . واخذت صحته تنهار . وداخلته الدهشة والحيرة من امر المرض — ذلك العدو الجديد الذى أتاه من داخل نفسه ! — وقد حاول فى مبدا الأمر أن يخفى أمر المرض الذى كانت تتاقت نوياته ، وحاول أن يقصى عن ذهنه التفكير فى أنه رجل مريض ، ولكن الأرق ، وسوء الهضم ، و ساقط الشعر ، وما يصاحب القلق الدفين من أمراض جسيمة . تحالفت ضده فلم يستطع انكارها .

وخيره الأطباء بين اعتزال العمل أو الموت ، فاختار اعتزال العمل ، ولكن .. بعد أن حطمته المطامع ، والمخاوف ، والقلق، وحين قابلته فى ذلك الوقت « ايدا تاريل » أشهر كاتبات التراجم والسير الأمريكيات ، صدمت لمرآه ، وكتبت تقول :« كان يبدو عليه كانه بلغ ارذل العمر » . ولم يكن روكفلر عجوزا الى هذا الحد، فقد كان أصغر من الجنرال ماك آرثر حين اعتقل فى الفلبين! ولكنه كان مهدما محطما حتى ان « ايدا تاريل » امتلأت شفقة عليه ، وكان فى ذلك من التناقض ما فيه ، فقد كانت « ايدا » فى ذلك الوقت ، عاكفة على اتمام كتابها الذى تصب فيه جام نقمتها على شركة ستاندارد أويل ! .

وحين اخذ الأطباء على عاتقهم رعاية حياة روكفلر أوصوه باتباع ثلاث قواعد .. فاتبعها روكفلر الى آخر حياته . واليك هذه القواعد الثلاثة :

١ — تجنب القلق مهما تكن الظروف والأحوال .

٢ — استرخ وتنزه ما امكن فى الهواء الطلق .

٣ — قلل من غذائك ، انهض عن المائدة وانت تشعر بالجوع .

واطاع روكفلر تلك القواعد الثــلاث ، فاعتزل العمل ، وتعلم لعب « الجــولف » ، وهوا الزراعة وأخذ يمضى الــوقت فى التودد الى جــيرانه ، وراح يتسلى بلعب الورق ، وانشــاد الأغاني ! .

ولكنه فضلا عن هذا كله فعل شيئا آخر .. فقد اخذ يفكر فى غيره من الناس ، وكف لأول مرة عن التفكير فى كيفية الحصول على المال ، وجعل يتسائل : كيف يستطيع هذا المال الذى جمعته أن يهيىء السعادة للانسانية ؟ !

وما لبث روكفلر أن بدأ يتخلى عن ملايينه ! ولم يكن هــذا يسيرا فى مبدأ الأمر ، فانه حين وهب الكنيسة جانبا من ماله ، ثار رجال الدين فى طول البلاد وعرضها ، وارادوا رد هذا المال لأنه مستنزف من دماء البشر ! ولكن روكفلر داب على الاعطاء . وتناهى الى سمعه يوما نبأ كلية صغيرة على ضفاف بحيرة ميتشجيان اضطرت الى اغلاق ابوابها لأنها لم تستطع وفاء دين عليها ، فخف لنجدتها ، وصب فيها الملايين صبا فشيد مبنى لها جديدا ، ووسعها ، وزينها ، فأصبحت واحدة من أشهر الجامعات فى العالم تلك هى جامعة شيكاغو .

واراد روكفلر ان يسدى المعونة الى الزنوج ، فوهبهم المال الذى مكنهم من انشاءجامعات خاصة بهم مثل جامعة « تسكيجى» وســاهم فى محاربة داء الانكلستوما ، فقد قال له يوما الدكتور « تشارلس ستايلر » ، اخصائى الانكلستوما : « ان دواء قيمته خمسون سنتا (اى نحو عشرين قرشا) كفيل بانقاذ حياة مريض بهذا الداء الذى يكتسح الجنوب . ولكن اين لنا هذه الخمســون سنتا ؟! » فسرعان ما تبرع روكفلر بالملايين لصد غائلة هذا الداء الذى روع الجنوب ، بل انه ذهب الى ابعد من هذا .. انشــأ مؤسسته الدوليــة الشــهيرة — مؤسسة روكفلر — لتحارب الجهل والمرض فى أصقاع الدنيا كافة .

واننى لأتحدث عن هذه الأعمال الانسانية الجليلة وشعور

الامتنــان يعمــر قلبى . فمن يدرى ؟ لعلــى ادين بحياتى يوما لمؤسسة روكفلر ؟ فانى لأذكر جيداً عام ١٩٣٢ ، حــين اكتسح الصين وباء الكوليرا ، وكنت هناك وقتها ، فرأيت هذا الوباء يفتك بأرواح الفــلاحين الصينيين فتكا ذريعا . وقد ذهبنا حينئذ الى « مدرسة روكفلر الطبية » فى بكين ، حيث حصنا انفسنا بالحقن المضادة لهذا الداء ، وكانت المدرسة تحقن الوطنيين والاجانب بلا تفريق .

نعم : لم تعرف الدنيا من قبل شيئا سما الى مرتبة مؤسسة روكفلر . انها شىء فريد . كان روكفلر يدرك أن العــالم تجتاحه موجة مباركة من الاستكشافات النافعة ، والبحوث العلميــة المجدية ، والرغبة الجامحة فى محو الجهل ونشر التعليم ، وتأمين سكان الأرض ضد الأمراض والأوبئة . ولكن المال كان يعوز حاملى لواء هــذه الموجة المباركة فى انحاء الأرض . ومن ثم اعتزم أن يظاهر هؤلاء المتطوعين لخدمة البشرية لا باحتكارهم ، كدأبه فى اعماله التجارية ! وانما يمدهم بالمال الذى يحتاجونه .

وها انا وانت اليــوم نحمد لروكفلر المعجزات التى حققتها « البنسلين » وعشرات غيره من العقاقير التى ساعدت أمواله على استكشافها . وانك لتستطيع الآن ان تحمد لروكفلر ان وقى اطفالك شر الحمى الشوكية ، ذلك الداء الوبيل الذى كان يقتل اربعة من كل خمسة يصابون به . وتحمد له الجهود المبذولة الآن لصد غائلة الملاريا ، والســل ، والانفلونزا ، والدفتريا ، وعشرات غيرها من الأمراض والأوبئة التى مازال العالم يعانيها .

وماذا عن روكفلر نفسه ؟ أتراه حين تخلى عن المال عاوده السلام ، والأمان ، والاطمئنان ؟ . لقــد كتب « الآن نيفينز » يقول : « اذا كان العالم يعتقد أن روكفلر ، بعد عام ١٩٠٠ ، مبرح محزونا مرتاعا للنقمة المصبوبة على شركة ستاندارد أويل فالعالم ولاشك مخطىء فى اعتقاده » ! .

لقد احس روكفلر بالسعادة ، ولم يعد للقلق سلطان عليه ، حتى انه استطاع ان ينام ملء جفنيه فى الليلة التى سمع فيها باكبر هزيمة اذ حكم عليها بأن تدفع اكبر غرامة عرفهـا التاريخ ! . ذلك ان حكومة الولايات المتحدت رات ان عرفها التاريخ ! . ذلك ان حكومة الولايات المتحدة رات ان شركة ستاندارد اويل ، قد تحولت الى شركة احتكار . الامر الذى يخالف القانون ، فأقامت عليها الدعوى أمام القضاء ولبثت القضية معروضة على القضاء خمس سنوات الى أن خسرتها شركة ستاندارد . وحين نطق القاضى « كينسون مارتن لانديس » بالحكم خشى محاموا الشركة ان يصاب روكفلر بصدمة عنيفة حين يسمع به ، ولكنهم لم يكونوا يعلمون مدى التغير الذى وصل اليه روكفلر واتصل به احد المحامين فى تلك الليلة ، تليفونيا ، ونهى اليه ما انتهت اليه القضية مهونا عليه الامر بقدر ما يستطيع، واخيرا قال له : « وكل املى الا ترتاع لهذه النتيجة ، والا يستعصى عليك النوم بسببها » ، وجاءه صوت روكفلر يقول : « لا تقلق بالك على يا مستر جونسون ، فاننى اعتزم ان انام ملء جفنى هذه الليلة ، طاب مساك » ! .

نعم ! صدر هذا الكلام من الرجل الذى لزم الفراش يوما لانه بدد ١٥٠ دولارا ! حقا استغرق قهر القلق وقتا طويلا من جون روكفلر ، ولكن تغلبه على القلق اجداه ، كثيرا . فقد كان المتوقع له أن يموت فى سن الثالثة والخمسين . ولكنه عاش حتى بلغ الثامنة والتسعين .

مطالعة كتاب عن الغريزة الجنسية

انقذ زوجى من الفشل

بقلم : ر . ب . و

كنت أود أن اضع اسمى كاملا على هذه القصة ولكنها — كما سوف ترى — قصة شخصية الى حد يوجب أن يظل اسمى فى طى الكتمان ، وان كان « فى وسع ديل كارنيجى » أن يقسم على صحتها ، فقد حدثته بها قبل اثنتى عشر سنة .

عقب تخرجى فى الجامعة ، حصلت على عملى باحدى المؤسسات الصناعية الكبرى ، فلما انقضت على التحاقى بالعمل خمس سنوات أرسلتنى ادارة المؤسسة عبر الأطلنطى لأمثلها فى الشرق الأقصى. وقبل أن ابارح أمريكا بأسبوع ، تزوجت من اجل والطف فتاة صادفتها فى حياتى .. ولشد ما كانت فجيعتى حين انجلى « شهر العسل » عن خيبة مريرة لنا كلينا — ولزوجتى على الخصوص ! فما كدنا نصل الى جزيرة « هاواى » حتى كانت الخيبة قد أمضت زوجتى ، لدرجة أنها أوشكت أن تخاطر بالعودة الى أمريكا ، وان تصارح لداتها ومعارفها ، فى غير خجل بأنها فشلت فى أمتع مغامرات العمر ! .

وعشنا فى الشرق سنتين حافلتين بالشقاء . بلغت بى التعاسة فكرت معه فى الانتحار اكثر من مرة ثم فى ذات يوم وقعت على كتاب غير مجرى حياتى تماما .

فقد كنت منذ حداثتى ، من هواة الكتب ، وفى ذات ليلة كنت أزر أحد أصدقائى الأمريكيين ، حين رأيت فى مكتبته الأنيفة كتابا

عنوانه « الزواج المثالى » تأليف الدكتور فان دى ڤيلد (١) ، ولاح لى كأن العنوان ينطوى على كثير من المبالغة ، او التفاؤل على الأقل ولكنى بدافع حب الاستطلاع ، تناولته وتصفحته ، فلقيته يتناول بالبحث الناحية الجنسية للزواج على وجه الخصوص .. ويتناولها فى صراحة بعيدة ، فى الوقت نفسه ، عن الابتزال والمجون .

ولو ان احدا ، من حدثته نفسه أن ينصح لى بقراءة كتاب عن الناحية الجنسية لجرح كبريائى ! فلقد بلغت حدا من المعرفة يمكننى من اضع كتابا ! ولكن الشقاء الذى كان يسربل حياتى الزوجية ، دفعنى دفعا الى قراءة هذا الكتاب ، فجمعت اطراف شجاعتى ، وسألت صاحبى أن يعيرنى الكتاب اياما .

وانى لأقرر مخلصا أن مطالعتى هذا الكتاب كانت حدثا جللا من أحداث حياتى . وقراته زوجتى كذلك ، فأحال هذا الكتاب زواجنا الفاشل الخائب الى رفقة سعيدة مباركة .

ولو اننى امتلك مليون ريال لاشتريت حقوق نشر هذا الكتاب ، ووزعت نسخة مجانا بالآلاف على الشباب والشابات الراغبين فى الزواج .

ولقد قرات ذات مرة أن الدكتور « جون واطسون » ، العالم النفسانى المعروف ، قال : « الغريزة الجنسية هى بغير منازع أقوى مقومات الحياة ، واليها يرجع معظم الشقاء الذى يعانيه البشر رجالا ونساء » .

واذا لم ينطوى قول الدكتور واطسون على الحق المطلق ، فهو على الأقل ينطوى على معظم الحق .

---

(١) Van de, "Ideal Marriage.,
وقد نشرت مكتبة الخانجى هذا الكتاب .

وان شئت ان تعلم ما يحف بالزواج من اخطاء ، فاقرأ كتاب « خطأ الزواج ؟ » لمؤلفيه الدكتور « ج ف . هاملتون » ، و « كينيث ماكجون » (١) فقد امضى الدكتور هاملتون اربع سنوات يبحث فى اخطاء الزواج قبل ان يؤلف كتابه هذا ، وهو يقول : « من الحقائق التى لا تقبل الشك ان مرد الخيبة فى الزواج الى عدم التوافق الجنسى ! وصحيح ان ثمة صعوبات اخرى تعتور طريق الزواج ولكن هذه كلها لا تنال من صرح الزواج بقدر ما ينال عدم التوافق الجنسي بين الزوجين » .

وانا أعلم أن ما يقوله الدكتور هاملتون هو الحق . اعلم هذا من التجربة المريرة التى مررت بها ! .

* * *

والآن وقد انتهيت من قراءة هذا الكتاب ، اقترح عليك أن تيمد قراءته مرة أخرى ، وأن تضع خطا تحت المبادىء والقواعد التى ترى انها قد تعينك على حل مشكلاتك ثم ادرس هذه المبادىء واستخدمها واعلم اخيرا ان هذا ليس كتابا للتسلية وقتل الوقت وانما هو مرشد عملى مهمته تسديد خطاك فى طريق الصحة والسعادة ، والنجاح .

---

(1) Dr. J. V. Hamilton and Kenneth Mac Gowan, "What is with marriage .,,.

وقد نشرت مكتبة الخانجى هذا الكتاب .

فهـرس الكتـاب

الجـزء الأول

حقائق اساسية ينبغى ان تعرفها

الجـزء الثـانى

الطرق الأساسية لتحليل القلق

الجـزء الثالث

كيف تحطم عادة القلق قبل ان تحطمك

صفحة

الجـــزء الرابـــع

سبع طرق لخلق اتجاه ذهنى يجلب لك الطمانينة والسعادة

الجـــزء الخـــامس

القاعدة الذهبية لقهر القلق

الجـــزء السادس

كيف تتجنب القلق الذى يسببه لك النقد

الجـــزء الســـابع

ست طرق تقيك الاعياء والقلق وتحفظ لك شبابك وحيوتك

صفحة

الفصل الثامن والعشرون : كيف تتجنب القلق الناشىء

الجــزء الثــامن

كيف تحصلى على العمل الذى يلائمك

الجــزء التاسع

كيف تزيل متاعبك المــالية

قصص واقعية يروى أبطالها كيف قهروا القلق